مركز تحقيقات امام علي

(٥)

علي
الإمام المبين

تأليف

علي ابوالخير

معهد العلوم الانسانية والدراسات الثقافية

بسم الله الرحمن الرحيم

على
الإمام المبين

التأليف
علي أبو الخير

مراجعة
الدكتور حامد صدقي

معهد العلوم الانسانية والدراسات الثقافية
طهران، ١٤٢٢ هـ ق (٢٠٠٤ م)

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٣٧٩٦٥
التاريخ ٢٠/١/٢٠٠٧

ابوالخیر، علی
علی الامام‌المبین / تألیف علی ابوالخیر؛ ویراستار: حامد صدقی. — تهران: پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی، ۱۳۸۲.
ل: ۲۰۸
ISBN 964-426-204-2
فهرستنویسی براساس اطلاعات فیپا.
عربی
کتابنامه ص. ۲۰۳ ـ ۲۰۸؛ همچنین به‌صورت زیرنویس.
۱. علی‌بن ابی‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت ــ ۴۰ ق. الف. صدقی، حامد، ۱۳۲۴ ــ ب. پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی. ج. عنوان.
۸ ع ۶۸ الف / BP۲۷ / ۳۵ ۲۹۷ / ۹۵۱
کتابخانهٔ ملی ایران ۸۲-۲۲۱۲۰ م

علی الإمام‌المبین

التألیف: علی أبوالخیر
الناشر: معهد العلوم الإنسانیة والدراسات الثقافیة
مدیر النشر: رحمت‌الله رحمت‌پور
الطبعة الاولی: ۱۴۲۴ ق.
المطبوع: ۲۰۰۰ نسخة
الناظر الطبع: سید ابراهیم سیدعلی
الطبع والتجلید: شرکة طباعة بهمن
تسلسل النشر: ۲۶-۸۲

حقوق الطبع محفوظة لمعهد العلوم الإنسانیة والدراسات الثقافیة

شابک ۲-۲۰۴-۲۲۶-۹۶۴ ISBN 964. 426. 204. 2

النجف الاشرف

فهرست الکتاب

تقدیم ..... أ
الإهداء ..... هـ
إرهاصة الکتاب ..... ز
ضرورة الفهم أوّلاً ۱
العصبیة تمتد مع الفتوحات ۱۲
تزییف التاریخ ۲۲
أسطورة ابن سبا... خداع مصنوع ۵۲
ذوو القربی ۸۷
حقیقة فضل الإمام ۹۲
حقیقة المودة ۱۰۸
الاستبداد یضیّع معالم الدّین ۱۱۳
أبو الأئمة ۱۲۳

حقائق قرآنية ١٤١
الإمام اليعسوب ١٥٥
زواج المعصومين ١٦٨
وحدة الأُمّة هدف الإمام ١٧٨
الإمام في خضم الفتنة ١٨٨
بيعة ليست فلتة ١٩٤
الإصرار الأموي على الفتنه ٢٠٥
الإمام الشامل ٢٢٩
فكْرةٌ في خَلْق السماوات والأرض ٢٣٢
حقيقة الإيمان والقضاء والقدر ٢٣٨
الحكمة ضالته.. ضالة المؤمن ٢٤١
الإمام المبين ٢٦٣
بعض من تفسير الإمام للقرآن ٢٨٢
علي، الإمام المبين.. لماذا؟ ٢٩٢
مراجع الكتاب ٣٠٣

تقديم

قدم معهد العلوم االإنسانية و الدراسات الثقافية مشروع تأسيس "مركز دراسات الإمام على (ع)" إلى وزارة العلوم و البحوث و التقنية و ذلک إثر الاستقبال الواسع الذى حظى به المؤتمر الدولى الذى انعقد بطهران أوائل سنة ٢٠٠١ م تحت عنوان "الإمام على (ع) و العدالة و الوحدة و الأمن" من قبل العلماء و الباحثين. و قد وافق مجلس توسيع التعليم العالى بجلسته المؤرخة فى ٢٠٠١/٦/٢ م على ذلک المشروع.

إن الهدف من تأسيس هذا المركز هو القيام ببحوث و دراسات فى مجال بيان أبعاد شخصية أميرالمؤمنين الإمام على (ع) و تعاليمه ، و الاستفادة منها بغية المساعدة فى حل القضايا الفكرية و الإجتماعية التى تعانى منها المجتمعات الإنسانية فى الوقت الحاضر بصورة عامة ، و المجتمعات الإسلامية بصورة خاصة.

و من أجل تحقيق هذا الهدف ، فإن المجلس العلمى للمركز قد أقرّ القيام ببحوث و دراسات فى المجالات العشرة الآتية على ضوء نظرات الإمام على (ع) و آرائه :

الحكمة و معرفة الإنسان و العالم.

الاقتصاد.

السياسة و الدولة.

التربية و علم النفس.

العبادات و الأدعية.

التاريخ و علم الإجتماع.

معرفة الجمال.

الإمام على (ع) و القرآن.

الأخلاق و العرفان.

بيان سيرة الإمام على (ع) و تعاليمه.

و قد نشر الإعلان الخاص بالدعوة إلى الكتابة فى هذه المجالات فى الصحف و المجلّات ، كما تم ارساله إلى الأوساط الجامعية و المراكز البحثية فى داخل الجمهورية الاسلامية و خارجها.

و يعدّ هذا الكتاب "علىّ ، الإمام المبين" للأستاذ على أبوالخير الكاتب المصرى، الأديب الفاضل من أوائل الكتب التى ألّفت استجابة للدعوة المذكورة.

كلّنا أمل أن تكون مثل هذه المؤلفات و البحوث نافعة و مفيدة فى مجال نشر المعارف العلَويّة فى هذا العصر المتأزم الذى استطاعت فيه المادية و العلمانية أن تقرّب المجتمع الإنسانى الى حافة الهاوية و الهلاك ، و أن تكون تعاليم ذلك الإمام الهمام الذى يعدّ شمس الهداية ، دليلاً للبشرية الضائعة التائهة.

الدكتور مهدى گلشنى

رئيس معهد العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية

الإهـــــداء

إلى أمى ...
التى ما زلتُ أتمنى أن أكون مثلها ورعاً وتقوى ...
بعيداً عن فلسفات الفكر ومتاعب الكتابة ...

على أبوالخير

إرهاصة الكتاب

ظللتُ متردداً لسنوات فى الكتابة عن الإمام على بن أبـــى طالب؛ متهيباً الكتابة فى سيرته؛ لما فيها من فضيلة معذِّبـــة ، وإنسانية مضطَّهدة امتدَّت لبنيه على مر العصور...

والكتابة عن أمير المؤمنين تعنى الحـــديث عـــن الفضـــيلة والطهر والنقاء، وتعنى ــ أيضاً ــ أنه لم يُسَخِّر يوماً الدين من أجل السياسة، ولم يطوِّع الآيات القرآنية ــ مثلما فَعَل غيـــره ــ لكى تخدم سلطته وتوظف أهدافه فى الحكم ...

وتعنى الكتابة عنه ــ أيضاً ــ مراجعة ما اعتقدتُ على مدى سنوات عمرى أنه من المسلّمات المقدّسة، ولكنها ليست من القداسة فى شىء.

فسيرته عبارة عن سلسلة متصلة من نهْج سبيل المؤمنين الصادقين.

فهو يعسوب الدين، يعسوب المؤمنين كما قال الصادق المعصوم صلى الله عليه وآله وسلّم عنه، وهو يمثّل أنصع صور الإسلام فى أبهى مراحله، وهو نرجس فى صحارى القلوب الحيارى الظامئة للحقيقة، والنور الإلهى الذى انبعث مع مقدم صاحب الرسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلّم ...

وهو بحر العلم الذى لا شاطىء له، ولعله يكاد يكون الوحيد الذى طالما قال لأصحابه : سلونى قبل أن تفقدونى.

وكم سألوه، وكم أجابهم بما فى كتاب الله وغمض عليهم، ولكنه استشفّ بنور من عصمهم الله بذهاب الرجس عنهم، وتمكّن أن يزيل الالتباس عن مفاهيم القوم التى حاول محاربوه أن يضيفوا على الالتباس إبهامات كثيرة تفيدهم فى دنياهم دون دينهم .

وأنار بما وعت أذناه من النبى الكريم درب المتقين، وألهب خيال الحالمين المشتاقين للعدل الذى أرساه الله فى كتابه الكريم

وسنّة نبيّه المطهّرة، العدل والمساواة التى لا تفضّل أحداً على أحد إلا بالتقوى كما جاء فى الحديث الشريف.

وفى العصر الذى حَكَم فيه الإمام كان بداية عصر الفتن بين فريقين:

الأول: لا يتورع عن تشويه الخصم بما ليس فيه، والتقول عليه بما لم يقل، بل لم يتورع عن سبّه من فوق منابر المسلمين، وهو نفسه الذى قال: سأشترى دين أصحاب علىّ بدنياى .

والفريق الثانى الذى تزعّمه الإمام: كان يتورع عن النَسبس ببنت شفة بما يغضب الله سبحانه وتعالى، وكان يتورع عن مقابلة السب بالسب أو تشويه الخصم بما فيه ــ وليس بما ليس فيه ــ بل العدل والصدق منجاه الإمام فى حرب غير منصفة بين التقوى والزيف، والدعوة الحسنة والادعاء، بين الدنيا والآخرة ...

واختار الفريقان تماماً بما يليق بكل منهما : الدنيا لخصوم الإمام بزينتها وبهرجها وحكمها وتحكّمها فى رقاب الخلق، الدنيا ــ رغم أنها لا تدوم ــ هى التى ألهبَت حماسهم، والمال الذى طغى على عيونهم .

واختار الإمام الآخرة، والآخرة هنا ليست الجنة فقط، بل كل ما يؤدى إليها من قول وعمل وعلم وتقوى وورع وعفة وعدل ومساواة، واعتبار الدنيا ــ المحفوفة بالشهوات ــ سبيلاً للآخرة

والجنة عندما تكون تلك الدنيا مليئةً بإشراقات الإسلام والنور الذى جاء به محمد خاتماً لرسالات الله لأهل الأرض.

ولم يُرحم استشهاد الإمام، فظلّ ديدن أهل الدنيا محاربة فكره وتراثه وملاحقة أبنائه ومحبّيه وشيعته وأهل بيته، هذه المحاربة جاءت فى صورة كبت تراثه القائم على المساواة بين كل المسلمين؛ العرب والعجم، البدو والحضر، هذا الكبت والإخفاء جاء فى صورة الادعاء بأن الهاشميين حُرموا من الخلافة حتى لا يأتى منهم من يأخذ الناس بما ورثه الإمام عن نبى الله صلى الله عليه وآله وسلّم، وما كان هذا يُرضى الحكام من أمويين وعباسيين.

و ما أن استقر الحكم الدنيوى القائم على إرادة الحاكم وحده حتى استقر المفهوم الفقهى على الخضوع لمَن غلب بحدّ السيف، و كم ذاقت الأمة الويلات على أيدى الحكام قبل الأعداء من غير المسلمين، بحيث أضحى البحث عن الشورى التى جاء بها القرآن الكريم فيه مساس بسلطة الخليفة أو السلطان أو الملك، فابتعد العلماء عن البحث فى كلمة الشورى؛ لمَا رأوا من سفك للدماء من أجل الحكم، و ما رأوا كم عُذّب و قُتل من فقهاء الأمة، **مثل:** أبى حنيفة ومالك وابن حنبل، ناهيك عن علماء أهل البيت الذين قُتلوا بالسيف والسمّ ولوحقوا بالحبس والنفى

والتشريد، من أمثال: الحسن والحسين والكاظم والرضا و زيد ...

وبسبب كل ذلك وجدنا من يقول بجواز إمارة الفاسق والظالم طالما أنه يقيم الحدود، ولا أدرى كيف يقيم الحدود مَن كان فاسقاً أو ظالماً أو ناكثاً للعهد ؟! كيف؟!

أليس ذلك من ضمن المسلّمات التى اعتبروها مقدّسةً ورآها الإمام زيفاً و مراءاةً و خنوعاً لايتفق مع ما جاء به الإسلام و ما قال عنه النبى الكريم؟!

وعلى اعتبار أن سيرة الإمام ملهِمة للأمة ولائمة لمن تولى أمر المسلمين بالسيف والغلبة؛ فما كان من الملومين منهم إلا أنْ دثروا سيرته لكى تختفى عن الجمهور فلا تكون معيناً لهم على نقد الحاكم، وعن الفقهاء الذين اعتبروا حكمهم جائزاً حتى لو كان ظلماً أو فسقاً؛ خشية المزيد من إراقة الدماء.

وقد رأيت أن لا أجعل الكتاب عبارةً عن سيرة تفصيلية للإمام، ولكنى اكتفيت بعرض سيرة موجزة من سيرته التى تبيّن أهمية علم الإمام المندثر الذى لم تستفد منه الأمة على مر عصورها، موضحاً فى بداية الكتاب المسلّمات أو المفاهيم التى من طول توارثها اعتقد المسلمون أنها من الدين بالضرورة، ولكنها أبداً ليست كذلك.

كثيرون من الخطباء يرددون أقوال الأئمة وأحكامهم وتفاسير العلماء على مر الدهور، ولكن من فيهم جاء بتفسير الإمام لسورة الكوثر أو{ **ألهاكم التكاثر** } ؟! أو استفاد من خطبة فى الحكم والتوحيد والعلم اللدنى والملاحم والفتن؟! من فيهم دعا بدعائه ؟! وكم منهم واجه الحكام بعلمه ؟!

مما يدل على أن محاولة طمس علمه وفكره ما زالت مستمرة، ربما عن جهل أكثر منه عن سوء نية.

أرجو أن أكون موفقا فى إبراز هذا العلم الغزير، داعيا أن يكون عملى خالصا لوجهه الكريم.

على أبوالخير

ضرورةالفهم أوّلاً

جاء الإسلام ليميت العصبية القبلية، وينص القرآن الكـريم أن الناس كلهم إخوة فى الإنسانية ، وان أكرم الناس علـى الله هو الأتقى الذى يعبد الله عن حق ويقين ، وبغير ذلـك فلا فضل لأحد على أحد .

وآيات القرآن تنص على: **{ يا أيها الناس إنا خلقناكم مـن ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَ أكرمكم عند الله أتقاكم }**[1].

١ـ سورة الحجرات : ١٣

والنبى الأعظم يقول: { لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى }[1].

وخلال مرحلة النبوة استطاع النبى الكريم أن يبدد تلك العصبية المقيتة ، وقد تآخى المهاجرون والأنصار، وتآخى الجميع مع المستضعفين الذين عُذِّبوا فى بداية الدعوة، من أمثال: عمّار وخبّاب وبلال رضى الله عن الجميع...

وغضب النبى الكريم عندما حاول أسامة بن زيد أن يشفع فى المرأة المخزومية التى سرقت، وقال النبى **{ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها }**[2].

وقد كانت العصبية تظهر بين الحين والآخر على استحياء على يد المنافقين فى المدينة وعلى رأسهم عبد الله بن أبىّ بن سلول الذى داوم على إظهار النخوة القبلية ومحاولة التفرقة بين المهاجرين والأنصار ...

فبعد غزوة بنى المصطلق وبينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم على ماء إذ وردت واردة للناس، ومع عمر بن

٢ــ تفسير ابن كثير/ ط دار القلم / بيروت ٥٩/٤

٣ــ سيرة ابن هشام: تحقيق عمر عبدالسلام / دار الريان / القاهرة ١٩٧٨ م ١٩٨/٤

الخطاب أجير له من بنى غفار يقال له " جهجاه بن مسعود " يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهنى ــ حليف بن عوف بن الخزرج ــ على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهنى :" يا معشر الأنصار "، وصرخ جهجاه :" يا معشر المهاجرين "، فغضب عبد الله بن أبىّ بن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث، فقال:"أو قد فعلوها ؟! قد نافرونا و كاثرونا فى بلادنا، والله ما أعدّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل ... "، فلمّا سمع النبى صلى الله عليه وآله وسلّم ذلك قال **{ دعوها ؛ فإنها منتنة }** يعنى أنها كلمة خبيثة ؛ لأنها من دعوى الجاهلية[3].

و جعل الله المؤمنين إخوةً وحزباً واحداً، فإنما ينبغى أن تكون الدعوة "يا للمسلمين"، ولا تُوجّه للمهاجرين أو الأنصار.

فالعصبية لها رائحة كريهة فى العرف الإسلامى، ولا وجود لها بين المسلمين، **{ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم تُرحمون }**[5].

٤ــ سيرة ابن هشام (مرجع سابق) ٢٣٦/٣

٥ــ سورة الحجرات : ١٠

حتى فى حالات الخلاف فإن المؤمنين إخوة ، لا يجب اللجوء فى الخلاف إلى النعرة العصبية فى أية حال من الأحوال، ومن يفعل ذلك فقد حلّ عروةً من عُرى الإسلام.

وقد انمحت العنصرية من المسلمين أثناء فترة الوحى والنبوة، ولذلك عندما تَعجَّب أبو سفيان من كثرة المسلمين أثناء فتح مكة قال للعباس بن عبد المطلب :" لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً "، فيردّ عليه العباس :" إنها النبوة "[٦] ... النبوة التى جمعت الأضداد من البشر لتجعل منهم إخواناً على سُرُر متقابلين بعد أن نزع الله ما فى قلوبهم من غل.

و بعد وفاة النَّبىّ الكريم اعتقد الأنصار أنهم الأحق بالخلافة لرسول الله الأعظم، وحدث ما حدث فى السقيفة، ولكنّ العصبية ظهرت على استحياء.

ثُمّ اختلف الأمر مع خلافة عثمان؛ فقد تولى الأمويون معظم الولايات، بل وأساءوا السيرة، وحدث ما حدث من ثورة راح ضحيتها الخليفة نفسه؛ قُتِل مظلوماً من الثوار والأمويين على السواء .

٦ــ ابن كثير : البداية والنهاية / دار الفكر / بيروت ٩١/٦

ولم يكن فى وسع الإمام علىّ أن يئد العصبية التى أطلّت برأسها؛ فمعاوية نازعه أمراً لا يستحقّه، وتمكن أخيراً بعد مصرع الإمام أن يصبح خليفةً على المسلمين جميعاً، وقال هو عن نفسه:" أنا أول الملوك "[٧] و إن ظل يتسمى باسم " الخليفة " و باسم " أمير المؤمنين " ...

وفى خطبة له بعد تنازل الحسن عن الخلافة ــ بعد أن رأى الملك لا يتورع عن إهراق الدماء تحت مسمى الخلافة أو الملك العضوض ــ قال[٨] : ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا؛ إنكم لتفعلون ذلك، وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم ، وقد أعطانى الله ذلك وأنتم كارهون، كل شيء أعطيته للحسن بن علىّ تحت قدمىّ هاتين لا أفى به " ، وكان يعنى أن وعده للحسن بأن يكون خليفةً بعده أو يترك المسلمين أحراراً فى اختيار الخلافة لن يفى به.

وهذا يفسر لنا أن العصبية ظهرت بعد أن ابتعد الناس عن منهج النبوة، خاصّةً وبعد أن انتقلت عاصمة الإسلام من المدينة إلى دمشق .

٧ــ المصدر نفسه ١٢٠/٧

٨ــ الدكتور أحمد راسم النفيس: نفحات من السيرة / القاهرة ٢٠٠١ م /٩٤

في رسالة من معاوية للإمام يقول فيها[٩] : إن معي مائة ألف لا يعرفون عليّاً ولا قرابته، ولا سعداً ولا دعوته، ولا عمّاراً ولا سابقته ، إنهم لا يعرفون إلا العطاء.

الأمر أصبح جديداً على ما أرساه الإسلام من تصفية النفوس وعدم الاعتداد بالعنصر ولا بالقبيلة ولا بالجنس.

والنبي الكريم يقول **{ ليست العربية لكم بالأب أو الأم، ولكن من تحدّث العربية فهو عربيّ }**[١٠] ، فالعربيّ إذنْ بلسانه لا بأصله، واللسان العربيّ لا يعطي ميزةً للعربيّ إلا إذا كان تقيّاً باراً، أمّا دون ذلك فلا فضل .

وفي سبيل توطيد الملك حدث شيئان جديران بالذكر والاهتمام :

الأول : إن الشام كان يسكنها عنصران عربيان هما اليمنية والقيسية ...

اليمنية هم من سلالة هجرات قديمة وصلت للشام قبل الإسلام بقرون واستقرّت فيه، وهم الذين عمروا الشام بأسره،

٩ــ نفحات من السيرة (مرجع سابق) /٩٨

١٠ــ تفسير ابن كثير (مرجع سابق) ١٠٢/٣

وهم قبائل عديدة، أشهرها قبيلة كلب التي ورثت الغساسنة، وقد توسعت بين الشام إلى نجد.

أمّا العنصر الآخر " القيسية " فهم القبائل العربية التي وفدت الشام أثناء الفتح الإسلامي له، واستقرّوا ــ أيضاً ــ في الشام مع إخوانهم اليمنية.

وقد حدثت منازعات بين الفريقين " اليمنية والقيسية "، ولكن المنازعات اشتدت بينهما منذ انفراد الأمويين بالسلطة، وقد حرص الأمويون على تقريب إحدى الطائفتين على حساب الأخرى؛ حتى يتمكنوا من بسط سيطرتهم والاحتفاظ بالسيادة على الشام وباقي البلاد المفتوحة .

ونظراً لأن اليمنية يعتبرون أنفسهم أصحاب البلاد الأصليين وأنهم القوة التي اعتمد عليهم معاوية في حربه ضد الإمام علي؛ فقد تقرّب الأمويون لهم دون القيسية، وتوّج معاوية هذا عندما تزوّج من إحدى قبائلهم من ميسون بنت أنيف الكلبية[١١]، وهي أم يزيد، وبالتالي أصبح العرب اليمنية أخوال يزيد وذأب معاوية على فرض العطاء لليمنية، دون القيسية الذين اعتبرهم ممن

١١ــ الدكتور عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية / مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٩ م /٩٣

شهدوا مطلع الوحى وسيرة النبى الكريم، ومنهم من تجرأ عليه بالقول مثل : أبى ذر وأبى الدرداء وغيرهما .

و وصل الأمر بمعاوية ويزيد من بعده أن أصبحت لديهم سلطة دنيوية أعلى من سلطة القيسيين (وهم المهاجرون والأنصار الذين فتحوا الشام) .

وقد أوصى معاوية يزيد باليمنية قائلاً له[١٢] :" إنهم منك وأنت منهم " ، ولذلك فقد استمرّ يزيد فى الاعتماد عليهم، فانصرف العرب القيسية إلى الحرب فى الثغور ضد البيزنطيين، وقد وجدوا على إبعادهم عن مراكز السلطة؛ لأنهم كانوا يريدون أن تكون السلطة دينيّة قبل أن تكون دنيويّة .

ولذلك ... فبعد موت يزيد انحازت القيسية إلى ابن الزبير ــ وعلى رأسهم الضحاك بن قيس الفهرى ــ فبايعوا ابن الزبير نكايةً فى الأمويين، وفى الوقت نفسه انحازت اليمنية إلى الأمويين وشيخهم مروان ابن الحكم ، فقد كانوا يرفضون أن تصير الخلافة لأحد من الحجازيين غير الأمويين، وبايَعوا لمروان بالجابية سنة ٦٤ هـ[١٣]، ثم حدثت موقعة مرج راهط

١٢ــ المصدر السابق /٩٨

١٣ــ البداية والنهاية (مصدر سابق) ١٨٠/٧

بين اليمنية والقيسية قُتل فيها الضحاك بن قيس الفهرى ، واستقرّ الأمر للأمويين فى النسل المروانى .

وقد استمرّ الشام يغلى من جرّاء موقعة مرج راهط، وانحاز شعراء الطائفتين : شعراء اليمنية يفاخرون بالنصر على القيسية، وشعراء القيسية يبكون قتلاهم ويطالبون بالثأر ...

يقول أحد شعرائهم زفر بن الحارث[١٤]:

أتذهب كلب لم تنلها رماحنا ويترك قتلى راهط هى ما هيا

وتجمع القيسية للثأر، واجتمعوا تحت قيادة زفر بن الحارث ، تجمّعوا إليه من ديار مضر والثغور الجزرية، واستمرّوا فى مهاجمة قبائل كلب اليمنية فى البوادى والحضر على السواء ...

وكانت الحرب بين اليمنية والقيسية لمجرد الثأر، كما حدثت حروب بين القيسية وقبيلة تغلب (اليمنية) ، مثل : حروب يوم الثلاثاء ويوم الكحيل وتأججت معارك شعرية ، كل شاعر يفخر بقبيلته : الأخطل شاعر اليمنية ، وجرير والفرزدق شاعرا القيسية ...

نستطيع أن نؤكد أن العصبية عادت كأشد ما تكون العودة ، وحكام الأمويين يفرقون بين العرب بعضهم البعض ، وبين العرب جميعاً والموالى أو أصحاب البلاد المفتوحة ، و وصل

١٤ــ الدكتور عبدالمنعم ماجد (مصدر سابق) / ١٨٧

الأمر بهم أنهم كانوا يفرضون الخراج على الذين أسلموا من أهل هذه البلاد ، رغم أن الإسلام يمنع ذلك ، حتى أبطل عمر بن عبد العزيز هذا الأمر وقال[١٥] : إن الله بعث محمداً هادياً ، ولم يبعثه جابياً .

العصبية تمتد مع الفتوحات

والغريب أن العصبية امتدّت مع الفتوحات ، فرأينا اليمنية والقيسية تتصارعان في إفريقيا والشام والعراق وخراسان وفي الأندلس ...

نأخذ مثالاً واحداً منها[١٦] : في الأندلس في أواخر الدولة الأموية تعصّب أبو الأخطار سنة ١٢٧ هـ لليمانية ضد مضر (القيسية) ونال من خلفاء الأمويين الذين أبعدوا اليمنية في فترات سابقة ، رغم أنهم الذين مهّدوا الخلافة لآل مروان في مرج راهط ، وتحدى أبا الأخطار منافس مضريّ اسمه الصميل بن حاتم ، وتحالف مع أحد المضريين الآخرين هو ثوابة بن سلمة ، وتمكنا من هزيمة أبي الأخطار وسجْنه ، وبعد موت

١٥ــ البداية والنهاية (مرجع سابق) ٨ / ١٠٥

١٦ــ التاريخ السياسي للدولة العربية (مرجع سابق) /٢٨٨

ثوابة اختلف عرب الأندلس: فالمضرية أرادت أن يكون الأمير منهم ، واليمنية أرادت أن يكون الأمير منهم ، وفرّ أبو الأخطار من سجْنه ، وحدثت حرب جديدة بين الفريقين قُتل فيها أبو الأخطار.

الذي يهمّنا في هذا الأمر أن الحكام أجّجوا الصراع القبليّ الذي ليس من الإسلام في شيء على الإطلاق ولا يمتّ للأخوّة الدينية بصلة.

وكان من النتائج الخطيرة للتعصب للجنس العربي عامّة أن ظهرت طائفة من الموالي تنادي بالمساواة؛ لأن الإسلام يأمر بذلك ، وامتدّت هذه الدعوة إلى غير العرب من عجم ومصريين وبربر وغيرهم ، وقد وجدت هذه الدعوة من الفقهاء تأييداً؛ لأنها تنص على ما أمر به الدين ...

فقد شاهدوا سوء معاملة العرب من الحكام لإخوانهم المسلمين من مضر و ربيعة ، فضلاً عن التمييز الفاحش بين العرب وغير العرب ، ومنهم من أسلم عن اقتناع ، خاصّةً الفرس الذين شعروا بتعجرف العرب الحكام ضدهم وهم رأوا من قبل حسن معاملة الإمام عليّ لهم و مساواته بينهم و بين كل

المسلمين ، لا فضل بين مسلم وآخر أيًا كان جنسه إلا بالتقوى والعمل الصالح .

فظهرت حركة الشعوبية التى نادت أوّلاً بالمساواة بين العرب والعجم ، ثم أخذوا يصغرون من شأن العرب ويفتخرون بملوكهم وتاريخهم قبل الإسلام ، وبعد أن كانت الشعوبية حركةً تدعو للمساواة أصبحت حركةً عنصريّةً؛ كانت ردّ فعلٍ لِمَا فَعَله الأمويون بالمسلمين عرباً و غيرعرب .

وقد امتدّت آثار العصبية والنعرات العنصرية للدولة العباسية؛ فقد أبعد الخلفاء العباسيون العرب عن دوائر الحكم و قرّبوا الفرس ، وابتعد الحكام عن روح الإسلام ، وما لبثت الدولة العباسية أن أصبحت لعبةً فى يد الوزراء ، ولذلك لم تصمد أمام التتار حتى سقطت الدولة العباسية .

المتأمل للتاريخ الإسلامى يجد أن كل الدول التى أقيمت لم تمهد للمساواة ولم تأخذ بالشورى؛ فقد كان الحكم فى تلك الدول استبداديّاً على مر العصور لا يقوم إلا على إرادة فرد واحد فقط هو الخليفة أو السلطان أو الحاكم؛ لا تعلو إرادته إرادة ، وكل من حوله عبارة عن منتفعين منهم ، يزينون لهم كل باطل.

لم يجد أحد من هؤلاء الحكام أىّ أذن لدعوة دينية أو دنيوية سوى ما يراه هذا الحاكم أو ذاك صدى لإرادته ...

و لذلك فإن الدول الإسلامية على مر العصور حاربت كل تشريع يتعلق بنظام الحكم ، لقد تجنب رجال الفقه الإسلامى البحث فى كلمة " الشورى "؛ نظراً للمخاطر المحدقة بهم؛ لما يمكن أن يكون فيه نوع من المساس بسلطة الخليفة أو السلطان المطلق...

ولذلك ... وجدنا فى التاريخ الإسلامى ملوكاً وسلاطين وخلفاء استندوا فى شرعية ملكهم للسيف وحده:

فى دولة المماليك كان السلطان يعتبر سلطاناً إذا قَتَل السلطان الذى قبله ، وهى شرعية غريبة لم نجدها فى دولة أخرى.

فى الأندلس تصارع المسلمون من أجل السلطة ، و تحالفوا مع نصارى الأندلس ضد إخوانهم فى العقيدة ، فأضاعوا الأندلس إلى الأبد .

ولنقرأ هذا الكلام للدكتور حسين مؤنس فى كتابه " دستور أمة الإسلام "[١٧]: وكانت الأجيال المتأخرة على مثال من البعد عن الإسلام وروحه والزهد فى الحق ومكارم الأخلاق على درجة لا تُصدّق ، واقرأ الكلام التالى لابن المقفع يؤيد السلطان ويخوله الحق فى التصرف فى شئون الأمة كيف شاء ؛ يقول ابن المقفع[١٨] : إن الناس يقولون: بل نطيع الأئمة فى كل أمورنا ، ولا نفتش عن طاعة الله ولا معصيته ، ولا يكون أحد منا عليهم حسيباً ، هم ولاة الأمر وأهل العلم ، ونحن الأتباع ، وعلينا الطاعة والتسليم ...

قال ابن المقفع: ولا أذهب هذا المذهب ، وإن كنت أقول: إن طاعة السلطان واجبة ، ولكن الشورى تنفع السلطان ، فصاحب الرأى يقول ما عنده مع التوقير التّامّ للإمام؛ لأن للإمام الطاعة التامة فى كل ما يراه من صالح الرعية .

وهذا كلام لم يعرفه الإسلام ، بل جاء الإسلام ليزيله.

١٧ــ الدكتور حسين مؤنس : دستور أمة الإسلام / مكتبة الأسرة / القاهرة ١٩٩٨ م /١٦

١٨ــ المصدر نفسه / ١٥

ثم يقول أبو الحسن علىّ الماوردى فى كتابه " الأحكام السلطانية " لسادته السلاطين لا للإسلام ؛ فهذا الكتاب الذى يحسب الناس أنه من خير ما كُتب فى الحكم الإسلامى ليس فيه من الإحساس بالإسلام أو الإدراك لحقيقته ذرة واحدة؛ فهو يضع السلطان فوق الإسلام ، ويجوّز الغصب والاستبداد ، يقول فى كتابه : إن أهل الرأى (وهم أولئك الوزراء وحواشيهم) إذا عقدوا بيعة إمام لا يجوز نقضها لمخلوق؛ لأن الرعية (والمراد هنا ــ وللأسف ــ أمة الإسلام) عليها بموجب هذه البيعة الطاعة والنصر للإمام ما وسعتهم الطاعة ولا يحلّ لهم القيام عليه بحال؛ فهو ولى الأمر ، وهو أعرف بمصالح البلاد والعباد ...

وهو لا يرى بأساً فى أن يحجر على هذا الإمام وزير مستبدّ ويتصرف فى شئون الخلق كيف يشاء ، وعلى الناس الطاعة ...

و يعلل الماوردى ذلك بأن هذا الإمام يقوم بحفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة ، و تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين ، وقطع الخصام بين المتنازعين؛ حتى تعمّ النصفة ، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم ، وحماية البيضة والذب عن الحريم؛ لينصرف الناس فى المعايش ... إلىٰ آخر

هذا الكلام الذى هو تمسُّح فى الإسلام؛ فما كان أولئك المستبدون بالأمر ليقيموا ميزان عدل ولا شارة إسلام ، إنما هم أهل بغى وفساد .

يقول الماوردى[١٩] : إنه إذا وقع الحجْر على الخليفة من قبل أعوانه ممن استبد بتنفيذ الأمور من دونه فلا يمنع ذلك من إمامته ، شريطة أن تكون أفعال من استولى على أمور الإمامة جارية على أحكام الدين ومقتضى العدل ...

وهذا كلام لا يقبله العقل ؛ لأن الإمام إذا كان تولى برضا الأمة فهو يحكم بسلطان الأمة ، فكيف يحجر عليه رجل لا ترضاه الأمة ويتصرف فى أمور المسلمين ويكون تصرّفه مع ذلك جائزاً أو شرعياً ؟!! فهل هذا رأى الإسلام أو قول الحق أم هو رأى الماوردى نفسه ؟!

ومع ذلك يعتبر كتاب " الأحكام السلطانية " [٢٠] من أصول التشريع الإسلامى حتى على المستوى الجامعى ، لدرجة أنّه بحث أمارات الاستيلاء والتفويض والتنفيذ ، وكلها أمور بعيدة كل البعد عن أى مفهوم إسلامى .

١٩ــ المرجع السابق /١٤

٢٠ــ المصدر نفسه / ١٣

وينتهى أغلب علماء الأمة على جواز إمامة المستبد الغاصب، و إذا انعقدت الإمامة بالشوكة والغلبة لواحد ثم قام آخر فقهر الأول بشوكته وجنوده انعزل الأول وصار الثانى إماما !

وقد يُقبل هذا الكلام على أنه حكْم للضرورة ، وما دام الإمام الصالح المستوفى شروط الإمامة غير موجود فلا بأس بالتسليم بولاية الغاصب الجاهل الفاسق ما دام قويّا قادراً على ضبط الأمور ؛ فهذا ــ فى رأيهم ــ خير من ضياع الإسلام نفسه أو تعطُّل أحكامه ...

فهل هذا هو الإسلام ؟! وهل هذه هى روح الإسلام ؟!

و إذا سلّمنا بولاية الغاصب والقاتل والفاسق لمجرد تنفيذ أحكام الشرع فهل بهذا تتحقق رسالة الإسلام ؟!

وهل القاتل والفاسق والغاصب يمكنهم حماية الدولة الإسلامية ؟! وأى حدود يقيمونها وهم أول من ينتهكونها ؟!

إن رسالة الإسلام لم تكن قط إقامة ملْك إسلامى ، بل إقامة نظام جديد سياسى اجتماعى يقوم على التآخى والترابط واستبعاد سيطرة الإنسان على الإنسان.

فهل هذا هو الفقه الإسلامى أم فقه الاستبداد والتعنت ؟!

الأمر وصل إلى العصر الحديث فى الدولة العثمانية حيث حرص خلفاؤها على مد نسبهم إلى النبى الكريم ليكون لهم شفيعا فى الملك ، ومع ذلك فقد ميزوا الجنس التركى وجعلوه سيدا على كل المسلمين ، ووصل بهم الأمر أن تحالفوا مع الإنجليز ضد أحمد عرابى ، بل واتهموه بالخيانة والعصيان والمروق.

و باستعراض التاريخ الإسلامى نجد أن هناك حلفاً غير مقدس بين الحكام والاستبداد من جهة ، و بين العصبية العرقية من جهة أخرى .

وقد امتد هذا الأثر حتى عصرنا الحالى ، فما زلنا نجد حكام المسلمين يعملون جاهدين على تقريب إحدى فئات المجتمع ضد الأخرى: فالملوك يميزون الأمراء ، والعساكر يميزون قادة الجيش الذين أتوا بهم إلى سدة الحكم.

والمناضلون الحزبيون وتحالف قوى الشعب العاملة والرفاق و أعضاء اللجان المركزية وخلافها كلها فئات تركب رقاب المجتمع ، ولا تجعل الناس سواسية أمام القانون الذى دائماً ما يُفصّل على مقاسات الحكام ، وإن كان الله جل شأنه جعل كل الناس سواسية لا فرق بينهم إلا بالتقوى.

إنه ميراث مؤلم ومغيظ حدث منذ أن تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض ، كل ملك يمحو تراث من قبله ويثير من حوله الشكوك والطعون فى دينه وخُلقه وضميره ...

ميراث لا يملك المرء أمامه سوى التساؤل عن جدوى الحكم ، وما مدى اقترانه بالإسلام الزاهر المضىء.

وهو قد يفسر لنا الأسباب التى تؤدى إلى مروق طوائف من شباب المجتمعات الإنسانية تُكفّر الحاكم والمحكومين الذين يرضون بالظلم والاستبداد .

هذا هو التاريخ الإسلامى المليء بفساد الحكام والمنافقين، اختفت منه العدالة والمساواة ، واختفت الحرية أو الشورى التى تقيد عمل الحاكم ولا تجعله مركوناً بإرادته وحدها حتى لو كانت تلك الإرادة خاطئة أو فاشلة أو غير متبصرة بأمور الدين أو الدنيا.

قد يتحدث أحد الناقدين بأننا لا نرى إلا الوجه غير المشرق للتاريخ الإسلامى ، ولكن ذلك كله وهم ، فالانتصارات الحربية الباهرة والحاسمة فى التاريخ الإسلامى مثل حطين وعين جالوت لم تمنعا من انهيار الدولة الإسلامية بعد عدة قرون، و معركة الزلاقة الشهيرة لم تمنع ضياع الأندلس ، وحروب الدولة

العثمانية ضد الروس لم تمنع الروس من إحكام السيطرة والتوسع على دول ما وراء النهر ، ولم يمنع كل ذلك من إحياء الحركة الصهيونية العنصرية فى احتلال الأرض المقدسة فى فلسطين ...

و ما كان يحدث ذلك لو أن الشعوب الإسلامية كان لها إرادة فى اختيار حكامهم ومحاسبتهم وعدم ارتكانهم على فئة واحدة من فئات المجتمع تذيق باقى الشعب من العذاب صنوفا و من عدم المساواة ألواناً ، وجعلت معظم المجتمعات الإسلامية فى وضع أشبه بالقنابل الموقوتة من جرّاء الظلم وعدم العدالة المتفشية داخل تلك المجتمعات ، ولا يمكن أن تكون تلك السياسات من الإسلام من قريب أو بعيد .

تزييف التاريخ

أمّا الأمر الثانى الذى قام الحكام العضوضيون به فى سبيل توطيد الملك فهو : وأد أصوات المعارضة أينما كانت ...

وقد تم اتخاذ عدة إجراءات لمجابهة المعارضة ، تتلخص فى ثلاثة إجراءات شديدة القسوة :

١- ملاحقة قادة المعارضة بالقتل والسجن والتشريد والاغتيال.

٢- مطاردة مؤيدى المعارضة ، وأخذ الناس بالشبهة والمظنة .

٣- تشويه صورة المعارضة بشتى أنواع التشويه .

بالنسبة للإجراءين الأولين : فقد تم تنفيذهما بشتى أنواع التنفيذ ؛ فقد تم سم الحسن بن علىّ ، وقتل الحسين بن علىّ فى كربلاء وأهل بيته ، وتم إعدام زيد بن علىّ بن الحسين، و فى عصر العباسيين ثم قتل الكاظم والرضا بالسم ...

أمّا عن أشياعهم فقد أُعدم الكثير بما يُعَدّ بألوف الألوف ، ومن مات تحت التعذيب أو صبراً فلا حصر لهم ، وفى كتب التاريخ ما يغنى المرء عن ذكره .

ولكننا نختص **الإجراء الثالث** بالتفصيل؛ لأنه هو الذى تختص به دراستنا فى هذا الفصل ...

بعد أن استتب الحكم للأمويين فقد لجأ حكامهم أوّلاً على وضع أحاديث تحرّم الخروج على الحاكم الظالم مهما اشتدّ ظلمه؛ فقد جاء فى القرآن **{ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم }**[٢١] . وهذه الآيات قرنت طاعة ولى الأمر بطاعة الله ورسوله ، وقد أطلقوا على ولى الأمر اسم " الخليفة " ، وهو فوق جميع الناس ، وطاعته واجبة

٢١ــ سورة النساء : ٥٩

على كل المسلمين ، وتم تأويل هذه الآية الكريمة بحيث تنصبّ على كل من ولى أمر المسلمين حتى لو جاء بالسيف و إراقة الدماء ...

وقد تمّ وضع أحاديث غير صحيحة أسندوها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم لكى تعضد ملكهم ، ولأن الدولة الأموية افتقدت الشرعية وصارت وراثيّة فقد صارت فى حاجة إلى الدعم وإضفاء الشرعية عليها ، وكانت الأحاديث عن رسول الله أقوى وسيلة لشدّ أزرها .

ولقد نسخت هذه الأحاديث التى توجب طاعة الإمام كل الأسس التى يقوم عليها نظام الشورى فى الإسلام ، ولم يعُدْ هناك مجال للبحث فى شرعية الحكم ، فأى إنسان يتمكن من القفز على سدة الحكم والاستيلاء على السلطة ونصّب نفسه أميرا للمؤمنين فإن طاعته أصبحت واجبة ! ويصبح الخروج عليه جريمة سياسيّة ومعصية دينيّة .

ولنذكر بعض هذه الأحاديث التى تعضد سلطة الحاكم المغتصب والذى ادعى أنه ولى الأمر لكل المسلمين:

* حديث رواه البخارى عن الزبير بن عدى قال[٢٢] : أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقاه من الحجاج فقال : اصبروا؛ فإنه لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم ... سمعتُه من نبيكم .

* حديث فى البخارى عن عبد الله بن عمر قال[٢٣] **{ خير الناس قرنى ثم الذى يلونهم ثم الذى يلونهم ، ثم يجىء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته }** .

* حديث رواه مسلم[٢٤] **{ ستكون هنات وهنات ، فمن أراد أن يُفرّق أمْر هذه الأمة وهى جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان }** .

* حديث رواه مسلم عن عبد الله بن عمر قاله فى وقعة الحرة حين ثارت المدينة على يزيد ورفضت مبايعته ووقفت ضده فغزاها ، وقال عبد الله بن عمر : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يقول[٢٥] **{ مَن خلَع يداً من طاعة لقى الله يوم**

٢٢ــ صحيح البخارى / دار الريان / القاهرة ١٩٨٦م ، ٨/ ٩٥

٢٣ــ المصدر نفسه، ٩٦/٤

٢٤ــ صحيح مسلم / دار الريان / القاهرة ١٩٨٦م ، ١٢ / ٢٥٠

٢٥ــ المصدر نفسه، ١٢ / ٢٦١

القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية } .

* حديث رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن عباس أن النبى صلى الله عليه وآله وسلّم قال[٢٦] **{ من رأى من إمامه شيئاً يكرهه فليصبر ؛ فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية }** .

* حديث رواه مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم أنه قال [٢٧]**{ من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن أطاع الأمير فقد أطاعنى، و من عصى الأمير فقد عصانى }** .

* حديث رواه مسلم عن أبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم قال [٢٨]**{ يا أبا ذر .. كيف بك عند ولاة سيستأثرون عليك بهذا الفيء }** قلت: " والذى بعثك بالحق أضع سيفى على عاتقى وأضرب أعناقهم حتى ألحقك " قال **{ أولا أدلك على ما هو خير لك من ذلك : تصبر حتى تلحقنى}**.

٢٦ــ المصدر نفسه ، ١٢ / ٢٨١ ، صحيح البخارى، ١٠٣/٤

٢٧ــ صحيح مسلم ، ١٢ / ٢٨٢

٢٨ــ المصدر نفسه ، ٢٩٦/١٢

وغيرها من الأحاديث التى تحض على طاعة الأمير أيّاً كان وأيّا كانت الوسيلة التى وصل بها إلى الحكم .

ونستطيع القول : إن هذه الأحاديث نُسبت إلى الصحابة الرواة لكى تمنع أى ثائر أو متظلّم من الحكم الجائر من الاعتراض أو النقاش .

و إذا اعتبرناها صحيحةً فعلينا أن نعتبر الحسين بن علىّ وزيد بن علىّ زين العابدين ماتوا ميتةً جاهليةً لأنهم أنكروا الظلم ودعوا إلى مقارعة الظالمين وعدم طاعتهم فى معصية الله !! بل على أساس هذه الأحاديث خرج من أفتى للأمويين بأن الحسين قُتل بشرع جده (بناءً على الأحاديث التى تحث على الطاعة وتحرّم حتى الخروج على الظلم والفساد).

وإذا كانت هذه الأحاديث صحيحةً فلماذا لم تُطبّق على معاوية الذى خرج على الإمام علىّ ورفض البيعة له وقاتله ؟! وفى القتال مات سبعون ألف مسلم .

ولكن المهم أن هذه الأحاديث راجت وأصبحت نهجاً يتمسك بها الحكام لأنها تعضد ملكهم ، ولم ير الفقهاء بدّاً من الموافقة عليها لأنها تحقن دماء المسلمين لما رأوا من قسوة الحكام فى قتل كل معارض حتى لو لم يهدد عرش الحكم ، إلى

جانب أن أى معترض من أهل الفتوى على مثل تلك الأحاديث كان يؤخذ ويُعذَّب أو يُقتل ...

الإمام أبو حنيفة عُذِّب ومات بسبب التعذيب لأنه رفض أن يكون قاضياً عند حكام يجبرون القضاة لكى ينفذوا أحكامهم والتى لا تتفق والدين خاصةً فيما يتعلق بالمعارضين ، وقد اتُّهم أبو حنيفة بمساعدة ثورة محمد النفس الزكية .

والإمام مالك عندما أفتى ببطلان طلاق المكرَه اعتبرها حكام العباسيين ذريعةً لبطلان بيعة المكرَه أيضاً ، لأنهم رأوا فيها تهديداً لشرعية حكمهم ، فاقتيد وعُذِّب .

أمّا الإمام أحمد بن حنبل فإنه عُذِّب فى قضية خلْق القرآن لا لشىء حتى لا يقال إنه غَلَب خليفتين ولم يستطيعا إجباره على القول بخلق القرآن .

أمّا الطريقة الثانية: فهى تشويه صورة المعارض أخلاقياً وأدبيًا ودينياً ، فمنذ تحول الخلافة إلى ملك عضوض فقد أمَر معاوية بسبّ الإمام علىّ على منابر المسلمين ، وأمر ولاته بعدم الكف عن سبّه وسبّ أولاده وشيعته واختلاق الأكاذيب عليهم ، حتى أبطل الفرية الخليفة عمر بن عبدالعزيز.

الأحاديث العضوضية راجت ، وإلى جانبها الأحاديث التى تذم الإمام علياً يقول عنها الإمام محمد عبده: إن عموم البلوى بالأحاديث الكاذبة كان فى دولة الأمويين ، ثم قد صنع معاوية بأن وضع قوماً من الصحابة والتابعين على رواية أخبار قبيحة عن علىّ بن أبى طالب تقتضى الطعن فيه والبراءة منه ، وجعل لهم جعلاً على ذلك ، منهم أبو هريرة ، وهو ما ذهب إليه أبو جعفر الإسكافى (من أئمة المعتزلة) بقوله[٢٩] : إن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة عن علىّ بن أبى طالب وجعل لهم على ذلك جعلاً ، فاختلقوا له من الأحاديث ما يرضيه ، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ومن التابعين عروة بن الزبير .

وقد قال الإمام علىّ عن ذلك[٣٠] : إنه سيأتى عليكم بعدى زمان ليس فيه شىء أخفى من الحق ، ولا أظهر على الباطل ، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله ، وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تُلى حق تلاوته ، ولا أنفق

٢٩ــ محمود أبو رية : أضواء على السُّنَّة المحمدية / دار المعارف / القاهرة ١٩٧٧ م /٣٢٣

٣٠ــ نهج البلاغة تحقيق الشيخ محمد عبده / دار الفكر / بيروت ٢/٣١

(أروج وأنشر) منه إذا حُرّف عن مواضعه ، و لاشيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر ، فقد نبذ الكتاب حملتـــه ، وتناساه حفظته ، فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيّان ، فالكتاب وأهله فى ذلك الزمان فى الناس وليسا فيهم ، ومعهـــم وليســـا معهم؛ لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا ، فاجتمع القوم على الفرقة ، وافترقوا على الجماعة ، كأنهم أئمـــة الكتـــاب ، والكتاب ليس إمامهم ، لم يبق عنـــدهم منـــه إلا اســـمه ، ولا يعرفون إلا خطّه ، ومن قبل مثّلوا بالصالحين كل مثلة ، وسمّوا صدقهم على الله فرية ، وجعلوا فى الحسنة عقوبة السيئة ، فـــلا تستعجلوا ما يجيء به الغد ؛ فكم من مستعجل بما لنْ أدركه وَدّ أنه لم يدركه ، وما أقرب اليوم من تباشير الغد .

فهل مثل ذلك الكلام يتركه الحكام يتفشى فى النـــاس ؟ أم أن الوسيلة الأكيدة طمسه وتحريفه والتقول على صـــاحبه بمـــا يتنافى مع أخلاقه وأخلاق أبنائه من بعده ؟

أليس ذلك دأب المستبدين فى كل زمان ومكان ؟ أليس طمس أخلاق علىّ وبنيه من ضرورات استتباب الحكم ؟

فلماذا الدهشة إذنْ من تشويه التعاليم الدينية حتى لو كانـــت مقدسة وحتى لو وُضعت أحاديث منسوبة إلى صـــحابة كـــرام

منسوبة إلى النبى الكريم وهو عليه الصلاة والسلام لم يقلْهـــا و إنّما وُضعت لتخدم العضوضيين؟

ولكن الأمر لم يقتصر على ذلك فقط؛ فقد حرّفوا كل اســـم جميل إلى غير معناه ، مثل الكنية اللطيفة التى قالها النبى صلى الله عليه وآله وسلّم لعلىّ ، وهى " أبو تراب "؛ جعلوا منها نبذاً بالألقاب ، واتخذوا الاسم ســـخريةً ، وقـــالوا عـــن أصـــحابه " ترابيين" ، بل عيّروا بالأجسام التى خلقها الله على طبيعتهـــا ، فقالوا عن علىّ " الأبطن " ، وغير تلك المسميات التى لا يمكن أن تدل على ورع بل تنكب سبيل المؤمنين .

وفى سبيل كل ذلك فقد أمن فقهاء اقتربوا من السلطان تشويه الحقيقة ، ولوى عنق الآيات ، واختراع الأحاديث منسوبة بأسانيد لايشوب فيها شك لتبدو وكأنها أحاديث صحيحة ، ولطول العهد بها فإنها أصبحت من ضرورات الحكم ، وولاة الأمر أذاعوها وافتتنـــوا بها ، وأخذها اللاحقون كمقدسات وإن اختلفوا فى ولى الأمـــر: منهم من أجاز أن يكون هذا الولى جاء علـــى أســـنة الرمـــاح وسفك الدماء حتى لو كان مثل أبى العباس السفاح الذى ما أن انتصر على الأمويين حتى قتل قادتهم ، وهـــم يضـــطربون، و وضع فوقهم ملاءة وأمر بالطعام ، فأكل وهم يضطربون حتى

انتهى من طعامه ، ثم قال [٣١]:" ما أكلتُ طعاماً أهنأ من هذا الطعام " ، وما انفضّ حتى أصبح ولياً للأمر ، له حق الطاعة بموجب الأحاديث السالفة التى تحرض على طاعة أى ولى للأمر جاء على غير شرعية دينية أو حتى دنيوية .

وعلى هذا الأساس دخلت أحاديث كثيرة تخص طاعة السلطان حتى لو كان لا يتقى الله ، حتى لو كان يلغ فى دماء المسلمين ولغاً ، حتى لو شوّه ميراث أهل بيت النبوة ، أو رفض الأحاديث التى تحرض ولاة الأمر لكى يجتنبوا الرجس من القول والفعل المشين والأخذ بالشورى التى أمر الله نبيّه بها.

واعتبر اللاحقون من المسلمين هذه الأحاديث التى تخص طاعة السلطان أحاديث صحيحة يُتعبَّد بها ، وبذلك ضاعت الحقيقة بين السلطان وأنصاف الفقهاء الذين تقرّبوا لكل حاكم وجعلوا من أنفسهم جوقة تبرر كل أفعاله الظالمة .

نقول : إن السلاطين شوّهوا ميراث كل معارضة ، و لأن المعارضة قامت على أكتاف الأئمة من أهل البيت أوّلاً؛ لذلك تم تشويه صورة الأئمة والادعاء عليهم بما ليس فيهم ، واعتبار شيعتهم أصحاب هوى؛ لا يأخذون عنهم الحديث حتى لو كان

٣١ــ التاريخ السياسى (مرجع سابق)/١٩١

صحيحاً ، رغم أن الإمام أبا حنيفة تتلمذ على يد جعفر الصادق وقال عن ذلك[٣٢] :" لولا السنتان لهلك النعمان " أى السنتان التى قضاهما متتلمذاً على يد جعفر الصادق ...

و لذلك تم إبعاد " نهج البلاغة " و" الصحيفة السجادية " لعلىّ زين العابدين وفقه الصادق عن أذهان العامة؛ حتى لا يتمسكوا بها فتكون نهاية الحكم ، كما أنهم روّجوا لدعاية أن الحسين من الخوارج الذين خرجوا على طاعة الخليفة ، ولذلك وجب قتله ، بل قالوا ــ أو أضاف من بعدهم ــ بشرع جده .

هذا التشويه أفسد مناخ الحرية الفكرية ، ولم يفسح المجال للمسلمين لكى يأخذوا ويمعنوا النظر فى المدارس المذهبية والفكرية السائدة ، بل نجد الإمام البخارى يعتبر عمران بن حطان السدوسى الشاعر الذى وصف عبد الرحمن بن ملجم بأنه " خير خلق الله ميزاناً لأنه قتل الإمام علىّ " اعتبره ممن ليس لهم هوى وروى عنه أحاديث ، واعتبر جعفر الصادق من أصحاب الهوى ، فتاه الكثير من ميراث دينى ودنيوى حقيقى من المسلمين ، وجعلهم يتمسكون بأحاديث طاعة السلطان وإن

٣٢ــ مجموعة مؤلفين/الإمام الصادق/فكر يتجدد/منشورات مؤسسة الإمام الخوئى، لندن ٢٠٠٠ / ٤٨

أضافوا ــ على استحياء ــ فى شرحها : شريطة أن يلتزم السلطان بطاعة الله وهذا الأمر يجعلنا نفرّق بين كُتب الأحاديث وكُتب التاريخ ؛ فإنّ كُتب الحديث ــ كصحيح البخارى ومسلم والكتب الأربعة الأخرى ــ قد ميزت الحديث الصحيح عن الحديث المرسل والحديث المدلّس والمنقطع والموثوق والموضوع والمتروك والمعنعن والمتواتر والآحاد ، وقد اجتهد رواة الأحاديث فى إثبات صحة السند وليس صحة المتن ... وليس هذا موضوعنا ...

ولكنّا نركز على كُتب التاريخ التى جمعت كل شىء دون التقيد بسند أو متن أو التقيد بالالتزام والموضوعية والمبالغة والأساطير ، بحيث يجعل مهمة البحث عن الصحيح مهمّة شاقّة وعسيرة .

وأهمّ كُتب التاريخ الإسلامى هى : كُتب ابن عساكر والطبرى والذهبى وابن الأثير وابن كثير وابن خلدون .

توجد فى التاريخ الإسلامى شخصية سيف بن عمر التميمى، تُوُفّى فى بغداد فى خلافة هارون الرشيد سنة ٢٠٠ هجرية ، أجمع المؤرخون على أنه كذاب وضّاع ...

قال عنه يحيى بن معين [٣٣]: ضعيف الحديث ، فلْس خير منه.

وقال عنه النسائى [٣٤]: ضعيف ، متروك الحديث ، ليس بثقة و لامأمون.

و قال الحاكم عنه [٣٥]: متروك الحديث ، اتُهم بالزندقة .

و نقل ابن عبد البر عن ابن حبان أنه قال فيه [٣٦]: سيف متروك ، وإنما ذكرْنا حديثه للمعرفة .

وقال ابن حجر بعد إيراد حديث ورد فى سنده سيف [٣٧]: فيه ضعفاء، أشدهم سيف .

وذكر صاحب شرح كتاب " العواصم من القواصم " بأن سيف بن عمر زنديق [٣٨].ألّف سيف بن عمر كتابين هما " لفتوح"

٣٣ــ عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى (مرجع سابق) ١ / ٩٣

٣٤ــ المصدر نفسه / ٩٣

٣٥ــ المصدر نفسه / ٩٣

٣٦ــ المصدر نفسه / ٩٣

٣٧ــ المصدر نفسه / ٩٣

٣٨ــ محى الدين ابن العربى / العواصم من القواصم / دار الريان / القاهرة ١٩٨٦ / ٨٧

و" الجمل "[٣٩] ، ملأهما بالروايات والقصص المكذوبة ، ليتورع عن قلب الحقائق التاريخية ، وصل بهما إلى الضد من الروايات الصحيحة ، و وضع لرواياته أسانيد لا يرقى إليها شك ، وجعل رواياته تتفق مع ما يرضى الحكام العباسيين وأى حكام آخرين يبتغون الاستبداد .

ونستطيع القول بأن سيف بن عمر تمكّن من الدس فى التاريخ الإسلامي ما يجعل مهمة الباحثين عسيرة فى استخلاص الحقيقة أو الحقائق التى لم يشملها الزيف .

يقول الباحث مرتضى العسكرى فى مؤلفه القيم " عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى "[٤٠] : رابنى ما وجدتُ ــ أثناء مراجعتى قسماً من المصادر الإسلامية ــ فى بعض الروايات الواردة فى أشهر الكتب التاريخية القديمة وأكثرها انتشارا من ظواهر تدل على أنها منسوسة وموضوعة ، فأخذتُ أجمع تلك الروايات المريبة وأقارن بينها وبين غيرها ، فإذا بى أهتدى على حقيقة كان التاريخ قد نسيها فانطوت فى أثنائه وضاعت فى

٣٩ــ للمزيد يستحسن قراءة تاريخ الطبرى والبداية والنهاية لابن كثير .

٤٠ ــ مرتضى العسكرى : عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى / دار الزهراء / بيروت ١٩٩١ م / ٢٩

تياراته ، وتهيبتُ أن أنشرها ؛ خوفاً من إثارة العواطف فى الشرق المسلم ؛ لأن البحث فى تلك المذكرات كان يدور حول التاريخ المدوّن عن الحوادث الإسلامية منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم حتى سنة ٣٦ هـ ، وكان التاريخ المدون قد جعل عرضه لحوادث تلك الحقبة من الزمن شيئاً واقعياً لايمكن النقاش فيه ، فكانت الجماهير المسلمة ترى فيه ما يتصل بصميم العقائد الدينية التى يجب أن يتلقاها الخلف عن السلف الصالح دون شك أو ارتياب ، كما وإن البحث كان يهدم كثيرا من أسس بنى عليه أساتذة التاريخ مبانى لا تقبل النقض والإبرام ، ويكشف عن زيف كثير من القصص الإسلامية وضعف كثير من المصادر التاريخية الوثيقة .

و رغم اتهام سيف بالزندقة فقد أخذ عنه الكثيرون واحتجّوا بآرائه فيما لا يخالف ما يعتقدون أنه صواب ، لذلك علينا قراءة " العواصم من القواصم " والخطوط العريضة للمرحوم محب الدين الخطيب .

ومن قبل فإن روايات سيف وجدت طريقها إلى " تاريخ الأمم والملوك " للطبرى ، ومن الطبرى أخذ ابن الأثير وابن كثير وابن خلدون ، حتى أصبحت رواياته عمدة التاريخ

الإسلامي ، وأخذ من الجميع المؤرخون المحدثون ، مثل : أحمد أمين ورشيد رضا وأمثالهما ، حتى صارت تلك الروايات أساسا لا يرقى إليها الشك ومن ضمن المسلّمات التي يعيش بها المسلم؛ يأخذ منها ولا يردّ عليها على الإطلاق ، سادت في أحاديث سيف التي أخذها الطبري في تاريخه ، ووضعها جنبا إلى جنب مع الروايات الأخرى .

أمّا عن الأسباب التي دفعت سيف بن عمر للوضع والكذب في التاريخ الإسلامي : فترجع ــ كما يقول مرتضى العسكري[41] ــ إلى سببين:

الأول : يدفعه التعصب القبلي إلى تمجيد العدنانيين (القيسيين أو المضريين كما كتبنا في أول هذا الفصل) والحط من القحطانيين أو السبأيين من قبائل اليمن ونشر معايبهم ، و قد رأينا ماذا تفعل العصبية القبلية والتي أذكاها حكام الدولة الأموية لكي يثبتوا دعائم ملكهم ...

وبما أن السلطة كانت في قبائل عدنان وكان المعارضون من القحطانيين لذلك ذهب سيف إلى اختلاق بطولات وهمية ، بل وأشخاص وهميين ليس لهم وجود إلا في خيال سيف فقط ،

٤١ــ المرجع السابق ٢/٣٦١

لهذا يخيل للباحث أن سيفاً يضع الرواية ويختلق الأسطورة للدفاع عن أصحاب السلطة والحط من مناوئيهم ، بينما هو يعمل ما يعمل بدافع التعصب القبلي لعامة عدنان (قيس) ضد عامة قحطان (اليمنية أو السبئية) .

الثاني: تدفعه الزندقة إلى تشويش معالم التاريخ الإسلامي وتشويه حقائقه ، ولذلك صحّف أسماء كثيرة وحرّف أخبارها ، وغيّر سنيّ الحوادث التاريخية واختلق الأساطير وقلّب الحقائق ، ودسّ الخرافات في عقائد المسلمين ، إلى غير ذلك مما فعل.

و لعلّ الأهم من كل ذلك أن الزندقة دفعته إلى إبرازه الجيوش الإسلامية في فتوحاتها قاسيةً متوحشةً ، وإظهار حروبها حروب إبادة للبشرية ، ومن هنا زعم بعضهم أن الإسلام انتشر بالسيف والدم ...

نأخذ مثالاً للدلالة على ما نقول : موقعة ذات السلاسل[42]:

قال سيف: كتب أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد أن يسير بعد اليمامة إلى العراق ، وأن يبدأ بثغر أهل السند والهند ، والثغر يومئذ الأبلة ، فكتب خالد قبل خروجه مع آزاذ به أبي الزبادبة ــ الذين باليمامة ــ إلى هرمز صاحب الثغر: أمّا بعدُ

٤٢ــ المرجع السابق ٢/٧٧

... فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرّ بالجزية ، وإلا فلا تلومنّ إلا نفسك ؛ فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ...

قال سيف: وكان ثغر الهند أعظم ثغور فارس شأناً وأشدها شوكة ، وكان صاحبه يحارب العرب فى البر والهند فى البحر ، وكان هرمز من أسوأ أمراء ذلك الثغر جوارا للعرب ، فكلّ العرب عليه مغيظ ، وقد كانوا ضربوه مثلا فى الخبث حتى قالوا: أخبث من هرمز ، وأكفر من هرمز ...

قال : فلمّا قدم كتاب خالد عليه كتب إلى شيرى بن كسرى و أردشير بن شيرى بالخبر ، وعبّأ أصحابه ، و جعل على مُجنّبتيه قباذ وأنوشجان أخوين يلاقيان أردشير وشيرى فى أردشير الأكبر ...

قال سيف : ونزل بجيشه فى كاظمة ، واقترنوا فى السلاسل لئلاّ يفروا ، والماء فى أيديهم ...

قال : وجاء خالد حتى نزل على غير ماء ، فلمّا قابل له أصحابه فى الماء أمرهم أن يحطّوا أثقالهم وقال: " لعمرى ليصيرنّ الماء لأصبر الفريقين " ، ثم لم يمهلهم ، بل زحف إليهم ولاقاهم ، فأرسل الله سحابة أغدرت ما وراء صف المسلمين ، فقويت قلوبهم ...

فبرز هرمز ونادى :" رجل ورجل .. أين خالد ؟ " وكان قد واطأ أصحابه على الغدر بخالد ، فبرز إليه خالد راجلاً ، فترجل هرمز وتضاربا ، فاحتضنه خالد ، وحملت حماية هرمز وغدرت واستلحموا خالدا ، فما شغله ذلك عن قتله ، وحمل القعقاع بن عمرو فأزاحهم ، وانهزم أهل فارس وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل ، أىْ قتلوهم عن آخرهم ...

قال: وسُمّيت الموقعة " ذات السلاسل " ... وبعث خالد بالفتح والأخماس والفيل مع زر بن كليب ، فطيف به فى المدينة ليراه الناس ، فجعل ضعيفات النساء يقلن :" أمن خلق الله ما نرى ؟! " ورأينه مصنوعاً ، فردّه أبو بكر مع زر .

قال الطبرى بعد إيراد هذه القصة : وهذه القصة فى أمر الأبلة وفتحها خلاف ما يعرفه أهل السير ، وخلاف ما جاءت به الآثار الصحاح ، وإنما كان فتح الأبلة أيام عمر رضى الله عنه وعلى يدى عتبة بن غزوان .

معنى هذا أن سيف وضع قصّة أخرى مختلقة تماماً عن ما ذكره أهل السيَر باعتراف الطبرى؛ لأنه صحّت روايات أخرى عند غير سيف ...

و يذكر سيف فى قصته خبر الفيل وافتتان نسوة المدينة به ، رغم أن القرآن الكريم به سورة الفيل ، وخبر الفيل مع أبرهة

الأشرم معروف ، والرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ولد في عام الفيل ، فكيف لم يسمع به العرب ؟!

قصة أخرى لسيف :

الدجال يفتح السوس[٤٣] :

روى الطبرى عن سيف فى حوادث سنة ١٧ هـ : أن القائد أبا سبرة الصحابى نزل على مدينة سوس (بلدة فى خوزستان بإيران ، تسمى حالياشوش) وأحاط بها المسلمون وناوشوهم القتال مرات ، ويصيب أهل السوس فى المسلمين كل مرة ، فأشرف الرهبان والقسيسون فقالوا : يا معشر العرب ... إن مما عهد إلينا علماؤنا أنه لا يفتح السوس إلا (الدجال) أو قوم فيهم الدجال ، فإن كان الدجال فيكم فستفتحونها ، وإن لم يكن فيكم فلا تعنوا بحصارنا ...

وناوشوهم مرة أخرى ، فأشرف عليهم الرهبان والقسيسون وأعادوا القول وصاحوا بالمسلمين وغاظوهم ، وكان صاف بن صياد (ويعتقد البعض أنه الدجال) يومئذ معهم ، فأتى صاف باب السوس ودقه برجله و قال:" انفتح بظار " فتقطعت السلاسل وتكسرت الأغلاق وتفتحت الأبواب ، و دخل المسلمون، فألقى

٤٣ــ المرجع السابق ١٢٩/٢

المشركون ما بأيديهم وتنادوا :" الصلح الصلح " وأمسكوا بأيديهم ، فأجابهم المسلمون إلى الصلح بعد أن دخلوها عنوة .

هذا رأى سيف الذى رواه الطبرى عنه وأخذ منه ابن الأثير وابن كثير .

أمّا غير سيف : فقد روى البلاذرى فى " فتوح البلدان " أن أبا موسى الأشعرى قاتل أهل السوس ثم حاصرهم حتى نفذ ما عندهم من الطعام ، فضرعوا إلى الأمان ، فقتل أبو موسى من المقاتلة من لم يدخل فى الأمان ، وأسّر وغنم .

كما روى الدينورى أن أبا موسى فتح السوس صلحاً فى سنة ١٨ هـ .

والطبرى نفسه أورد روايةً عن غير سيف قال : كان أبوموسى محاصراً للسوس حين جاءهم خبر فتح جلولاء من قبل المسلمين وفرار ملكهم يزدجرد ، فسألوا أبا موسى الأمان فصالحهم .

مما سبق نجد : أنّ سيف بن عمر اختلق أحداثاً غير الأحداث وقائداً غير القائد ، فأتى بقائد عدنانى هو أبو سبرة ، رغم أن القائد هو أبوموسى الأشعرى (اليمانى) ، ووضع أن

الدجال كان يحارب في صفوف المسلمين وأنّ أهل السوس كان منهم قسّيسون ورهبان ، رغم أنهم لم يدينوا قط بالمسيحية !

وفي رواية أخرى عند سيف : فقد حرّف اسميْ معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص؛ وذلك في سبيل دفاعه عن قبيلة عدنان ...

ففي مسند الإمام أحمد[٤٤] وفي " صفين " لنصر بن مزاحم وكذلك أبو يعلى في مسنده — حسب رواية السيوطي في "اللآلئ المصنوعة " ورد هذا الخبر عن أبي برزة الأسلمي قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فسمع رجلين يتغنيان وأحدهما يجيب الآخر وهو يقول :

لا يزال حواري تلوح عظامه زوى الحرب عنه أن يجن فيقبرا

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلّم **{ انظروا من هما }** ...

فقالوا : معاوية وعمرو بن العاص ...

فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يديه فقال **{ اللهم أركسهما في الفتنة ركساً ودُعّهما إلى النار دعّا }.**

٤٤ــ المرجع السابق ٢/١٥٥ - ١٦١

وفي رواية عنه صلى الله عليه وآله وسلّم قال **{ إذا رأيتموهما ففرقوا بينهما }.**

و لكنّ سيف بن عمر حرّف هذين الاسمين؛ فقد روى: بينما نحن ليلة في سفر إذ سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلّم صوتا فقال **{ ما هذا }** فذهبتُ أنظر فإذا معاوية بن رافع وعمرو بن رفاعة بن تابوت يقول : " لا يزال حواري ... " البيت ، فأتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلّم فأخبرتُه ، فقال **{ اللهم أركسهما ودُعّهما إلى نار جهنم دعّا }** ، فمات عمرو بن رفاعة قبل أن يقدُم النبي صلى الله عليه وآله وسلّم من السفر ... ا.هـ .

ولسنا ندري كيف سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلّم صوت عمرو بن رفاعة في السفر؟! ثم كيف يموت قبل أن يعود النبي صلى الله عليه وآله وسلّم من السفر ؟!

ومع ذلك فقد وجدت رواية سيف قبولاً أكثر من باقي الروايات الأخرى!

أرأينا ماذا فعلت العصبية؟! وإلى أين أدّت؟! وكيف حرّفت التاريخ الإسلامي؟!

والذي كان يكتب من وجهة نظر السلطة أينما كانت وكيف كانت ، فضاع تراث إسلامي حقيقي جعل الأمة تفترق .

و في رواية أخرى عند سيف:

خبر ما بعد الحيرة[٥]:

قال سيف : اجتمع الفرس وعرب ربيعة بالحصيد لحرب المسلمين ، فاستغاثوا بالقعقاع بن عمرو فسار إليهم ، واقتتلوا بها ، وقتل الله من العجم مقتلة ، وقُتل قائدا الفرس: رزمهر قتله القعقاع ، وروزبه قتله عصمة بن عبد الله أحد بني الحارث بن طريف الضبي ، وعصمة من البررة ، والبررة كل فخذ هاجرت بأسرها ، والحيرة كُلّ قوم هاجروا من بطن ...

وغنم المسلمون غنائم كثيرةً ، وهرب فلّال الحصيد إلى الخنافس ، فلمّا سار المسلمون إليها هرب القائد الفارسي المهبوذان بجيشه إلى المُصيّخ ، فكتب خالد على قواده — كالقعقاع وأعبد بن فدكى — وواعدهم ليلةً وساعةً يجتمعون فيها إلى المصيخ ، فاجتمعوا بها في الموعد وأغاروا عليهم من ثلاثة أوجه وهم نائمون ، فقتلوهم حتى امتلأ الفضاء من قتلاهم ، فما شبّهوهم إلا بغنم مصرّعة ...

قال سيف : ولمّا أصاب أهل المصيخ تجمعت قبائل تغلب بالثني والزميل فاتفق خالد مع قواده أن يفعلوا بأهليهما فعلهم

٥ :ـ المرجع السابق ٩١/٢

بأهل المصيخ ، فبدأ بالثني واجتمع هو وأصحابه فبيّته من ثلاثة أوجه فجردوا فيهم السيوف ، فلم يفلت من ذلك الجيش مخبر ، واستبى ، وبعث بالخمس إلى أبي بكر ...

ثم بيّت أهل الزميل غارة شعواء من ثلاثة أوجه ، فقتل منهم مقتلةً عظيمةً لم يُقتلوا قبلها مثلها ، وأصابوا منهم ماشاءوا ، وكانت على خالد يمين " ليبغتنّ تغلب في دارها " ، ثم قسّم فيأها وبعث بالأخماس إلى أبي بكر ...

قال سيف : ثم سار خالد بن الوليد إلى الفراض ، واغتاظ الروم من المسلمين ، واستغاثوا بمن يليهم من صالح الفرس ، واستمدّوا بقبائل تغلب وإياد والنمر من العرب فأمدّوهم ، واقتتلوا مع المسلمين قتالاً شديداً طويلاً ، وأخيراً انهزم الروم و من معهم ، وقال خالد للمسلمين:" ألحّوا عليهم ولا ترفهوا عنهم"، فجعل صاحب الخيل يحشر منهم الزمرة برماح أصحابه، فإذا جمعوهم قتلوهم ، فقُتل يوم الفراض في المعركة والطلب مائة ألف .

أمّا عند غير سيف : فقد جاء الآتي : وبعث خالد بشير بن سعد الأنصاري إلى بانقيا ، فلقيته خيل للأعاجم عليها فرخبنداذ،

فرشقوا من معهم بالسهام وحمل عليهم فهزموهم وقتل فرخنبذاذ، ثم انصرف وبه جراحة انتفضت بعين التمر فمات بها ...

ثم إن خالدا أتى بعدها الفلاليج وبها جمّع للعجم ، فتفرقوا ، ولم يلقوا كيدا فرجع إلى الحيرة ، فبلغه أن جابان في جمع بتستر ، فوجّه إليه المثنى وحنظلة بن الربيع ، فلمّا انتهيا إليه هرب ، وسار إلى الأنبار ، فتحصّن أهلها وبعث المثنى إلى السوق العتيق ببغداد (القرية التى كانت توجد مكانها) فأغار عليهم ، فملأوا أيديهم من الذهب والفضة وما خفّ حمله ، ثم أتوا الأنبار وخالد بها فحصروا أهلها وحرقوا نواحيها ، فصالحوه بشيء رضي به ، وقيل : بل صالحه جرير في عهد عمر بن الخطاب ... اهـ .

انفرد سيف بن عمر بذكره معارك لا وجود لها ولم تُذكر عند غيره من رواة التاريخ ، وأظهر خالد بن الوليد توّاقاً للدم ولقتل الأسرى حتى قتل منهم مائة ألف في معركة واحدة ...

و في معظم المعارك التى قادها خالد بن الوليد و رواها سيف نجد خالداً لا يتورع عن القتل والإغارة دون سابق إنذار ، فيقتل المستأمنين والأسرى ، بل يُلقي اليمين وينفذه لقتل هؤلاء و أن يُجرى الأنهار بدمائهم !

ألا يحق لخصوم الإسلام أن يقولوا : إن الإسلام انتشر بحدّ السيف ؟!

وماذا يستفيد الإسلام في إظهار صورة خالد بمثل هذه القسوة ؟!

وأخيرا يتساءل مرتضى العسكري[٤٦] : هل خفي كل هذا الكذب والافتراء على إمام المؤرخين الطبري ، وعلاّمتهم ابن الأثير ، ومكثرهم ابن كثير ، وعلى عشرات من أمثالهم : كابن عبد البر وابن عساكر وابن حجر ؟ وهم الذين وصفوا سيف بن عمر بالكذب والزندقة ، وقد مر علينا في وقعة ذات السلاسل قول الطبري وابن الأثير وابن خلدون في تواريخهم : إن ما ذكره سيف خلاف ما يعرفه أهل السير ...

إذنْ ... فما الذي دعاهم إلى اعتماد روايات سيف دون غيرها مع علمهم بكذبه وزندقته ؟! كيف خفي عليهم أن إظهار: أنّ جلْب خالد عشرات الألوف من البشر وذبْحهم على النهر ليجرى نهرهم بدمائهم ليست فضيلة له؟!

لقد اخترنا نماذج قليلة لما رواه سيف وحلاّها بمناقب الصحابة حتى يأخذها المؤرخون وتصبح بضاعةً رائجةً رغم

٤٦ــ المرجع السابق ٣٢٨/١

علمهم بكذبها ، والصحابة الكرام فى غنى عن هذه المناقب التى تروى عن وضاع كذاب أجمع المؤرخون على كذبه ، فوضع ما شاء واختلق ما شاء من أحداث وأماكن ورجال لا وجود لهم؛ كل ذلك لهدم الإسلام .

و لمن شاء الرجوع إلى كتابىْ " عبد الله بن سبأ " و"خمسون ومائة صحابىّ مختلق "؛ ليرى كيف تمكّن سيف من تحوير وتحريف التاريخ الإسلامى .

أمّا أكبر المفاسد التى قام بها سيف : فقد كان فى اختلاقه لشخصية خرافية وهمية لا وجود لها ، هى شخصية " عبد الله بن سبأ " ...

قال عنه. طه حسين[٤٧] : إن عبد الله بن سبأ ما هو إلا وهم ادخره خصوم الشيعة للشيعة .

وفى كتابنا " أشهر الخونة والمفسدين فى تاريخ الأمة " قلنا عن عبد الله بن سبأ " الخائن الغامض "[٤٨] : بأنه من غير المنطقى أن ينخدع أبو ذر الغفارى أو سلمان الفارسى أو

٤٧ــ د. طه حسين : على وعثمان / دار المعارف / القاهرة ١٩٧٧ م / ٨٧.
٤٨ــ على أبو الخير : أشهر الخونة والمفسدين فى تاريخ الأمة / دار الوفاء / المنصورة (مصر) ١٩٩٩ م / ١١

غيرهما من أجلاّء الصحابة برجل يهودى أسلم مؤخرا ، فيأخذان من أقواله ويصبحان من أتباعه ! غير منطقى أن يكون لرجل مثل قدرات عبد الله بن سبأ ، ثم إن كل كتب التاريخ الإسلامى التى تروى عن عبدالله بن سبأ لا تجد وجودا حقيقيا للرجل ، بل أتباعه هم الذين يظهرون ، وهم الذين يروجون الشائعات ، وهم الذين أشعلوا الفتنة فى حرب الجمل ، ومن قبلها هم الذين ألّبوا الأمصار على الخليفة عثمان رضى الله عنه، أمّا هو فأفكاره هى التى ترد ، وهى التى تنتشر ...

أمّا قوله فى علىّ بأنه هو الله أو أنه قال بعد مقتله: " بأنكم لو جئتم برأسه فى سبعين صرة ما أصدق أنه مات " كل هذه الأقوال وردت على لسان أتباعه ، وعلىّ نفسه لم يقتله ، بل نفاه وحرق أتباعه ، فلماذا لم يقتله إن كان ما ورد صحيحاً ؟! لماذا تركه فى المدائن يذيع أفكاره الفاسدة ؟!

يقول د. حامد حفنى داود(مقدمة كتابه " مع أحمد أمين "): ولعل أعظم هذه الأخطاء التاريخية التى أفلتت من زمام الباحثين(فى التاريخ الإسلامى) وغم عليهم أمرها فلم يفقهوها و يفطنوا إليها : هذه المفتريات التى افتروها على علماء الشيعة حين لفّقوا عليهم قصة عبد الله بن سبأ فيما لفّقوه من قصص ،

وزعموا أن كل خرافة أو أسطورة أو أكذوبة جاءت من فجر التاريخ الإسلامي كانت من نسج خيال علماء الشيعة واعتبروها مغمزا يغمزون به عليهم .

أسطورة ابن سبأ ... خداع مصنوع

فكيف جاءت أسطورة عبد الله بن سبأ وانتشرت وترعرعت وأصبحت من مسلّمات التاريخ الإسلامي والتي يقولها كل باحث وكل مؤرخ ؟

فمن هو ابن سبأ ؟ وما هي قصته ؟

تتلخص فيما قالوا : بأن يهوديًا من صنعاء اليمن أظهر الإسلام في عصر عثمان واندسّ بين المسلمين ، وأخذ يتنقل في حواضرهم وعواصم بلادهم : الشام والكوفة والبصرة ومصر ؛ مبشرا بأن للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلّم رجعة كما أن لعيسى رجعة ، وأن عليًا هو وصيّ محمد كما كان لكلّ نبيّ وصيّ ، وأن عليًا خاتم الأوصياء كما كان محمد خاتم الأنبياء ، وأن عثمان غاصب حق هذا الوصي وظالمه ، فيجب مناهضته لإرجاع الحق إلى أهله ...

وسُمّي بـ" ابن الأمة السوداء " أو " ابن السوداء " ...

وقالوا : إنه بث في البلاد الإسلامية دعاته ، وأشار عليهم بأن يُظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والطعن في الأمراء ، فمال إليه واتّبعه على ذلك جماعات من المسلمين ، فيهم الصحابي الجليل والتابعي الصالح ، مثل : أبو ذر وعمار ومحمد بن أبي بكر وصعصعة بن صوحان العبدي والأشتر النخعي ...

وقالوا : إن السبئيين أينما كانوا أخذوا يثيرون الناس على ولاتهم ـ تنفيذا لخطة زعيمهم ـ ويضعون كتبا في عيوب الأمراء ويرسلونها إلى غير مصرهم ، فنتج عن ذلك قيام جماعات من المسلمين بتحريض السبئيين وقدومهم إلى المدينة وحصر الخليفة عثمان في داره حتى قُتل ، وان كل ذلك كان بقيادة السبئيين ومباشرتهم ...

وقالوا : إن السبئيين هم الذين أشعلوا حرب الجمل بعد أن اتفق الطرفان على الصلح (وكان السبئيون وزّعوا أنفسهم على الفريقين) فناوش المندسون منهم في جيش البصرة من كان بإزائهم من جيش عليّ ، ففزع الجيشان وفزع رؤساؤهما ، وظنّ كلٌ بخصمه شرًا ، أي أن الحرب اندلعت دون أن يكون لرؤساء الجيشين فيها رأي أو علم ...

هكذا كان ابن سبأ معلّماً للصحابة ولأبنائهم ، وقادهم ـ كالعميان ـ لحصار الخليفة ، ثم تنقّل بين الأمصار فى خفة ، ولم تكن لقدراته فى تحريك أتباعه حد ، ولا يقف فى وجهها أى معارض !

صحابة كبار فى قدر أبى ذر وسلمان كانا من أتباعه ! وعبدالله بن مسعود كان متأثرا بأفكاره !

ثم نقلوا عن سيف بأن عبدالله بن سبأ روّج الوصاية لعلىّ ، وأنه ادعى الألوهية فيه ، وأنّ علياً أحرق أتباعه بالنار فما زادهم إلا يقينا؛ لأن الله وحده هو الذى يعذب بالنار ، ولكنه عفا عن عبد الله بن سبأ ربما لأنه غير موجود ، وموضوع حرّقه يختصر القصة ويضعها فى غير مكانها؛ فمن يروج للرجعة والبداء غير ابن سبأ ؟!

أورد الإمام الطبرى فى كتابه " تاريخ الأمم والملوك " قصة السبئية منحصرا عن طريق سيف بن عمر بأسانيده التى يطول شرحها ، والطبرى أورد كل الروايات وترك العهدة على المحقق فى استجلاء الحقيقة .

وابن عساكر فى تاريخه الكبير أورد أحاديثه عن السبئية وابن سبأ عن طريق سيف وحده ولا طريق غيره .

والأمر نفسه بالنسبة للذهبى ...

رغم أن جميعهم قالوا عن سيف بأنه كذاب زنديق !

ومن الطبرى أخذ ابن الأثير وابن كثير وابن خلدون ، فراجت القصة أو الأسطورة ، وتناقلها الرواة وضخّمتْها العامة، و أخذ من أفواههم المؤرخون اللاحقون ، ووُضعت فى الكتب وأصبحت من مسلّمات التاريخ الإسلامى ، فضاعت الحقيقة .

و رغم أنّ أسطورة ابن سبأ كانت فى الأصل ضد الشيعة لكنْ بسبب رواجها جعلها بعض علماء الشيعة من ضمن ثوابت التاريخ ، وراحوا يتبرأون من أفكارها ومما روجَت له من أن السبئية قالت بالرجعة وغيبة الإمام ونبوّة الإمام وقالت بالتناسخ وحلول الله فى الأئمة ، أو وضع أفكار اليهود فى عقيدة المسلمين ، وأنه أول من وقع فى أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم .

فلماذا راجت فكرة السبئية ؟

ذلك أن المعارضين ضد أنظمة الحكم كان أغلبهم من الهاشميين والعلويين منهم على وجه خاص ، فتشويه سمعتهم وتاريخهم يصرف الناس عنهم ويجعل همّهم الدفاع عن أنفسهم .

حقيقة كلمة " السبئية " تدل على الانتساب إلى قبائل اليمن من سلالة سبأ بن يشجب بن قحطان ، ولُقب بـ" السبئية " عدد كبير من رواة الحديث الصحاح واشتهروا بها ، وأصبحت نبزا ينبز بها بعض شيعة علىّ وأصحاب المختار من أفراد القبائل السبئية ، ثم أُطلق على عامة شيعة علىّ من أفراد تلك القبائل...

ثم اختلق سيف الأسطورة السبئية ، ورواها عنه الطبرى ، ومن الطبرى أخذ باقى المؤرخين ، ثم تطورت الأسطورة على أفواه الناس ، ومن أفواههم أخذ كُتّاب الملل والفصائل والفرق ، وأخيرا اشتهرت السبئية بالفرقة المذهبية ونسيت دلالتها على الانتساب إلى قبائل سبأ .

ولأنّ معظم من كان فى جيش علىّ من القبائل اليمنية ، ولأنّ الحكّام الأمويين والعباسيين كانوا يحاربون الشورى أو الدعوة إلى أى نسل من علىّ فإنهم روّجوا للأسطورة حتى ينصرف الناس عنهم أجمعين ، بالإضافة إلى العصبية التى ظهرت وعادت لجاهليتها مع استتباب الملْك العضوض .

والسبئيون الذين كانوا فى جيش علىّ ، ومن أخلص قوّاده: عمار بن ياسر العنسى السبائى الذى زعموا أنه استقى تعاليمه و

معارضته لعثمان عن ابن سبأ والأنصار أيضا ، وحجر بن عدىّ الكندى وباقى قبيلته ، وقد قتله معاوية لأنه من أنصار علىّ و رفض التبرؤ منه ، فقتله مع ستة من رجاله رفضوا التبرؤ من علىّ ، بالإضافة إلى الأنصار الذين كانوا مع علىّ فى الجمل وصفين وكانوا دوما معارضين للأمويين ؛ اعتبروهم سبئية رافضة ، منهم : ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت الأنصارى ، وسهل بن حنيف ، وعثمان بن حنيف ، إلى جانب عبد الله بن بديل ، وعمرو بن الحمق ، وسليمان بن صرد الخزاعى ...

كل هؤلاء وغيرهم ألوف كانوا معارضين للدولة الأموية ، ولذلك كانت وقعة الحرّة التى قادها يزيد ضد أهل المدينة ، فقتل جيشه الكثير من الصحابة وأبنائهم ، واستباحوا المدينة ، واغتصبوا نساءها ، وهتكوا أعراض بناتها .

عندما أمر معاوية عمّاله بسبّ علىّ على المنابر سبّه زياد[٤٩] الذى استلحقه معاوية لنسبه ، فاعترض حجر بن عدىّ الصحابى ، فما كان من زياد إلا إرساله لمعاوية الذى أمر بقتله إذا لم يتبرأ من علىّ ...

٤٩ــ عبد الله بن سبأ (مصدر سابق) ٢/٢٧٢

و حجر ــ كما يصفه المؤرخون[٥٠] ــ كان كثير الصلاة والصيام ، وما أحدث إلا توضأ ، وما توضأ إلا صلى ، وكانت له صحبة ووفادة على النبي صلى الله عليه واله وسلّم ، وكان صالحا عابدا ، يلازم الوضوء ، ويكثر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد أنكرت أم المؤمنين عائشة قتْل حجر[٥١] ، ووبخت معاوية على ذلك عندما زارها في المدينة .

وجيء بأحد الرجال من أصحاب حجر[٥٢] ــ هو صيفي بن فسيل ــ فقال له زياد : يا عدوّ الله .. ما تقول في أبي تراب ؟

قال : ما أعرف أبا تراب .

قال : ما أعرفك به ...

قال : ما أعرفه .

قال زياد : أما تعرف عليّ بن أبي طالب ؟!

قال : بلى .

قال زياد : فذاك أبو تراب !

٥٠ــ المصدر نفسه ٢/٢١٢

٥١ــ المصدر نفسه ٢/٢١٢

٥٢ــ المصدر نفسه ٢/٢١٢

قال : كلا ... ذاك أبو الحسن والحسين عليهم السلام .

قال صاحب الشرطة : يقول لك الأمير " هو أبو تراب " و تقول أنت : لا؟!

قال : و إن كذب الأمير ... أتريد أن أكذب وأشهد على باطل كما شهد ؟!

قال زياد : وهذا أيضا مع ذنبك ... عليّ بالعصا ...

فأتي بها ، فقال : ما قولك ؟

قال : أحسن قول أنا قائله في عبد من عباد الله المؤمنين .

قال : اضربوا عاتقه بالعصا حتى يلصق بالأرض ...

فضُرب حتى لزم الأرض ، فقال زياد : أقلعوا عنه ... إيه ! ما قولك في عليّ ؟!

قال : والله لو شرّحتني بالمواسيّ والمديّ ما قلتُ إلاّ ما سمعت مني .

قال : لتلعننّه او لأضربنّ عنقك ...

قال : إذنْ تضربها ؛ فإن أبيتَ إلا أن تضربها رضيتُ بالله وشقيتَ أنت .

هذه نوعية من الحرب ضد أصحاب عليّ حتى بعد أن مات عليّ ، ظلّت الملاحقة والدعاية المضادة المسيئة لعليّ وأصحابه ...

ولأن أغلب أتباعه من أولئك اليمنيين لذلك نُعتوا بـ" السبئيين " نكاية فيهم وفي عليّ وفي نسله وفي كل معارضة دينية؛ لجعل الحكم قيصريّة أو كسرويّة .

فهذا حجر ، وأولئك أصحابه ، وتلك سبئيتهم ، عباد الأمة وزهادهم من أفاضل أصحاب النّبيّ الأبرار وتابعيهم بإحسان ، أنكروا على الولاة ، مثل : المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه لعنهم الإمام عليّ على المنابر ، فقتلوا منهم من قتلوا ، ودفنوا منهم أحياء في حب عليّ وولائه .

وما حدث لحجر وأصحابه أنكره الصحابة الكرام ؛ لِما رأوا فيه من ظلم وجور:

أم المؤمنين عائشة ترسل إلى معاوية تقول له :" الله الله في حجر وأصحابه " ، ولكنهم كانوا قد قُتلوا ، ووبخت معاوية فيما بعد .

عبد الله بن عمر يقوم ويبكي في السوق حزنا على حجر .

والصحابي فاضل المسلمين ربيع بن زياد الحارثي [53] يدعو الله أن يقبضه إليه بعد أن جزع من مصرع حجر ، فيستجيب الله دعاءه فيموت .

٥٣ــ المصدر نفسه ٢/٢٧٢

و يغرغر معاوية عند موته ويقول [54]: يومي منك يا حجر طويل .

هؤلاء هم السبئية ... وذلك لقبهم الذي كانوا يعايرون به : حب عليّ والولاء له ، ورفض الظلم ولعن عليّ على المنابر .

وعندما أرسل زياد إلى معاوية في شأن حجر قال له فيما قال [55]: هؤلاء الترابية السبئية .

وعندما قام المختار بثورته ضد قتلة الحسين وبعد نجاحه في ذلك ادّعوا على أصحابه (ومعظمهم من القبائل السبئية) بأنهم ترابية سبئية ، وادّعوا على المختار أكاذيب راجت في كُتُب التاريخ ، والمنطق يرفضها ، مثل [56]: أن المختار ادّعى النّبوّة، وان له كرسيًا يوحى إليه و هو جالس عليه ، وغيرها ؛ لأنه تمكّن من قتل معظم من شارك في قتل الحسين في كربلاء...

٥٤ــ المصدر نفسه ٢/٢١٢

٥٥ ــ المصدر نفسه ٢/٢٧٢ ، ٢٧٣

٥٦ــ المصدر نفسه ٢/٢٩٦

ولذلك فإن حبر الأمة عبد الله بن عباس استنكر من يزعم على المختار مثل هذه الأراجيف[٥٧] ، وقال : " هذا رجل قتل فلتنا واحد تارتا ، وليس له منا الشماتة " ، وابن عباس هو من هو ديناً وتقوى وورعاً ، ولا يمكنه السكوت إن حدث من المختار هذا الزعم بادعائه النبوة ونزول الوحي عليه ، ولكنها الدعاية المشوهة المشوشة على الأفكار ...

ونجد لها نظيرا في تاريخنا المعاصر ؛ فالحاكم يقول عن العهد السابق لعهده " العهد البائد " ، ويشوش كل المعلومات عنه ، و ينتقص من قدره ، مثلما فعلت عساكر ٢٣ يوليو عندما روّجت كل زيف عن ما قبل انقلابها ، حتى أصبح من المسلّمات " العهد البائد ، الملك الفاسد " ، والشيء نفسه عندما قال السعوديون على آل رشيد ، ومثلما قال البعثيون عن نظام الملك فيصل ، وكلها مزاعم لا ترقى لمستوى اليقين ، والأكيد كان الأمر سيزيف لو انتصر غيرهم ، عملية تزييف في تزييف ، وقدرة فائقة على الكذب في تاريخ الأمة بأسرها .

٥٧ــ د. عبد الحسيب طه حميده : أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري / الزهراء للإعلام العربي / القاهرة ١٩٧٧ م / ٢٠٨

و صارت السبئية بمرور الزمن رمزاً لكل معارضة علوية؛ للانتقاص من قدرها و تشويه أئمتها والادعاء عليهم بما ليس فيهم ...

امتدّ هذا الأمر إلى العباسيين لمّا بويع أبو العباس السفاح بالخلافة؛ صعد المنبر و خطب، و قال فيما قال في خطبته[٥٨]:"... فأعلمهم جلّ ثناؤه فضلنا ، وأوجب عليهم حقّنا ومودتنا ، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا ؛ تكرمةً لنا وفضلاً علينا ، والله ذو الفضل العظيم ، وزعمت السبئية الضلاّل أن غيرنا أحق بالرئاسة والسياسة والخلافة ، فشاهت وجوههم " ، وكان يقصد بالسبئية الضلاّل أنصار الدعوة العلوية ، فنبذهم بـ"السبئية " ، وأراد فيما قال أن يدفع خصومه الذين كادوا أن يُحوّلوا الخلافة إلى العلويين ، فوصفهم فيما وصفهم بأنهم " سبئية ضلاّل " ...

ولو كانت السبئية تزعم بألوهية عليّ لقاتل عنهم : إنهم ضلاّل خرجوا عن ملة الإسلام ؛ لأنهم قالوا بألوهية بشر هو عليّ .

٥٨ــ عبد الله بن سبأ (مصدر سابق) ٣١٣/٢

ظلّ الأمر على هذا الحال منذ عصر زياد حتى عصر العباسيين عندما اختلق سيف بن عمر أسطورته فلاقت رواجاً بين الحكام لأنه يشوه خصومهم السياسيين ، ولاقت رواجاً بين العلماء والعامة لأنه ملأها بمناقب الصحابة الكرام والمبالغة فيها، والصحابة الكرام في غنى عن مناقب لا تضيف إلى صحبتهم الكريمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم شيئاً ؛ فهم ــ كما وصفهم القرآن الكريم ــ قد رضي الله عنهم ، وتلك أكبر المناقب ...

و رغم أنه اتُهم بالكذب والزندقة إلا أنهم لم يجدوا حرجاً من الأخذ منه طالما يروى مناقب الصحابة الكرام حتى لو كانت مبالغاً فيها !

وخلال وضعه الأسطورة ادعى على بعض كبار الصحابة ما ليس فيهم ، مثل : أبي ذر ، وعمّار ، وابن مسعود ، وأبي الدرداء .

وأصبح الانتساب لسبأ ليس للقبائل اليمنية ، بل لأتباع من زعم أنه عبد الله بن سبأ . لذلك فإن سيفاً ألف كتابين هما "الجمل" و"الفتوح" وضع فيهما أساطيره وتفرّد بروايتها ، ولم تنتشر إلا بعد أن نقلها علماء كبار ــ ضمن ما أوردوا

روايات أخرى كثيرة ، وتركوا تنقية هذه الروايات على الباحثين ــ فانتشرت هذه الأسطورة وأصبحت من ضمن روايات التاريخ التي لا يرقى إليها الشك ، رغم علمهم بكذب سيف وزندقته ...

وتطورت الأسطورة بما حيك حولها من أساطير حتى أصبحت تدل فقط على الفرقة القائلة بألوهية عليّ بعد أن كانت عند سيف تدل على القائلين بوصاية عليّ فقط وأنهم الخارجون على الخليفة عثمان وأنهم الذين أشعلوا حرب الجمل وخلافه ...

يقول العسكري[٥٩] : إنّا لم نجد إلى أخريات القرن الثالث الهجري مؤلفاً يذكر للسبئية معنى غير ما قصده سيف من الوصاية لعليّ ، وغير ذلك من الأحداث التاريخية الهامة ، مثل : السقيفة ، والشورى ، وحروب الردة ، والفتوحات وغيرها ...

ولكن بعد ذلك تطور الأمر وأصبحت السبئية قرينةً بألوهية عليّ ، ولصق الأمر بشيعة عليّ على الدوام ، وأصبحت من ضرورات الهجوم على الشيعة ، وما انفك المؤلفون المحدثون يقولون بالأصول اليهودية لعقائد الإمامية بناءً على الأسطورة .

٥٩ــ عبدالله بن سبأ (مرجع سابق) ١ / ٢٢

و رغم أن العرب كانوا يحققون الأنساب و يُرجعون نسب كل رجل إلى قبيلته القديمة لا نجد نسب عبد الله بن سبأ غير أنه " ابن سبأ " أو " ابن السوداء " أو " يهودى من صنعاء " ، دون ذكر نسبه أو أصله أو قبيلته ! فهل يُعقل أنه رجل حقيقى ؟!

إننا نرى ــ مثلاً ــ الغيورين على الإسلام يتهمون المستشرقين بأنهم يهاجمون الإسلام ، ولكنهم فى الوقت نفسه يأخذون منهم ــ كأحد مصادر التاريخ الموثّق ــ فيما يخص السبئية ونسبتهم إلى عبد الله بن سبأ !

نمت أسطورة ابن سبأ فى العهدين الأموى والعباسى ولاقت رواجها ، ولأن التاريخ يُكتب عادةً بناءً على وجهة نظر السلطة فقد دُوّن التاريخ بناءً على إضاءة وجه السلطة ...

ونجد لذلك نظيراً فى عصورنا الحديثة ، من ذلك : ما رأيناه فى كتب التاريخ فى المناهج الدراسية عن محمد علىّ مثلاً، فهو مؤسس مصر الحديثة فى مصر ، وهو رجل مخادع غادر فى كتب التاريخ السعودى ، وهو بطل عربى فى مناهج التاريخ البعثى !

قسٌ على ذلك إخفاء أسرار الأحداث الكبرى ، مثل : حقيقة هزيمة ١٩٦٧ ، وأسرار حروب الخليج ؛ فيها ما يغنى عن أى إشارة .

عن سنة ٣٠ هـ يذكر الطبرى[٦٠] : وفى هذه السنة ــ أعنى سنة ٣٠ هـ ــ كان ما ذُكر من أمر أبى ذر ومعاوية وإشخاص معاوية إياه منها إليها ، أمور كثيرة كرهتُ ذكْر أكثرها ، فأمّا العاذرون معاوية فى ذلك فإنهم ذكروا فى ذلك قصةً كتَب بها إلىّ السّرىّ يذكر أن شعيباً حدّثه سيف عن عطية عن يزيد الفقعسى قال : لمّا وردابن السوداء الشام لقى أباذر فقال : يا أباذر ... ألا تعجب لمعاوية يقول عن مال المسلمين " مال الله " ؟! ... إلى آخر ما ذكر ...

فالطبرى كره ذكْر ما ورد فى القصة ، وأورد آراء العاذرين معاوية ، أى أنه دافع عن معاوية الأمير فى مقابل حجْب قصة أبى ذر الفقير ، أى أنه دافع عن السلطان ضد العامة كما يحدث فى عصورنا الحالية .

٦٠ــ المصدر السابق ٦٥/١

ليس ذلك هجوماً على الطبرى وغيره من كتّاب التاريخ ، و لكن الأمر كان أكبر من ذلك ؛ فسيف وضع أسانيد لرواياته و بطُرق مختلفة تجعل الكثيرين يقعون فى فخه، و هذا ما حدث ...

ولذلك أصبحت سُنّةَ أن يقوم السلطان بحجب الحقيقة عن الشعب وكتابة التاريخ من وجهة نظر السلطة وحدها ، ولم تكن المعارضة يوماً فى التاريخ الإسلامى إلا خوارج نواصب أو رافضة خبيثة أو ملاحدة زنادقة ، وكم قُتل الكثير من المسلمين تحت هذه المسميات والوشايات .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن : كيف لسيف هذا الخيال الواسع والقدرة الهائلة على التزييف وقلْب كل الحقائق ووضْعه لروايات مختلقة أصبحت أساساً للتاريخ الإسلامى ؟!

يقول العسكرى [٦١]: ما المانع وهذا الخيال وُجد فى كتاب قصص " ألف ليلة وليلة " و" مقامات الحريرى " و" كليلة ودمنة" والمبالغة فى قصة عنترة العبسى ومثل كُتب جورجى زيدان ؟!

سيف مثلهم خلق أشخاصاً وروايات بأسانيد وأبطالاً لا وجود لهم إلا فى خياله الخصب .

[٦١] عسكرى سيف (مرجع سابق) ٢ /٢٩٥

نقول : إن السلطة لم تكن تتسامح مع معارضيها ، فلجأت إلى ترويج كل ما يثبّت حكْمها ، إلى جانب أن العلماء تساهلوا فى التاريخ ، ولم يروا بأساً من رواية الأحداث من كل زاوية ، وعدم التحقق من المتن والسند ، ليس مثلما فَعَل رواة الأحاديث؛ فإنهم تحرَّجوا فى الأخذ بالحديث إلا بعد التثبت من السند ، وتم وضْع علوم الحديث ومصطلحه وعلم الرجال والجرح والتعديل ؛ ذلك لأن الأمر يختص بما ورد عن النبى صلى الله عليه وآله وسلّم وبما قاله وبما فعله ، ولأن السُّنّة ستصبح مصدراً للتشريع ، فلم يتسامح كتّاب الصحاح فى ذلك.

ومن الأمور التى تلفت النظر : أن أصحاب كُتُب الحديث ــ مثل : البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم ــ قاموا بجمع الحديث بناءً على مبادرات فردية منهم لم تكلفهم بها السلطة ، وأخذوا هم على عاتقهم جمْع الحديث وتدوينه ووضْع قواعده .

حاولت السلطة مرّةً أن تجبر الأمة على كتاب " الموطأ " للإمام مالك الذى رفض بشدة ، وتراجع المنصور تحت رفض مالك الشديد .

هارون الرشيد طلب من بهلول الزاهد أن يعظه ، فقال بهلول[٦٢] : أرأيت يا أمير المؤمنين إن مُنعت عنك شربة ماء ؛ بكم تشتريها ؟

ففكر الرشيد قليلا وقال : بنصف ملكى .

فقال بهلول : وإذا حُبست فيك شربة الماء ولم تستطع إخراجها ؛ بكم تخرجها ؟

فقال : بنصف ملكى الآخر .

فقال : ملْك لا يساوى شربة ماء ولا إخراجها لا يساوى شيئاً .

فبكى الرشيد كثيراً ...

فهلْ زهد فى الملك ؟! هل تخلّى عنه ؟! هل كف عن قتل معارضيه وأبرزهم موسى الكاظم وجمْع من العلويين ؟!

لا ... لم يحدث ذلك ، رغم أن عصر الرشيد كان من أزهى العصور الإسلامية إن لم يكن أزهاها جميعاً ...

إنه الملْك إذنْ ... فليحرص عليه من يحرص ، وفى سبيل هذا الحرص لا مانع من تشويه المعارضة وقتْلهم ونفْيهم والقول عليهم بما ليس فيهم .

٦٢ــ التاريخ السياسى (مرجع سابق) /٢٣١

من ضمْن الأمور التى لم يستطع المؤرخون جبرها أن جيش علىّ كان فيه من قتلة الخليفة عثمان رجلان مهمان بارزان ، هما: محمد بن أبى بكر، ومالك الأشتر النخعى ! كانا من ضمْن المحاصرين للدار، وممن اشتركوا فى الفتنة ، ومن ضمْن السبئيين الذين راج ذكرهم كما رأينا ...

فهمْ ــ أى المؤرخون ــ فى حيرة ؛ فهمْ يذمّون الأشتر ومحمداً لأنهم من جملة المحاصرين والمؤلبين على الخليفة، و لكنهم لا يذمّون علياً لأنه أبقاهم فى جيشه بل ومن ضمْن أقرب قواده إلى قلبه، و ولّى محمداً مصر، فلمّا مات ولّى الأشتر فتم سمّه ...

عندما قُتل محمد احتسبه الإمام علىّ إلى الله وترحّم عليه و حَزِن من أجله جداً .

أمّا الأشتر فعندما أتى نعيه للإمام بكى وقال عنه[٦٣]:" مالك وما مالك ... لو أحبّنى جبل لَتهالك " وقال أيضاً : الأشتر لى كما كنتُ للنبى.

٦٣ــ عبد الفتاح عبد المقصود / موسوعة الإمام على / مكتبة التربية / بيروت ٢ / ٢٨

وقد كان أبرز قواده ، وله نصيب وافر في حربه معه في صفّين .

فهل كان الإمام ضمن المؤلبين على عثمان ؟!

حاشا له أن يفعل، فلماذا إذنْ جعل رجلين من المؤلبين عليه ــ إن لم يكونا من قاتليه ــ ضمن أقرب قواده إلى قلبه ؟

عندما طلب معاوية منه أن يدفع إليه قتلة عثمان في أحد كُتُبه قال [٦٤]: تأوّل القوم على عثمان القرآن، و وقعت الفرقة و قتلوه في سلطانه، فليس عليهم قود (قصاص) ...

فالإمام كان يرى أن الفتنة عمياء ، والتأول يمنع القصاص .

والذين يبررون موقفه ذلك قالوا ضمن ما قالوا : بأنه جعلهم في جيشه عند احتدام الفتنة ، وأنهم كانوا الأكثرية ، فلم يستطع أن يبعدهم عنه ، وأنهم في النهاية خرجوا عليه وقتلوه .

ولكننا نرى أن الأشتر ومحمداً بالذات لم يكونا ضمن المؤلبين ولا المحاصرين لدار الخليفة عثمان ؛ وإلا ما كان الإمام يستعين بهما ولا جعلهما من أخلص رجاله ولا تأسّف على مصرعهما على الإطلاق ، أمّا ذكرهما في كتب التاريخ

٦٤ــ عبدالرحمن الشرقاوي / على إمام المتقين / مكتبة غريب / القاهرة ١٩٧٧ / ٢ / ٤٧

من أنهما من جملة المحاصرين والقتلة للخليفة فقد جاء ضمن الأسطورة السبئية للدفاع عن السلطة بعد موت الإمام .

محمد بن أبي بكر قُتِل في مصر ووُضِع في جوف حمار ميت وأُحرِق ، وقُطِعَت رأسه وطيف بها في الشام ، وعندما علمت أم المؤمنين عائشة ظلّت تبكي وحرّمت على نفسها اللحم المشوي [٦٥].

أمّا الأشتر فقد كان قائداً عسكرياً بارزاً ، شُتِرَت عينه في معركة اليرموك ، وشهد معارك الإمام ، وفي صفّين كاد يهزم جيش الشام لولا حكاية رفْع المصاحف والتحكيم ، ولمّا أرسله الإمام والياً على مصر طلب معاوية من والي القلزم أن يسمّ الأشتر ؛ لأنه يَعلم أن الأشتر لو وصل إلى الفسطاط لجمع مصر على الإمام ، فتمّ سمّه ، و قال معاوية عن ذلك [٦٦] : لقد كان لعليّ يدان : قطعتُ إحداهما في صفّين (عمار بن ياسر)، و قطعتُ الأخرى في القلزم (يعني الأشتر) ...

٦٥ــ المصدر نفسه ، ٢ / ٥٤

٦٦ــ علي إمام المتقين (مرجع سابق) / ٦٦

ولكى يبرر عمله فى سم الأشتر وإحراق جثة محمد تَمّ إعلان أنهما من قتلة عثمان ، وتم ترويج هذه الدعاية، ولمّا وضع سيف أسطورته ذاعت فى كُتُب التاريخ .

والحقيقة أنّ الرجلين ما قتلا عثمان ولا شاركا فى دمه: محمد بن أبى بكر قام عنه نائباً عندما ذكّره بأبيه ، ولكنّ الأشتر لم يشترك فى قتل الخليفة ولا علق بثوبه من دمه قطرة[٦٧] ...

عثمان يكتب إليه يريد المشورة حتى يكفّ الثّوّار ؛ قال[٦٨]:

يا أشتر ... ما يريد الناس منى ؟

قال : ثلاثاً ليس من إحداهنّ بُدّ .

قال عثمان : ما هنّ ؟

فقال الأشتر : يخيّرونك بين أنْ تخلع لهم أمْرهم فتقول :"هذا أمركم ؛ فاختاروا له من شئتم "، وبين أنْ تقصّ من نفسك، فإنْ أبيْت فإنّ القوم قاتلوك .

قال : أما من إحداهنّ بُدّ ؟

فأجابه : ما من إحداهنّ بُدّ .

٦٧ــ موسوعة الإمام علىّ (مرجع سابق) ٢٠٣/٣

٦٨ــ موسوعة الإمام على (مرجع سابق) ٣ / ٢٠٣

فهلْ يُعقل أنْ يكون الأشتر ضمْن جموع الثوار ثُمّ يطلب عثمان منه المشورة فيجيبه الأشتر بكلّ الصدق الذى غاب عن الخليفة من بطانة السوء التى كانت تحيطه؟!

ومالك نفْسه أنكر اندفاع الثّوّار وحصارهم لدار الخليفة ، ثُمّ اعتزل الجميع، فلم يُدلِ فى الفتنة بكلمة فضلاً عن سيْف .

وبعْد البيعة لعلىّ بايعه وظلّ ملازماً له حتى نال الشهادة ، ولكنّ الدعاية السياسية للأمويين وضعته متّهماً ؛ لتشويه صورته ؛ لأنّهم كانوا يعلمون أنّه أخلص خلصاء علىّ الإمام .

فهل بعد هذا التاريخ الذى لم يصلنا منه سوى غير الموثّق والأساطير يجب السكوت أم يجب إعادة قراءته بفهم جديد ليس عن عقيدة مذهبية أو عن تعصّب أعمى لكل ما هو قديم ؟

أليس من الأجدى أن يتمّ قراءة هذا التاريخ بعمق لتنقيته مما ورد فيه ؟

أليس ذلك وسيلةً جيدةً لوحدة المسلمين المنشودة والتقريب بين المذاهب والحد من غلاة الزاعمين بأنهم ــ وحدهم ــ الفرقة الناجية وباقى الفرَق فى النار ؟ فهل يمكن أن يكون ٧٣/١ من جملة المسلمين فى الجنة وأن ما يقرب من ٩٨٪ من المسلمين فى النار ؟! فهل معنى ذلك أن الإسلام لم يدخل إلا نفوس ٢٪

من المؤمنين به وعبر كل تاريخه ؟! ألا يحتاج ذلك إلى فكر وتمعن ؟!

فمن هم الـ ٧٢ ؟

هم **{ ما أنا عليه وأصحابي }** ... هكذا رُوِي عن النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم ...

فما الذي عليه هو ــ عليه الصلاة والسلام ــ وأصحابه ؟ وكيف نعلم ذلك ؟ وكيف نحدد هذا الأمر ؟ وهل تدخل الفرق العقلية ــ مثل الخوارج والمعتزلة والمرجئة ــ أم الفِرَق الفقهية أم ماذا بالضبط ؟

يحتاج الأمر إلى أكثر من خطيب يتهم الفِرَق المخالفة بالكفر أو بالخبث أو المروق أو الاعوجاج ، والعامة يأخذون من هذا أو ذاك كأمور مسلّم بها ، ولا يستطيعون التمييز بين ما يقول هذا وما يقول ذاك .

وكل دولة تلتزم مذهباً معيّناً تحاول نشره ، وتتهم الأخرى بأنها تحاول نشر مذهبها ، وتكبته وتمنعه من التداول .

قراءة التاريخ من جديد أولوية مهمة، البحث فيها بحياد يجعل كل المسلمين إخوة...

فليس من قبيل الإنصاف أن نقول عن الدولة الفاطمية "الدولة العبيدية الخبيثة " رغم أنها لا تفترق كثيراً عن باقي الدول التي حكمت بعض الديار الإسلامية ، ولم تكن الدولة العباسية بأفضل منها سواء في نظام الحكم أو الاستبداد ، بل كانت الدولة الفاطمية أكثر تسامحاً من شقيقتها العباسية .

ومن أولويات هذه القراءة الجديدة الحيادية : إزالة التشويه الذي طُمِس به تراث أهل البيت ، وذلك على أساس المنهج العلمي الحديث ، بعيداً عن مَن يعمل جاهداً لكسْب أنصار هذا الفريق أو ذاك لطريقه ، ولا يجدي هذا الأمر شيئاً ...

وليس المطلوب التحول من مذهب إلى آخَر ؛ حتى لا تحدث فُرقة جديدة ولكن كلٌ يعذر الآخَر، والاختلاف وارد، ولكن الفُرقة غير واجبة .

يقول د. حامد حفني داود في مقدمة كتاب " عقائد الإمامية"[٦٩] للشيخ رضا المظفر : يخطئ كثيراً من يدّعي انه يستطيع أن يقف على عقائد الشيعة الإمامية وعلومهم وآدابهم مما كتبه عنهم الخصوم مهما بلغ هؤلاء الخصوم من العلم

٦٩ــ محمد رضا المظفر : عقائد الإمامية .. دار الزهراء – بيروت ٢٠٠٠ م /٤١

والإحاطة ، ومهما أحرزوا من الأمانة العلمية فى نقل النصوص والتعليق عليها بأسلوب نزيه بعيد عن التعصب الأعمى ، أقول ذلك جازماً بصحة ما ادّعى بعد أن قضيتُ ردحاً من الزمن أدرس فيه عقائد الأئمة الاثنى عشر بخاصة وعقائد الشيعة بعامة، فما خرجتُ من هذه الدراسة الطويلة التى قضيتُها متصفحاً فى كُتب المؤرخين والنقاد من علماء أهل السُنّة بشىء ذى بال ، وما زاد فى اشتياقى إلى هذه الدراسة وميلى الشديد فى الوقوف على دقائقها إلا بُعدا عنها وخروجا عما أردتُ من الوصول إلى حقائقها ؛ ذلك لأنها كانت دراسةً بتراء أحلّتْ نفسى فيها على كتب الخصوم لهذا المذهب، وهو المذهب الذى يمثل شطر المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ...

ومن ثمّ ... اضطررتُ بحكم ميلى الشديد إلى طلب الحقيقة حيث كانت والحكمة حيث وُجدت ــ والحكمة ضالة المؤمن ــ أن أدير دفة دراستى العلمية لمذهب الأئمة الاثنى عشر إلى الناحية الأخرى ، تلك هى دراسة المذهب فى كتب أربابه، وأن أتعرف عقائد القوم مما كتبه شيوخهم والباحثون المحققون من علمائهم وجهابذتهم ، ومن البديهى أنّ رجال المذهب أشدّ معرفةً لمذهبهم من معرفة الخصوم به مهما بلغ أولئك

الخصوم من الفصاحة والبلاغة أو أوتوا حظاً من اللسن والإبانة عمّا فى الشمس ... اهـ .

وبدورى كنتُ أقرأ فى كتب خصوم الشيعة التى تهاجمهم وتدّعى عليهم بما ليس فيهم ، وعندما أدرتُ دفة دراستى لعقيدة القوم من كتبهم راعنى هذا التزييف والجهل ــ ربما عن حسن نية ــ لتراث جدير بالتعمق ، بل وجدتُ أن كل ما اتهموهم به ليس فيه نقيصة إن لم يكن فيه الحق كله .

خذ ــ مثلاً ــ عقيدة الرجعة والبداء والغيبة ؛ نجدها جميعاً ليس بمثل ما قال به خصومهم !

فالبداء ليس كما يزعم الخصوم من أنه سبحانه يقرر شيئاً ثم يبدى له غيره، ولكن البداء فى العقيدة الإمامية: أن الذى يطرأ عليه التغيير والمحو بعد الإثبات فهو ما فى اللوح المحفوظ ؛ بدليل قوله تعالى **{ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب}** [٧٠] ، و أن هذا يوضح نسخ الأحكام فى القرآن الكريم .

و قسْ على ذلك كثيراً من الشناعات ، مثل : علم الجفر، و مصحف فاطمة، وعصمة الأئمة، وغيرها كثير؛ عندما وقفنا

٧٠ــ سورة الرعد : ٩

على أصولها وقرأناها لم نجد فيها ما يضر بالعقيدة ، ولكن فيها الخير كله ...

ومثل ذلك مما يطول شرحه ، ومن أراد أن يقف على الحقيقة مجردة كما قلنا فعليه بالرجوع إلى مصادر الكتب الأصلية ، وليس الأخذ من الذين يقولون أن لديهم سورة الولاية أو كتاب " فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب " وغير ذلك مما ليس إلا من قبيل إضافة جهل على جهل ...

أما الاكتفاء بما وقر في الذهن وعدم السعي للجهد والعرق وإعادة قراءة كل كتب التاريخ بمنهج علمي حديث فهو مثل العجائز اللاتي يعشن بخرافاتهن .

وليس هذا الحديث موجهاً للعامة ، بل هو موجه للخطباء والعلماء الذين نعتقد إخلاصهم .

وفي الحقيقة ... إن السلطة في الديار الإسلامية جُل اهتمامها لمعالجة الأمور السياسية وعدم خروج الشعوب عليها، فهي مشغولة عن هذا التقريب الأسمى ، ولو أنها فعلت لجنبت على نفسها خروج فكر التطرف الذي استقى تعاليمه من التاريخ غير الموثوق به ، ولأضاءت البشرية بنور الإسلام الباهر .

وصدق مَن قال : فالإسلام يحمل مدارس عديدةً وأفهاماً عديدةً، ولا يضير التنزيل أن يتعدد فهمه أو يتنوع ؛ فالمراد في نهاية المطاف هو صلاح النية وصدق التوجه إلى الله والسعي لرضاه .

وننقل هنا بعضاً مما قاله السيد محمد باقر الحكيم في كتابه "الوحدة الإسلامية "[٧١] في فصل " هامش الاختلاف والتعدد " فيقول : بعد أن عرفنا المعالم الأساسية في نظرية أهل البيت تجاه الوحدة في المجتمع الإسلامي لا بد أن نعرف أن من جملة الأسس والمعالم لهذه النظرية هو الإيمان بوجود هامش للاختلاف والتعدد بين المسلمين يمكن أن يستوعب الاختلاف في الفهم والاجتهاد والمواقف، مع قطْع النظر عن مدى صحة هذه الاجتهادات والمواقف ومدى انسجامها مع الحق والصواب؛ ذلك أن المجتمع الإسلامي الواسع إذا أريد له النمو والتطور والقدرة على الاستيعاب والشمول والتعايش بين جماعاته وأقوامه فلا بد من وجود هذا (الهامش) الذي قد يتسع أو يضيق بحسب الظروف والأوضاع التي يعيشها المجتمع الإسلامي؛ ذلك أن

٧١ــ السيد محمد باقر الحكيم : الوحدة الإسلامية من منظور الثقلين .. مركز يافا للدراسات والأبحاث - القاهرة ٢٠٠١ م /١٣٧

هذا الهامش سوف يكون صيانة ووقاية لهذه الوحدة الإسلامية ، و درعاً يجنبها الأزمات والاختلافات، ويحفظها من تحوّل هذه الاختلافات الطبيعية بسبب الضغوط على متفجرات تنسف هذه الوحدة أو تمزقها أو تشوّه صورتها ...

ولعلّ أحد الأسباب الرئيسة لما شهده العالم الإسلامي في تاريخه الطويل من اختلافات وصراعات حادة سُفكت فيها الدماء وشُرّد فيها الالاف من أبناء هذه الجماعة أو تلك ، هو عدم وجود مثل هذا الهامش المعترف به واقعياً في النظرية، وإن كانت بعض منطلقاته أحياناً بعيدة عن الحق أو الصواب ...

ففي التجربة الأولى لصدر الإسلام في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم ، نجد أن تحرّك المنافقين وبعض ضعفاء النفوس ، وكذلك بعض أهل الكتاب بالرغم من أنه كان مداناً من قبل القرآن الكريم والإسلام إلا أنه كان مسموحاً به، والقرآن الكريم مليء بالملاحظات ومعالجة الشبهات التي كان يثيرها هؤلاء، والأجوبة عن الأسئلة والاستفهامات، وكذلك إعطاء المواقف تجاه تحرّكهم، ولم تدخل الدولة الإسلامية معهم في صراع مسلّح، أو مطاردة قمع واستئصال، أو قرار منع للأفكار والطروحات والمناقشات، إلى أن تطوّر وضع المنافقين

إلى حد الدخول في التآمر والاصطفاف مع الأعداء الخارجين الذين كانوا يقاتلون المسلمين ؛ عندئذٍ جاء التهديد لهم بالنفي أو القتل كما هو الحال في سورة الأحزاب بعد الأحداث التي شهدها المسلمون { **لئن لم ينتهِ المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنُغرينّك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً * ملعونون أينما ثُقفوا أُخذوا وقُتّلوا تقتيلا** }[٧٢] .

هذا فضلاً عن الآراء و وجهات النظر المختلفة التي كانت تصدر عن بقية المسلمين الصالحين، والتي كان يعالجها القرآن الكريم بطريقة أو بأخرى، سواء كانت على المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الفكري او العقائدي ؛ حيث كان القرآن الكريم والنبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلّم هو الملجأ لحلّ هذه الاختلافات والاجتهادات { **واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم ولكنّ الله حبّب لكم الإيمان و زيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون** }[٧٣] ؛ حيث جاءت هذه الآية في سياق قوله تعالى

٧٢ــ سورة الأحزاب : ٦٠ ، ٦١

٧٣ــ سورة الحجرات : ٧

{ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيَّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين }[٧٤] ...

ولكنّ المسلمين اختلفوا فى فهم القرآن الكريم وآياته وإن اتفقوا على ثبوت نصه، كما اختلفوا فى فهم السُّنَّة النبوية الشريفة وفى إثبات نصوصها، وكان للفاصل الزمنى والظروف السياسية والاجتماعية والأوضاع النفسية والأخلاقية والثقافية للأمم التى دخلت الإسلام تأثيرات مختلفة أو متباينة فى هذا الفهم والاختلاف، بالإضافة إلى الأهواء والمصالح والجهل، والتى كان لها آثار سيئة وحادّة فى نتائج هذا الاختلاف، وتَعَدُّد الاجتهادات والتفسيرات والفهم لهذه النصوص المقدسة... انتهى .

من جديد نعيد فتْح صفحة الماضى ليس لإحياء الفتنة أو الحديث عنها ، بل من أجل وحدة المسلمين مع وجود هامش اختلاف واقعىّ يجدر بعلماء الأمة أخْذه فى الاعتبار عند إعادة قراءة التاريخ ؛ حتى يتسنى الخروج من القراءة المتأنية إلى حد أعلى للوفاق الإسلامى مع ترك هامش الاختلاف الذى لو وُجِد من قبْل لما حدث صراع وقتْل بين أتباع المذاهب الإسلامية :

٧٤ـ سورة الحجرات : ٦

كالذى حدث بين الحنابلة والشافعية بسبب (قنوت الفجر)، أو بين الشيعة والسُّنَّة فى كثير من مراحل التاريخ الإسلامى .

والأهمّ إعادة الاعتبار لكل المدارس الفقهية، دون التحيز الأعمى وتكفير المخالف فى الرأى وليس فى المدرسة وحدها، واعتبار أنه خطأ يحتمل الصواب ، وهذا يمكّن من جبْر هذا الاختلاف .

وفى سيرة الإمام علىّ ما يؤكد كل المعانى التى قلناها، والتى سنراها فى السطور المقبلة .

ذوو القربى

فضائل الصحابة الكرام كثيرة ومتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ، لا ينكرها إلا جاحد ، وقد أشار القرآن الكريم لمثل هذه الفضائل الكثيرة للصحابة مجملةً أو مفصّلة ...

فقد **{ رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة }**[٧٥] وإن **{ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود}**[٧٦] .

٧٥ــ سورة الفتح : ١٨

٧٦ــ سورة الفتح : ٢٩

وكثيرة هي الآيات الواردة في أريحية الصحابة وكرم نفوسهم وإيثارهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وكم كانت بهم خصاصة ...

ولكن الإمام عليّ وحده من بينهم الذي أوصى النّبيّ الكريم به وأشار إلى فضائله ، بل إنّه أوصى بأهل بيته جميعاً وذكر لهم من الخصائص النبيلة التي لم تتوفر لغيرهم من الصحابة المهاجرين منهم والأنصار ، بل إنّ القرآن الكريم نصّ على أولي قربى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم **{ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى }**[٧٧] ، **{ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا }**[٧٨] ، **{ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميد مجيد }**[٧٩] .

ولم يحدث أنْ أوصى نبيّ قومه بالإحسان لأهل بيته مثلما أوصى نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلّم ...

فهل كانت تلك الوصاية بأهل البيت وبعليّ خاصّةً من قبيل الإحسان لهم والبرّ بهم فقط ؟

٧٧ــ سورة الشورى : ٢٣

٧٨ــ سورة الأحزاب : ٣٣

٧٩ــ سورة هود : ٧٣

وهل كان النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم يدرك أنّ الأمة في المُلْك العضوض سوف تسبّ علياً وقد قال صلى الله عليه وآله وسلّم **{ مَن سبّ عليّاً فقد سبّني }**[٨٠] ؟

هل كانت أحاديث النّبيّ المتواترة عن أهل بيته والتي يشبههم فيها بسفينة نوح ، وبباب حطة ، وبأنهم حبل الله المتين ، وبأنه ترك في الأمة ما إنْ تمسّكوا بهما لن يضلوا بعده أبداً : كتاب الله وعترته أهل بيته ، ولماذا جمع النّبيّ الأمة عند غدير خم ليَرفع يد عليّ ويقول **{ ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم }** فيجيب الصحابة الكرام : " بلى يا رسول الله " فيقول لهم **{ مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه ... اللهم والِ مَن والاه ، وعادِ مَن عاداه }**[٨١] ، وفي رواية **{ وانصر مَن نصره ، واخذل مَن خذله }** ...

ويقول لأحد الصحابة **{ لا تقعنّ في عليّ ؛ فإنّ عليّاً منى ، وأنا منه ، وهذا وليكم بعدى }**[٨٢] كما رواه الإمام أحمد .

٨٠ــ مسند أحمد ٥/٣٥٦

٨١ــ أخرجه الطبراني في الكبير ٤/٢٠ وابن حجر في الإصابة ٢/٥٣٥

٨٢ــ مستدرك الحاكم ٣/٣١

« علىّ مع القرآن، والقرآن مع علىّ ؛ لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض »[٨٣].

ويسأل النّبىّ ربّه أن يجعل أذن علىّ هى الأذن الواعية ؛ لتعى كلّ شىء وتحفظ كلّ شىء تسمعه .

ثمّ إن النّبىّ صلى الله عليه وآله وسلّم قال له فى بداية الدعوة الدينية **« أنت أخى وصاحبى ووارثى ووزيرى »**[٨٤] كما أورد الإمام أحمد فى مسنده وكما رواه ابن كثير فى " البداية والنهاية " .

وسوف نورد كلّ هذه الأحاديث الكريمة والآيات القرآنية الشريفة بالتفصيل عن علىّ وأهل البيت فيما بعد .

حقيقة فضل الإمام

ولكن ... هل كان النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول هذه الأحاديث فقط لكى تعرف الأمّة فضل ابن عمه الشاب ؟!

و إنْ كان الأمر كذلك فلماذا وصف أهل بيته بما ذكرناه انفاً ؟!

٨٣ـ مسند أحمد ٥/٣٤٧

فقط لكى تعى الأمّة أفضلية أهل البيت وكفى ؟! وهل جمع كلّ الصحابة عند الغدير لكى يُعلمهم بأنّ ابن عمه وليه من بعده ومنصور من نصره مخذول من خذله؟

هل كان ذلك حبّاً جارفاً يكمن فى أغوار النّفس الإنسانية للأهل والعشيرة ؟ والنّبىّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم بعثه الله ليميت العصبية ولِيئد العنصرية ، وأنّه لا فرق لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى والعمل الصالح ، فالنّبىّ أبعد الناس عن تفضيل أهل بيته بناءً على حبه الشخصى لهم ...

الأمر أكبر من ذلك بكثير؛ فموالاة أهل البيت جاءت بناءً على تزكية القرآن الكريم لهم .

وليس كلّ أهل البيت المعنيين بالشرف الكريم ؛ وإلا لَمَا أدخل الله أبا لهب النار ولعنه فى سورة يتعبد بها المؤمنون إلى يوم القيامة ، كما أنّه ليس كلّ الهاشميين بذوى القربى الذين ذكرهم القرآن الكريم ؛ فالأمر اقتصر على علىّ ونسله من الزهراء البتول ، هم القربى الذين لا يريد النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إلا المودة لهم ، وهم ذريته من الزهراء من صلب علىّ .

* عن جابر أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم قال { **أنا مدينة العلم ، وعليّ بابها ، فمن أراد العلم فليأت الباب** }[٨٥] .

فالعلم يشمل كلّ العلوم التى تلقّاها النّبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم عن ربه ، فإذا كان هذا العلم مدينةً من أراد دخولها فلا يجب أنْ يتسلق أسوارها أو أنْ يأخذ من أوسطها أو حيثما اتفق ، ولكن عليه بالباب ، وعليّ هو الباب الذى يأخذ بيد من يريد العلم الدينى والدنيوى ويهديه لأوائل العلم ، فيعلّمه المحكم والمتشابه ، الناسخ والمنسوخ ؛ حتى يصبح من الراسخين فى العلم الذين يقولون : آمنّا به كلٌّ من عند ربنا .

وعليّ منذ أنْ طلب النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم من ربه أنْ يكون الأذن الواعية فإنّه أضحى أعلم الصحابة بكتاب الله ، بكل آية أين نزلت : فى سهل أم جبل ، فى المدينة أو فى مكة ، وما هو مدلولها ، وخصوصية نزولها ، وعموم لفظها ، حتى إنّه شرح هذه الآيات جميعها وأهداه للزهراء ، وقالوا عنه بأنّه "مصحف فاطمة" ، وتناول

٨٥ــ أخرجه الحاكم فى المستدرك ١٢٧/٣ وابن حجر فى اللسان ١٢٢/٢ والهيثمى فى مجمع الزوائد ١١٤/٩ والطبرانى فى المعجم الكبير ٦٥/١١ ، ٦٦

فحثّ النّبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم للصحابة على موالاة عليّ و التمسك بأهل بيته وإقرانه لهم مع القرآن الكريم ، يجعلنا نبادر القول بأنّ الموالاة ليست الحب وحده ، بل السعى وراءهم وأخذ العلم منهم و الفقه أيضا .

فليس الأمر إلا مثل الأنبياء من قبل ، والنّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يكن بدعاً من الرسل كما قال القرآن الكريم ، فالأنبياء جميعاً كان الخلفاء من نسلهم ؛ فيحيى ورث زكريا ، وسليمان ورث داود ، وإسحاق وإسماعيل ورثا إبراهيم ، ويعقوب ورث إسحاق ، وذرية يعقوب أورثهم الله العلم والحكمة وجعلهم الأسباط ...

ولذلك فإنّ ذرية نبينا الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم أولى بالموالاة وأحرى بالأخذ منهم والالتفاف من حولهم .

وليس كون عليّ وليّ كلّ مؤمن بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنْ يكون أخذ العلم عنه وحده ، بل من كلّ صحابة النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ولكنه المقدّم عليهم بنصوص الأحاديث النبوية المستفيضة فى الولاية له ولنسله من بعده .

ولنذكر بعض تلك الأحاديث النبوية الشريفة :

خصوم أهل البيت هذا المصحف بالادعاء عليه بأنّه قرآن زعم شيعة أهل البيت بأنّه غير المصحف الذى يقرأه المسلمون!

ولكنّ هذا لم يحدث؛ حيث تشير الشواهد إلى أن مصحف فاطمه ليس بتفسير للقرآن، بل يتضمن الأحاديث التى أملتها فاطمه و كتبها الإمام. و بهذا فهو يختلف عن (كتاب علىّ) الذى يتضمن شأن نزول الآيات و تفسير بعضها، و بعض الأحكام و الحوادث.

• وفى حديث آخر يقتفى أثر سابقه عن أم سلمة **{ علىّ مع القرآن ، والقرآن مع علىّ ؛ لن يتفرقا حتى يردا علىّ الحوض }**[٨٦] ...

فلا يوجد غير معنى واحد ، هو : أنّ النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم شرح حديثه **{ باب مدينة العلم }** بحديث **{ علىّ مع القرآن }** وأنهما لن يفترقا حتى يردا على حوض الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم .

ونعتقد أنّ علياً لم يفترق عن القرآن : فى غزوات النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ومع الزهراء فى بيته ، ومع

٨٦ــ أخرجه الحاكم فى المستدرك ٣١/٣ والطبرانى فى الأوسط ٦٠٣/١١ والهيثمى فى الزوائد ١٣٤/٩

الصحابة فى عهد النُّبوّة ، ومع الخلفاء الراشدين ، ومع الخوارج ، ومع معاوية ؛ ظل يدافع عن القرآن بالقرآن ، وقال عليه السلام : اللهم إنّهم منعونى أنْ أحكم بما فيه ، فأعطنى خير ما فيه .

ويشرح لأصحابه أحواله مع معارضيه أثناء الفتنة[٨٧] : عباد الله ... امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم ؛ فإنّ معاوية وعمرو وابن أبى معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبى سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، أنا أعرف بهم منكم ، قد صَحِبْتُهم أطفالاً وصَحِبْتهم رجالاً ، فكانوا شر أطفال وشر رجال ...

ويْحكم ! إنّهم ما رفعوها (أى المصاحف) ثُمّ لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعةً ودهناً ومكيدة .

فقالوا له : ما يسعنا أنْ نُدْعى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أنْ نَقبله.

فقال لهم : فإنى إنّما قاتلتهم ليدينوا بحُكْم هذا الكتاب ؛ فإنهم قد عصوا الله عز وجل ونسوا عهده ونبذوا كتابه ... تاريخ الطبرى .

٨٧ــ علىّ إمام المتقين (مرجع سابق) ١٦٩/٢

فقد ظل الإمام يتخذ سبيل المؤمنين المخلصين لدينهم ، لا يداهنون فيه ، ويرتقون بما فيه إلى أسمى المراحل والوسائل ، يعترض على من يسب أهل الشام كما يسبّونهم .

ويعترف الإمام بأنّه قاتل القوم على تأويل القرآن كما قاتلهم من قبل على تنزيله ، وكم أوّل هؤلاء آيات القرآن بما يخدم أهدافهم ...

أوّل معاوية الاية الكريمة **{ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا }**[٨٨] واعتقد أنّه الولى وأنّ له سلطاناً ليس على القتلة فقط ، بل على كُلّ المسلمين فيتأول أنّ السلطان جاءه لأنّه ولى الخليفة الذى قُتل ظلماً ...

واعتبره أنصاره مجتهداً له أجر واحد إنْ أخطأ ، فهو أخطأ وله أجر واحد ! ومع هذا الخطأ اعتبروا ولايته سلطاناً ، بل زعموا أحاديث نبوية نسبوها إلى الرسول الكريم تبشّر بدولته ، تماماً مثلما ادعى العباسيون من بعْد أنهم بشّروا بأنّ الخلافة ستؤول إليهم ، و وضعوا من الأحاديث التى تؤيد مزاعمهم .

وتأول آخرون آيات من القرآن تؤيد الملك ولو كان عضوضاً ، وأنّ النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بشّر بهذا

٨٨ــ سورة الإسراء : ٣٣

الملك العضوض ، أى أنّه لا بد منه وأنّ حرب الإمام خاسرة لهذا السبب ، لا لأنّ الدنيا التى أقبلت اشترى بها الأمويون دين علىّ بدنيا معاوية .

ولكن الإمام ظل مع القرآن : يأخذ به ، ويردّ به على معارضيه .

* والرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول[٨٩] **{ علىّ باب علمى ومبين لأمتى ما أُرسلتُ به بعدى ، حبه إيمان ، و بغضه نفاق ، والنظر إليه رأفة }** وفى زيادة **{ ومودته عبادة }** ... أخرجه الديلمى عن أبى ذر الغفارى ...

وكم بيّن الإمام للأمة ما جاء به النّبىّ بَعْد موته صلّى الله عليه وآله وسلّم كأنه الإمام المبين الذى حفظه الله كُلّ شىء فيه ، ولذلك فلا عجب أنْ يكون بغضه نفاقاً ، وحبه من كوامل الإيمان ، ومودته عبادة ، بل والنظر إلى وجهه عبادة ؛ فقد كان أبوبكر يطيل النظر إلى وجهه ، و أجاب أم المؤمنين

٨٩ــ مسند الفردوس للديلمى ٣١٦/٢

عائشة عن سبب إطالة النظر إلى وجهه بأنّه سمع الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول { **النظر إلى وجه عليّ عبادة** }[٩٠] .

فإنْ كان هذا هو أمر عليّ ، أليس موالاتــه والأخــذ منــه مباشرة هو أقصر الطرق لفهم الدين الحنيف ؟

والرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول { **عليّ منى ، وأنــا من عليّ ، وعليّ ولى كُلّ مؤمن بعدى** }[٩١] ، وفــى روايــة البخارى { **أنت منى ، وأنا منك** }[٩٢] .

فإذا كان عليّ باب مدينة العلم ، وأنّه مــع القــرآن ، وأنّ القرآن معه ، وأنّهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض ، وأنّه مبين للأمة ما أُرسل به الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بــه بعده ، وانّ حبه إيمان وبغضه نفاق ؛ ألا يكون من الرســول والرسول منه ؟ وألا يحق له دون وصاية أنْ يكون ولــى كُــلّ مؤمن بعده ؟ أليس هذا هو الفهم الصحيح ؟

ولنقرأ أحاديث أخرى تؤيد هذه النظرة:

٩٠ــ أخرجه الإمام أحمد في المناقب والترمذى في سننه ٣١٧/٢ والمحب الطبرى في الرياض النضرة /٥٩٨

٩١ــ أخرجه الديلمى في مسند الفردوس ٣١٧/٢ وابن أبى شيبة عن عمران بن حصين .

٩٢ــ صحيح البخارى ٨ / ٢٩٢

* فى حديث رواه الإمام أحمد عن زيد بن أرقم أنّ رســول الله صلّى الله عليه و آله وسلّم قال { **سدّوا هــذه الأبــواب إلا بــاب عليّ** }[٩٣] ، فتكلّم فى ذلك أناس ، فقام صلّى الله عليه وآله وسلّم فحمد الله وأثنى عليه ثُمّ قال { **أمّا بَعْد .. فإنى أُمِرْتُ بسدّ هــذه الأبواب غيْر باب عليّ ، فقال فيه قائلكم ، والله ما ســددتُه ولا فتحتُه ، ولكنى أُمِرتُ بشيء فاتّبعتُه** }[٩٤] .

* وفى مسند الإمام أحمد ــ أيضاً ــ عن ابن عباس رضى الله عنهما أنّه قال : وسُدّت أبواب المسجد غيْر باب عليّ ، فكان يدخل المسجد وهو جُنُب ، وهو طريقه ليس له طريق غيْره .

وأحاديث أخرى لنفس المعنى ، تؤكد أنّ النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم أمره الله بسد أبواب المسجد إلا باب الإمــام عليّ ، و وجد بعض الناس فى نفوسهم ، وقال لهم النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم { **ما أنا أمرتُ بإخراجكم ولا بإسكان هــذا الغلام ؛ إنّ الله هو أمر به** }[٩٥] .

لماذا ؟ لماذا ؟

٩٣ــ رواه الإمام أحمد فى مسنده ٣٦٩/٤

٩٤ــ رواه الإمام أحمد فى مسنده ٣٦٩/٤ وابن عساكر فى تاريخه ١٤٧/١٢

٩٥ــ رواه ابن عساكر فى تاريخه والنسائى فى سننه وابن كثير فى البداية والنهاية .

إنّها لم تكن من ضمن المحبة التي شمل بها النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عليّاً وغيره من الصحابة الأجلاء الكبار جميعاً وخاصة المهاجرين الأولين السابقين إلى الدعوة ؛ وإلا ما كان النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ليغضبهم بتفضيل الغلام عليّ في هذا ، وإنّما هو أمر إلهيّ جاء إلى النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم فنفّذه ...

فلماذا إذن ؟ : هل هي وصاية ضمنية ؟ أم أفضلية دينية ؟

وإنْ كان أفضليّة دينيّة : فلماذا قاومها الأمويون واستبدّوا بالأمر دونه وجرعوه الغيظ ؟!

وإنْ كانت الوصاية : فلماذا نازعه الصحابة الكرام هذه الوصاية ؟!

وهي أسئلة سنجيب عليها بعد قليل ، وسنرى أنّ الأمر أكبر من ذلك ؛ فالرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول له قبيل سفره في غزوة تبوك **{ أما ترضى أنْ تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا النُّبوّة }**[٩٦] ، وكان عليّ قد وجد في نفسه لأنّ النّبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم تركه في المدينة و لم

٩٦ــ الحديث متواتر من طرق عدة: مسند أحمد ١/١٨٤، ٧/٣٤٣ و ابن سعد في الطبقات .

يأخذه معه في غزوة العسرة ، فقال له صلّى الله عليه وآله وسلّم هذا الكلام ، و قال له أيضا **{ أنت منى بمنزلة هارون من موسى }**[٩٧] ...

ويوجد هذا الحديث في معظم كتب التاريخ : في " أسد الغابة " و" تاريخ الأمم والملوك " وفي " الكامل " و" البداية والنهاية " و" السيرة النبوية " لابن هشام ، أي أنّ هذا الحديث بألفاظه المختلفة قد تواتر .

والأمر ليس تطييباً لخاطر الإمام ، وليس من قبيل البديل مثلما كان الأمر مع ابن أم مكتوم رضي الله عنه وقد ولاّه النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم المدينة مرات عند خروجه للغزوات ؛ لأنّ الأمر لو كان جبراً للخاطر لقال له كلاماً غير كلام المنزلة بين موسى وهارون عليهما السلام ، وعليّ أول مَن يسكن لقول النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ثُمّ إنّ غزوة تبوك آخر غزوات النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وكانت مواجهة مع الروم القوة الأولى في العالم آنذاك ، وكانت الموقعة المنتظرة تحتاج الإمام وسيفه كما فعل في كلّ غزوات النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم...

٩٧ــ المصدر نفسه

ولكن ... لأنها كانت الأخيرة ، ولأن النَّبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أراد شيئاً من بقاء عليّ فى المدينة ؛ فإنَّه قال له **{ أنت منى بمنزلة هارون من موسى }**[٩٨] ، والمعروف أنّ نسل الأنبياء لبنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام كان من نسل هارون دون موسى، ولأن النُّبوّة خُتمت بسيد الرسل جميعا فظلّ كلّ شىء باقياً ما عدا النُّبوّة...

فإذا كان الأنبياء من نسل هارون فالأئمة يجب أن يكونوا من نسل عليّ .

و كما قال موسى لأخيه هارون **{ اخلفنى فى قومى و أصلح }**[٩٩] فإنّ علياً عليه أن يخلف النَّبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وأن يُصلح وأن يتبع سبيل المؤمنين .

ولذلك ... عندما نزلت براءة ، أرسل علياً بها إلى أهل مكة ليقرأها على الناس هناك ، وقال صلَّى الله عليه وآله وسلَّم **{ إنّه لا يؤدى عنى إلا أنا أو رجل منى }**[١٠٠] .

٩٨ــ المصدر نفسه

٩٩ــ سورة الأعراف : ١٤٢

١٠٠ــ رواه أحمد ٢١٢/٣ والترمذى ٣٣٩/٤ والطبرانى فى الأوسط .

و يقول صلَّى الله عليه و آله و سلَّم لبريدة **{ لا تقعنّ يا بريدة فى علىّ ؛ فإنّ علياً منى ، و أنا منه ، و هذا وليكم بعدى }**[١٠١] .

وعن عليّ قال : وجعتْ وجعاً شديداً ، فأتيتُ النَّبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فأقامنى فى مكانه وقام يصلّى ، وألقى علىّ طرف ثوبه ثُمّ قال **{ قم يا علىّ ؛ قد برئتَ لا بأس عليك ، وما دعوتُ لنفسى بشىء إلا دعوتُ لك مثله ، وما دعوتُ بشىء إلا قد استجيب لى (أو قال : أعطيت) إلا أنّه قيل لى : لا نبىّ بعدك }**[١٠٢] .

فلماذا علىّ دون غيره الذى اختصه الله ورسوله بهذا الفضل كلّه ؟

وإذا كان التفضيل لأنّه ابن عم النَّبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وأنّه أكثر من لقى المشركين وقاتلهم وقتلهم فلماذا امتد التفضيل إلى نسله من بعده نسله من الزهراء بنت النَّبيّ الكريم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ؟

١٠١ــ رواه أحمد ٣٥/٥ والبخارى فى الفضائل .

١٠٢ــ رواه الطبرانى فى الأوسط ٣٠١/٢

يقول النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم { **النجوم أمان لأهل السماء؛ فإذا ذهبت النجوم ذهب أهل السماء، وأهل بيتى أمان لأهل الأرض ؛ فإذا ذهب أهل بيتى ذهب أهل الأرض** }[١٠٣] .

و يقول صلّى الله عليه وآله وسلّم أيضا { **مثل أهل بيتى كسفينة نوح ؛ من ركب فيها نجا ، ومن تعلّق بها فاز ، ومن تخلّف عنها زجّ فى النار** }[١٠٤] .

ويقول صلّى الله عليه وآله وسلّم[١٠٥] { **من مات على حب آل محمد مات مستكمل الإيمان ، ألا ومن مات على حب آل محمد يزفّ إلى الجنة كما تزفّ العروس إلى بيت زوْجها ، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح الله فى قبره باباً إلى الجنة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السُّنّة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً ، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشمّ رائحة الجنة** } .

١٠٣ــ رواه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول والطبرانى عن سلمة بن الأكوع .

١٠٤ــ رواه الطبرانى فى الأوسط .

١٠٥ــ علىّ أبو الخير : فى رحاب كربلاء /مركز يافة للدراسات / ٢٠٠١/ ١١٠.

ويقول صلّى الله عليه وآله وسلّم{ **اجعلوا أهل بيتى منكم مكان الرأس من الجسد ، ومكان العينين من الرأس ، ولا تهتدى الرأس إلا بالعينين** }[١٠٦].

ويقول صلّى الله عليه وآله وسلّم { **إنى تارك فيكم ما إنْ تمسّكتم بهما لن تضلوا بعدى ، أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله عز وجل ؛ حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتى أهل بيتى ، ولن يفترقا حتى يَرِدَا علىّ الحوض ، فانظروا كيف تلحقون بى فيهما** }[١٠٧] .

ثُمّ يغطى صلّى الله عليه وآله وسلّم الزهراء وعليّاً والحسن والحسين بردائه الشريف ويدْعو { **اللهم هؤلاء أهل بيتى ، فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا** }[١٠٨] ، وذلك عندما نزلت الآية الكريمة { **إنّما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** }[١٠٩] .

١٠٦ــ أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس ٨١/١

١٠٧ــ الحديث مشهور ومتواتر ، رواه مسلم وأحمد والطبرانى بروايات متعددة وشهيرة .

١٠٨ــ رواه الترمذى فى سننه /٢٠٦

١٠٩ــ سورة الأحزاب : ٣٣

ثمّ يشرح النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ذلك بقوله **{ خُلق الناس من أشجار شتى ، وخُلقتُ أنا وعليّ بن أبي طالب من شجرة واحدة، أنا أصلها وفاطمة فرّعها، فمن تعلّق بغصن من أغصانها ساقه إلى الجنة، و من تركها هوى إلى النار }**[١١٠] .

حقيقة المودة

لماذا كُلّ هذا الحرص من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على التأكيد على أحقية أهل بيته بموالاة المؤمنين لهم والأخذ عنهم ؟ وهل هناك علاقة بيّن كُلّ ذلك وبيّن الآية الكريمة **{ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى }**[١١١] ؟ هل هناك علاقة بيّن كُلّ أحاديث النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عن عليّ والزهراء والحسن والحسين وذريتهما وبيّن الآية الكريمة ؟

والعلاقة التي أجدها هي : أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يدرك جيّداً أنّ بعض أبناء الأُمّة قد يجدون في أنفسهم شيئاً من هذا الحرص النبوي على تأكيد سيادة أهل البيت ،

١١٠ــ أخرجه الديلمي في مسند الفردوس ٧٧/١

١١١ــ سورة الشورى : ٢٣

فنزلت الآية الكريمة التي تنص على أنّ الأجر الذي يرضاه الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم هو المودة في أهل بيته .

ومن عجائب الزمان التالي لعصر النُبوّة والخلافة الراشدة من يُؤوّل هذه الآية إلى أنّ المودة في القربى لخليفة المسلمين ؛ أي رجل سمّى نفسه " خليفة " وقال عن نفسه " أمير المؤمنين " فإنّ المودة واجبة لذوي قرباه ، وعمل هؤلاء الحكام المستبدون على إجبار المسلمين على مودة قرباهم ، بل هم جعلوا هؤلاء الأقارب فوق رقاب الجميع ... هل نذكر أمثلة من المروانيين الذين سمّوا عمر بن عبد العزيز لأنّه ساوى بيّن أهل بيته وباقي البيت المرواني ؟ أم من العباسيين الذين قتلوا الكاظم والرضا وأبا حنيفة وعذّبوا مالكاً وابن حنبل وغيرهم من علماء الأُمّة وجعلوا من البيت العباسي قربى الخليفة المقصودين من الآية الكريمة ؟ وسار على نهجهم ولاتهم في الأمصار ؛ فأصبح كُلّ والٍ يحابي أقرباءه ويضعهم فوق رءوس المؤمنين الموحدين .الأمر ضاع وأصبح كُلّ مَن تسمّى باسم " الخليفة " يشترى الفتوى من فقهاء الدنيا فيعطونه ، فيوسع عليهم في الرزق ، فيتباهون بما آثرهم الحاكم من فضله ، ولا يجدون غضاضة في ذلك !

النبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم يقرن أهل بيته بكتاب الله عز وجل ويطلب من المؤمنين الالتزام بنهجهم ؛ لأنهم والكتاب لن يفترقا حتى يردا على الحوض ...

كما أنّ علياً لن يفترق عن القرآن حتى يردا على الحوض .

وأنّ أهل البيت مثل سفينة نوح ، وسفينة نوح لم تحمل سوى المؤمنين، وغيرهم من الكفار أخذهم الطوفان وأغرقهم، ولم يذر الله على الأرض منهم أحداً .

وهم مثل : باب حطة ؛ من دخله غفر الله له ذنبه .

وهم مثل العينين من الرأس ؛ لا فائدة من الرأس إلا بهما ...

وهو المعنى نفسه في الحديث الشريف بأنّ أهل بيت النبيّ خلقوا من شجرة واحدة ، من تعلّق بأي غصن فيها (أي غصن كناية عن إمام منهم) أدخله الله الجنة .

وهو المعنى نفسه في أنّ أهل بيت النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أمان لأهل الأرض مثلما النجوم أمان لأهل السماء .

الأمل إذن معقود عليهم دون غيرهم من الأئمة ، والأمة تغرق إذا لم تتمسك بهم ؛ التمسك الذي نراه هو الأخذ عنهم بنصوص القرآن ، والأخذ عنهم في القضايا الفقهية التي ورثوها جيلاً عن جيل ، وإماماً عن إمام حتى بلغت لعليّ الذي

رواها وأخذها من الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم، صاحب الرسالة التي تلقّاها عن ربه عزوجل .

أخذ المسلمون عن الإمام عليّ فتاواه وحلوله للقضايا المستعصية : أخذ عنه أبو بكر وعمر ، ولكنّ عثمان لم يأخذ عنه فحدثت الفتنة .

و قُتل الإمام عليّ، وسُمّ الحسن، و قُتل الحسين، وأبعد السجّاد ، فابتعدت الأُمّة كثيراً عن تعاليم الإسلام الحنيف .

والنبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم جاء بالإسلام عن ربه لكي يُعبَد الله في الأرض وحده لا شريك له ، وقد ترك النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم صحابته يعبدون الله في الأرض ويوحدونه ولا يشركون به شيئاً ، فكلّ المسلمين ــ على اختلاف مذاهبهم ــ حتى الآن يعتقدون اعتقاداً يقينياً أنّ الله أحد صمد لم يلد ولم يولَد ولم يكن له كفواً أحد ، وكلّ المسلمين ــ على اختلاف مذاهبهم ــ يؤمنون بأنّ الله حقّ ، وأنّ الجنة حقّ ، والنار حقّ ، والغيب حقّ ، والملائكة حقّ ، والرسل حقّ ، ومحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم آخر الأنبياء والمرسلين حقّ ، لا يشكّون في ذلك ، بل يفخرون بهذه العقيدة السمحة .

والوحدانية هي دعوة كل الرسل والأنبياء جميعاً للبشر: **{ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره }** [١١٢].

والوحدانية تجعل الإنسان حراً في حياته ، فلا عبودية لأحد سوى الله عزوجل .

ولكن ... مع دعوة التوحيد التي ختم الله بها الإسلام فرض الله الصلاة والزكاة والصيام والحج كأركان للإسلام و دعائم له ، من نقض إحداها عن اقتناع فقد خرج من دين الله ، ولا يوجد مسلم يشك في أركان الإسلام تلك ويرى غيرها بديلاً عنها ، بل يعلمها الجميع كمعلوم من الدين بالضرورة ، فليس الاعتقاد القلبي بأن الله واحد أحد يكفي ليكون الإنسان مسلماً ، بل بالالتزام بالأركان التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه عزوجل .

إلى جانب هذه الأركان هناك أمور لا يجد الإنسان مندوحة عنها، مثل: العدل والمساواة والأخوة والحرية، و كلها من قبيل تكليف الإنسان عن حرية اختيار ...

١١٢ــ سورة الأعراف ٦٥

ولإقامة العدل والمساواة لا بد من وجود قيادة تلتزم بهذا العدل و تلك المساواة، القيادة بَعْد النُبوّة هي التي نتحدث عنها على اختلاف فهمهما لكل مذهب .

ثم آلت الخلافة لعثمان ذي النورين الذي فرض على نفسه الالتزام بشرع الله ، ولكنه تهاون مع أقربائه الذين استغلّوا حبه لذوي قرباه ، فاستبدّوا بالأمر وتكبّروا على المسلمين ، واعتبروا الخلافة ملكاً لهم فحرصوا عليه ، وحدثت الفتنة التي صدعت وحدة الأمّة حتى الآن .

الاستبداد يضيّع معالم الدين

وعندما آلت الخلافة للإمام عليّ كانت الفتنة قد توسعت والدنيا قد أقبلت ، والحريصون على الدنيا قاتلوه وصارعوه ، ولم يتركوا له فرصة لكي يعيد الخلافة الراشدة لكي تظلل كُلّ ربوع أراضي الأمّة ، وجرعوه الغيظ ، ومات شهيداً ، ولكنه في مدة خلافته القصيرة وعلى الأرض التي كان يحكمها فإنّه أقام شرع الله ونشر العدل ، ولم يميّز نفسه ، بل أخذها بالزهد والتقشف ، وأعطى نموذجاً للخليفة العادل الراشد الذي ضحّى بنفسه في سبيل المبادئ .

وبعد أن آل الأمر للبيت الأموى ابتعد حكّام المسلمين عن شرع الله ، فأصبحت الأُمّة طبقات تتمايز عن بعضها : طبقة الحكّام وبطانتهم وأقربائهم ثُمّ الولاة وأُسرهم ، ثُمّ العرب دون العجم ، ثُمّ باقى المسلمين الذى يقام على أكتافهم وسيوفهم فتح البلاد لنشر الدين الحنيف ...

طبقة الحكّام خشوا من الشورى وحرية الاختيار للمسلمين فى اختيار خليفتهم ، فأخذوا المعارضين بالقسوة والقتل والتشريد والملاحقة والتجويع ، ولأنّ كُلّ المعارضين لاذوا بسفينة نوح ، أو أهل بيت النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كانت الملاحقة لهم أشدّ ، والنكاية فيهم أفظع ، فأخذوا فى كُلّ سهل وجبل ، وأخذوا كُلّ من يوالونهم على الشبهة والمظنة ، حتى كان يقال "كافر" أو "زنديق" خير من أنْ يقال "من شيعة علىّ وولده" ، وأصبح الحُكم فى الإسلام يقوم على الاستبداد المطلق طوال ألف عام من الزمان .

ولذلك ... فإنّ الإسلام لم ينتشر إلا بقوة الدفع الروحى خلال الدولة الأموية ؛ الدفع الروحى لجيل الصحابة والتابعين ، فى فترة محدودة انتشر الإسلام ثُمّ توقّف ولم ينتشر بعدها إلا فى أراضٍ قليلة لم يكن للحُكم فيها دور بل كان من خلال التجار المسلمين الذين كانوا يذهبون فى الأرض يمشون فى مناكبها

فتتبعهم شعوب ، فأسلمت كما حدث فى وسط إفريقيا وإندونيسيا وأقاصى الواق واق (الفلبين) .

فلنعُدْ من حيث بدأنا، ولنتخيل الأمر دون حرج ... لو كانت الخلافة آلت من أول يوم بعْد وفاة النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى الإمام علىّ ؛ بناءً على ترشيح النّبىّ له كثيراً كما رأينا فى الأحاديث السابقة عن أحقية علىّ وأهل البيت فى الولاية ، ولم نقل "الوصية" حتى الآن ...

ماذا كان سيحدث لو تمسّك المسلمون بالثقل الآخر وهو أهل بيت النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ؟ مع إجلالنا وإكبارنا لصحابة النّبىّ الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ؛ فإنّ علياً لو آلت إليه الخلافة لحدثت الوحدة للمسلمين ؛ ذلك أنّ أحاديث النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم رشّحته أكثر من غيْره للخلافة ؛ فهو يعسوب الدين ويعسوب المؤمنين أو أمير المؤمنين ...

ومن المؤكّد أنّ خلافته لن تكون فلتة؛ فمعظم الأنصار وجموع المهاجرين يرون فيه سيرة نبيّهم ، وهو أكثر الناس معرفة بالقرآن والسُنّة ، وهو عيبة علْم النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وباب مدينة علْمه الشريف ، والتمسك بولايته تمسّك بحديث الثقلين ، والمسلمون جميعاً يعون هذه الحقيقة .

وخلافة علىّ ستوحّد المسلمين ليس على شخصه فقط ، بل على الخلافة من بعده ؛ فعندما يعرف كلّ المسلمين أنّ الأمر من بعده للحسن ثمّ للحسين ستكفّ ــ لا شكّ ــ الأعناق المشرئبة للحكم فى الحلم بالخلافة أو الثورة عليها ، وإنْ حدثت مثل هذه الثورة فلا شكّ أنّ جمهور المسلمين ستتوحد لقمع هذه الثورة ، بل لا نبالغ إذا قلنا : إنّ الإسلام كان سينتشر أسرع وقد يشمل كلّ أرجاء المعمورة المعروفة آنذاك ؛ فلن يكون هناك ولاة مثل عبد الله بن أبى السرح أو الوليد بن عقبة أو الحجّاج الثقفى أو زياد أو عبيد الله أو عبد الله بن عامر أو حتى معاوية ومروان ، لن يكون أمثالهم من الذين حوّلوا الإسلام إلى دين جباية لا دين هداية ...

بل لا نبالغ ــ أيضاً ــ إذا قلنا : إنّ خلافة الإمام ونسله من بعده ستوحّد الأمّة مذهبياً ، وهذا التوحد ليس من باب فرض التشيع ؛ فالتشيع كاسم أُطلق فيما بعد ، ولكننا نعنى أنّ تفسيره للقرآن الكريم سيكون بالتأكيد التفسير المعتمد لكل الفقهاء والقضاة الذين يتولون شئون المسلمين، فلن نجد المرجئة والمعتزلة والخوارج والشيعة والسنّة وغيرها من فرق المسلمين ؛ ذلك أنّ المنبع الواحد صار له نهر واحد ، وتتوج كلّ هذه الآراء بوحدة مذهبية وفقهية ...

فرواية الحديث لن يكثر تضاربها كما هى الآن ، ولن تحتاج الأمّة للعلماء الذين أفنوا عمرهم فى البحث عن الأحاديث الصحيحة بعد أكثر من مائتىّ عام ، مثل : البخارى ومسلم والكلينى .

عدم خلافة الإمام ونسله جعلت من حكّام الأمّة خدماً لأهوائهم ، فرفضوا أحاديث صحيحة مرويّة عن فضائل علىّ ونسله ، بل عاقبوا من يرويها ، بل جاهدوا ونجحوا فى إخفاء المعالم المضيئة فى نهجه ، وجعلوا جُلّ اهتمامهم الحكم والاستبداد به ، فوضعوا أحاديث كثيرة ونسبوها إلى النبىّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ؛ كلّها تؤيد ما ذهبوا إليه فى فهم الحكم ، وأنّ من مات وليست فى عنقه بيعة مات ميتة جاهليّة ، أو مثلما أفتى آخر بأنّ الحسين قُتل بشرع جدّه ، أو ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة .

وعدم خلافة الإمام جعلت العباسيين يزيّفون أحاديث كثيرة وينسبونها للصحابىّ الجليل عبد الله بن عباس ، بعض هذه الأحاديث تنقض بعض ما جاء فى القرآن الكريم .

وعدم خلافة الإمام جعلت من عبد الله بن سبأ أسطورة يُلقى عليها كلّ ما حدث للأمّة من انشقاق دنيوىّ ودينىّ ، مذهبىّ وسياسىّ ، وأصبحت عادة إلقاء اللائمة على غريب أو دخيل

أو خائن ؛ حتى يظنّ المرء أنّ كُلّ الأُمّة بخير ، وأنّه ليس فيها عيب ، وأنّه لولا الخيانة ما حدث ما حدث ، وهو تفسير سهل ومريح وبسيط ، يريح الضمير المكتوى بنيران الظلم والفساد .

وخلافة الإمام عليّ كانت ستؤدى حتماً إلى عدم خروج طلحة أو الزبير ، أو انشقاق معاوية ، أو خروج الخوارج وحدوث فتنة تكفير المسلم أو تفسيقه أو القول بخلْق القرآن ، والمسلم العاصى بالكبائر فى منزلة بيْن المنزلتيْن ، أو مثْل هذه الأمور التى شاعت ووجدت مواجهات بيْن علماء كُلّ فريق .

وخلافة الإمام عليّ ونسله من بعْده كانت ستؤدى حتماً إلى عدم وصول العبيد إلى السلطة ووجاهتها ، والانكفاء على الذات من قبل الشعوب لحمايتها من بطش هؤلاء وأولئك ، ثُمّ الاستكانة لكل ظالم وصل إلى السلطة بحدّ السيف ، والادعاء بالشرعية المزيّفة .

ما كان الإمام سيترك المدينة ويرحل للكوفة ، وما كانت الكوفة وكربلاء تشهد مصارع الشهداء من أهل البيت فيما بعْد ، ولا كانت فتنة الخوارج على عثمان .

ولسنا نحلم بذلك ، بل كُلّ هذه التوقعات كانت ستحدث كُلّها أو بعضها ، والمؤكّد أنّ قيادة أهل البيت للأمة تكون

أفضل للأمة كثيراً ، وبالتالى فإنّ كُلّ أحاديث النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم جاءت لتؤكّد هذه الحقيقة ...

فلماذا تخلّى الصحابة الكرام عن ذلك ومنعوها عنهم وظلّت الأُمّة بسببها تتخبط فى فتن عمياء وأعداؤها يسومونها سوء العذاب ؟

فى كتاب " المراجعات " يقول السيد / عبد الحسين شرف الدين[١١٣] : أفادتنا سيرة كثير من الصحابة أنّهم كانوا يتعبدون بالنصوص إذا كانت متمحضةً للدين مختصّةً بالشئون الأخروية : كنصّه صلى الله عليه وآله وسلّم على صوْم شهْر رمضان دون غيْره ، واستقبال القبلة فى الصلاة دون غيْرها ، ونصّه على عدد الفرائض فى اليوم والليلة ، وعدد ركعات كُلّ منها وكيفياتها ...

أمّا ما كان متعلّقاً بالسياسات : كالولايات والإمارات ، و تدبير الدولة ، و تقرير شئون المملكة ، و تسريب الجيش ؛ فإنّهم لم يكونوا يرون التعبد به والالتزام فى جميع الأحوال بالعمل على مقتضاه ، بل جعلوا لأفكارهم مسرحاً للبحث

١١٣ــ عبدالحسين شرف الدين : المراجعات / دار الفكر / بيروت ١٩٨٦/٢٢٢.

ومجالاً للنظر والاجتهاد ، إذا رأوا فى خلافه رفعاً لكيانهم أو نفعاً فى سلطانهم ...

ولعلّهم كانوا يحرزون رضا النّبىّ بذلك ، وكان قد غلب على ظنّهم أنّ العرب لا تخضع لعلىّ ولا تتعبد بالنّصّ عليه ؛ إذ وترها فى سبيل الله، وسفك دماءها بسيفه فى إعلاء كلمة الله ، وكشف القناع منابذاً لها فى نصرة الحقّ ، حتى ظهر أمر الله على رغم كُلّ عاتٍ كفور ، فهمْ لا يطيعونه إلا عنوةً ، ولا يخضعون للنّصّ عليه إلا بالقوة ، وقد عصبوا به كُلّ دم أراقه الإسلام أيام النّبىّ ؛ جرياً على عادتهم فى أمثال ذلك ؛ إذ لم يكن بعد النّبىّ فى عشيرته صلى الله عليه وآله وسلّم أحد يستحقّ أنْ تُعصب به تلك الدماء غيْره ؛ لأنّهم كانوا يعصبونها فى أمثل العشيرة وأفضل القبيلة ، وقد كان هو أمثل الهاشميين و أفضلهم بعد رسول الله، لايُدافع و لاينازع فى ذلك، و لذا تربّص العرب به الدوائر ...

وأيضا ... فإنّ من ألمّ بتاريخ قريش والعرب فى صدْر الإسلام يعلم أنّهم لم يخضعوا للنُبوّة الهاشمية إلا بعْد أنْ تهشّموا ولم يبق فيهم من قوة ، فكيف يرضون باجتماع النُبوّة والخلافة فى بنى هاشم ؟! ...

والسلف الصالح لم يتّسنّ له أنْ يقهرهم يومئذٍ على التعبد بالنّصّ ؛ فرقا من انقلابهم إذا قاومهم ...

الخلفاء الثلاثة وأولياؤهم فقدْ تأوّلوا النّصّ عليه بالخلافة للأسباب التى قدّمناها ، حين تمّ لهم الأمر أخذوا بالحزم فى تناسى تلك النصوص ، ولمّا توفّقوا فى حفْظ النظام ونشْر دين الإسلام وفتْح الممالك والاستيلاء على الثروة والقوة ولم يتدنسوا بشهوة علاً أمْرهم وعظُم قدْرهم وحسنت بهم الظنون وأحبّتهم القلوب ... انتهى .

أبو الأئمة

يصف الإمام عليّ أهل البيت بقوله[١١٤] : هم عيش العلم وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم ، وصمتهم عن حكم منطقهم ، لا يخالفون الحقّ ولا يختلفون فيه ، هم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام ، بهم عاد الحقّ إلى نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، وانقطع لسانه عن منبته ، عقلوا الدين عقْل وعاية ورعاية لا عقْل سماع ورواية ؛ فإنّ رواة العلم كثير، ورعاته قليل .

١١٤ــ نهج البلاغة تحقيق محمد عبده (مرجع سابق) ٢٣٢/٢

وهو بهذا الوصف فإنّه يؤكد أو يشرح أو يفسر ما قاله النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عن أهل البيت كما رأينا من قبل .

و وصفه لأهل البيت ــ كما في غيره من خطبه ــ فيه مسحة من العلم الإلهيّ ، وفيه عبقة من الكلام النبوي كما قال الشريف الرضي .

وعلى هذا النهج قال الإمام عن أهل البيت أيضاً[١١٥] : بنا اهتديتم في الظلماء و تسنّمتم العلياء، وبنا انفجرتم عن السرائر، وقر سمع لم يفقه الواعية ، وكيف يراعي النبأة (الصوت الخفيّ) من أصمّته الصيحة ؟! رُبط جَنان لم يفارقه الخفقان (خوفاً من الله تعالى) ، ما زلتُ أنتظر بكم عواقب الغدر ، وأتوسمكم بحلية المغترّين ، سترني عنكم جلّيات الدين ، وبصّرنيكم صدق النية ، أقمتُ لكم على سُنَن الحقّ في جواد المضلة ، حيث تلتقون ولا دليل ، وتحتفرون ولا تميهون (تجدون ماءً) ، اليوم أُنطق لكم العجماء ذات البين ، غرْب (غاب) رأى امرئ تخلّف عني ، ما شككتُ في الحقّ مذ أُريته ، لم يوجس موسى عليه السلام خيفةً على نفْسه ، أشفق

١١٥ــ المصدر نفسه ٣٨/١

من غلبة الجهّال ودول الضلال ، اليوم تواقفنا على سبيل الحقّ والباطل ، من وثق بماء لم يظمأ .

فهو يريد أنْ يُعلّم الأُمّة عن فضل أهل البيت وكونه على الحقّ مع الحقّ وحيثما يكون القرآن يكون معه ، على هذا النهج ظل الإمام يشرح سيرة النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ...

فإذا قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عن أهل البيت وأفضليتهم فالإمام شرح ذلك الأمر؛ لأنّ الحُكْم الأمويّ والذي بدأت فلسفته للحُكْم قائمةً على معارضة الإمام وتشويه ما جاء في أفضلية أهل البيت ؛ فإنّ الإمام واجَه هذا بالمنطق الدينيّ والعلم الإلهيّ ، فهو باب مدينة العلم ...

فيقول عن نفْسه[١١٦]: إنّما مثلي بينكم مَثَل السراج في الظلمة ؛ يستضيء به مَن ولجها ، فاسمعوا أيها الناس وعوا ، وأحضروا آذان قلوبكم تفهموا .

فهل كان الإمام يزكّي نفْسه وهو دوماً التقي الخفي ؟!

الإمام كان يدرك ببصيرته وبالواقع الدنيوي الذي أحاط به معاوية دينه أنّ من سمة المستبدين إخفاء الوجه المشرق للمعارضة ، خاصّةً إذا كانوا أهل بيت النُبُوّة والذين يشمّ الناس فيهم عبق النُبُوّة ، فأراد الإمام أنْ يضع الأمور في نصابها ؛

١١٦ــ المصدر السابق ١٢٧/٢

حتى يأتي اليوم الذي يجد فيه المسلمون الوجه المشرق الحقيقيّ للدين الحنيف ، وذلك بالأخذ من القرآن الكريم ومن السُنّة النبوية المطهرة ومن أهل بيت النُبُوّة وأئمتهم على وجه الخصوص .

عندما تزوّج الإمام بفاطمة دعا لهما النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قائلا **{ جمع الله شملكما ، وأسعد جدّكما ، وبارك عليكما ، وأخرج منكما كثيراً طيّبا }** ، وقال أنس : فوالله لقد أخرج الله منهما الكثير الطيب[١١٧] ...

ولكن هذا الكثير الطيب قام الحكام بمحاصرتهم وسجنهم وتشريدهم وقتلهم. الحسن تمّ سمّه ، والحسين تمّ قتله مع بقية أهل بيت النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، والباقر والكاظم والرضا ماتوا بالسم ، وزيد بن عليّ قُتل وصُلب وأُحرق وذرّ رفاته في الفرات .

كما أنّ علْم هذا الكثير الطيب تمّ فرْض الحصار عليه بالتشويه والادعاء والكذب ، فعاشت الأُمّة في ظلمة عمياء ، وظلّت تفترق حتى انهارت الدولة الواحدة وصارت دويلات

١١٧ــ الشيخ العلمي : جواهر العقبى / ٣٠

يحارب بعضها بعضاً ، ويستنجد البعض بالأعداء على الإخوة في العقيدة كما حدث في الأندلس وكما يحدث اليوم .

لقد أذهب الله الرجس عن أهل بيت النُبُوّة وطهّرهم منه ؛ فعندما نزلت الآية الكريمة **{ إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا }**[١١٨] أجمع المفسرون أنّها نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين حين دعاهم الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم فضمّهم بعباءته وجلّلهم بها ، وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم **{ اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا }**[١١٩] ...

والتطهير من الرجس لا بد أنْ يمتدّ إلى الذرية الطاهرة من هذا النسل الكثير الطيب ؛ بحيث يبدو هذا النسل كما لو كان معصوماً من الزلل ، فلم تكن تعابيره صلّى الله عليه وآله وسلّم عن حبّه لهذا البيت الطاهر ناتجةً عن عاطفة أو علاقة عائلية ؛ فهو رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى ، وهو الذي أمرنا الله سبحانه وتعالى بالتأسي بسيرته والاقتداء به ، فهو لا يحب ولا يبغض إلا في الله ولله ، فما كان قوله في أهل البيت إلا تعبيراً عن مقامهم ومكانتهم عند الله سبحانه وتشخيصاً لموقعهم

١١٨ــ سورة الأحزاب : ٣٣

١١٩ــ الترمذي / ٢٠٦

ودورهم في الأمة، حتى إنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين { **أنا حرب لمن حاربتم ، وسلمٌ لمن سالمتم** }[١٢٠].

وقال عليّ : نحن أهل بيت لا يقاس بنا أحد[١٢١]...

وبالفعل لا يقاس أحد بأهل بيت النّبيّ الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً .

وقد كان هذا النسل الطيب من عليّ والزهراء يتبحر في العلم حتى يخرجوا مكنونه ، ويتوافق مع ما جاء في القرآن الكريم ، بل ينهل من موارده .

والمعروف أنّ هناك علماً لدنيّاً يلقيه الله في قلوب أوليائه المؤمنين ، مثل العلم الذي منحه الله للخضر عليه السلام .

وقد توارث أهل بيت النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم العلم أباً عن أب ؛ يقول الإمام جعفر[١٢٢]: حديثي حديث أبي ، وحديث أبي حديث جدّي ، وحديث جدّي حديث عليّ بن أبي طالب ، وحديث عليّ بن أبي طالب حديث رسول الله صلى الله عليه

١٢٠ــ الترمذي ٢٠٨

١٢١ــ مقتبس من السيره (مرجع سابق) /٩٠

١٢٢ــ الإمام الصادق فكر ينجذب (مرجع سابق) ٤٨

وآله وسلّم ، وحديث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قول الله عزوجل .

فما معنى ذلك ؟

معناه : أنّ السُّنّة النبوية أوّل ما دُوّنت دُوّنت على يد هذا النسل الطاهر ، فلا نجد حديثاً من طُرُقهم يختلف مع ما وَرَد في القرآن الكريم .

ونستطيع أنْ نؤكد أنّ السُّنّة النبوية المطهّرة أول تدوين لها في فقه جعفر ابن محمد بن عليّ بن الحسين ، وقد تتلمذ على يديه أول فقهاء أهل السُّنّة ، وهو الإمام أبو حنيفة النعمان ، وكان يقول: " لولا السنتان لهلك النعمان " ، ويقصد بهما السنتيْن اللتيْن قضاهما تلميذاً على يديه ، ومع ذلك لا نجد حديثاً في كُتُب الصحاح منسوباً إلى جعفر بن محمد رغم أنّ سند الحديث لديه عن آبائه حتى النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم !

يقول الأستاذ محمد رضا المظفر في كتابه " عقائد الإمامية "[١٢٣]: ولا يهمّنا في بحْث الإمامة في هذه العصور إثبات أنّهم هم الخلفاء الشرعيون وأهل السلطة الإلهية ؛ فإنّ ذلك أمْر مضى في ذِمّة التاريخ ، وليس في إثباته ما يعيد دورة الزمن من جديد أو يعيد الحقوق المسلوبة إلى أهلها ، وإنّما الذي يهمّنا منه لزوم

١٢٣ــ عقائد الإمامية (مصدر سابق) /١٠٢

الرجوع إليهم في الأخذ بأحكام الله الشرعية وتحصيل ما جاء به الرسول الأكرم على الوجه الصحيح الذي جاء به ...

والدليل القطعيّ دالّ على وجوب الرجوع إلى آل البيت وأنهم المرجع الأصلي بعد النبيّ لأحكام الله المنزلة ، وعلى الأقل قوله عليه الصلاة والسلام **{ إني تركتُ فيكم ما إنْ تمسكتم به لن تضلّوا بعدي أبداً : الثقلين ، وأحدهما أكبر من الآخر : كتاب الله ؛ حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي . ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض }**[١٢٤] .

والمعنى واضح في الحديث السابق ، ولا يختلف عن الحديث **{ تركتُ فيكم ما إنْ تمسكتم به لن تضلّوا بعدي أبدا : كتاب الله وسنّتي }**[١٢٥] ؛ فالسُنّة النبوية أول ما دُوّنت كانت على يد جعفر الصادق ، والسُنّة عن طريق العترة تشمل الصحيح الكثير ؛ فالإسناد متصل من الآباء الطاهرين إلى الأبناء المخلصين ، وعملية التدوين وصلت في وقت قريب من عصر النُبوّة وقبل أن تظهر أية مدرسة فقهية .

١٢٤ــ سيرد سنده وأخذ والتشرف وغيره . يراجع ص ١٣ من هذا الكتاب .

١٢٥ــ المصدر نفسه

ولأنّ الإمام ونسله قد تمّ تطهيرهم من الرجس فلا يُفترض أنْ يكذبوا على الله ، وحاشاهم من ذلك ؛ فالصدق مع الإمام عليّ و الحسن والحسين معهم أينما يكون الصدق ، يعلم ذلك كُلّ المسلمون ، ويعتقد ذلك السابقون واللاحقون ...

كما يعتقد المسلمون قديماً وحديثاً أنّ عليّ بن الحسين الملقّب بـ" زين العابدين " أخذ كُلّ مناقب البيت النبوي وصار علماً في زمانه، وسُمّي بـ" السّجّاد " لكثرة عبادته كما قال الإمام مالك عنه ...

ويقول ابن حجر في صواعقه المحرقة : زين العابدين هو الذي خلف أباه علماً وزهداً وعبادة[١٢٦] .

ويقول الإمام الباقر عن أبيه زين العابدين[١٢٧] : إنّه ما ذكر لله عز وجل نعمةً إلا سجد ، ولا قرأ آيةً من كتاب الله عز وجل فيها سجود إلا سجد ، ولا فرغ من صلاة مفروضة إلا سجد ، ولا وُفّق لإصلاح بين اثنين إلا سجد وكان أثر السجود في جميع مواضع سجوده ، فسُمّي " السّجّاد " لذلك .

١٢٦ــ نفحات من السيرة (مرجع سابق) /١٢٤

١٢٧ــ المصدر نفسه /١٢٤

هذا هو عليّ بن الحسين، فإذا كان كذلك فلا بد أنْ تكون ذريته على قدْر ورعه ، وأنّ تربيته النبوية لهم لا بد أنْ تكون متأثرةً بالآية الكريمة آية التطهير من الرجس ...

فزين العابدين أنجب زيداً ومحمّداً : زيد الثائر على ظلم الأمويين والذى قُتل وصُلب على جذع شجرة ثُمّ أُحرق جسده الشريف ، وبقي محمد الذى تفرّغ للعلوم ونشر المعرفة الدينية المشربة بعبق النُبوّة ، تبحّر فى كُلّ العلوم حتى بقرها ، فلقّبه المسلمون بـ" الباقر " ، فقد شمّر الباقر عن ساعدى الجدّ لاستكمال ما بدأه الإمام السّجّاد فى عملية التغيير خلال تبنّيه السياسة التعليمية المعطاءة ؛ من أجل رفد الأُمّة بشخصيات علمية عاملة للإسلام واعية لأهداف الرسالة ، واستقطب نشاط الإمام المكثّف الكثير من رواد المعرفة الإسلامية ، وشُدّت إليه الرحال من جميع أطراف الدولة الإسلامية المترامية تلامذة ومحاورون وطالبو علْم ، وقصده أغلب رجالات الفكر من معتزلة ومتصوفة ، حتى الخوارج ؛ للمناظرة أو للإفادة من فيض علْمه المتدفق .

هذا هو الباقر ، وهذا مدى صدْقه وورعه والتفاف المسلمين من حوله ، فهل يُعقل أنّه يكذب ؟! حاشاه ذلك ، بأنْ أوصى لجعفر بعْده صدّقْناه .

ولذلك ... فإنّ ابنه من بعْده جعفر بن محمد الذى ترعرع فى ظلال جدّه السّجّاد وأبيه الباقر ، وأخذ علوم الشريعة ومعارف الإسلام منهما ...

ويشكّل جعفر بن محمد حلقةً من حلقات متواصلة مترابطة متفاعلة حتى تتصل برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فهى تشكّل مدرسةً وتجربةً حيّةً يتجسد فيها الإسلام وتُطبّق أحكامه وتُحفظ مبادئه .

وقد لُقّب جعفر بـ" الصادق " ؛ لاشتهاره بالصدق .

يقول مالك بن أنس عنه[١٢٨] : و لقد كنتُ أرى جعفربن محمد، وكان كثير التبسم ، فإذا ذُكر عنده النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم اصفرّ لونه ، وما رأيْته يُحدّث عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم إلا على طهارة، و لقد اختلفْتُ إليه زماناً طويلاً ، فما كنتُ أراه إلا على ثلاث خصال : إمّا مصلّياً ، وإمّا صامتاً ، وإمّا يقرأ القرآن ، ولا يتكلم بما لا يعنيه ، وكان من العلماء والعبّاد الذين يخشون الله .

وقد عاش جعفر الصادق مدّةً تقرُب من أربعين عاماً خلال العصر الأموىّ ، وامتدّ به العمر حتى عاصر سقوط الدولة

١٢٨ــ نفحات من السيرة (مصدر سابق) /١٤٦

الأموية وتأسيس الدولة العباسية ، وشاهد خلالها مدى الظلم والجور الذى حاق بالمسلمين جميعا ...

عاصر ثورة عمّه زيد بن علىّ ، وكذلك ثورة ابن عمّه محمد النفس الزكية ، ورأى كيف أخذ العباسيون والأمويون هؤلاء الأعلام فقتلوهم شر القتل ، وأذاقوا أتباعهم ويلات المعاناة .

لذلك ... راح الصادق يربّى العلماء وجماهير الأمّة على مقاطعة الحكّام الظلمة ، وذلك عن طريق نشر الوعى العقائدى والسياسى .

وقد عاش الصادق عصر النمو والتفاعل العلمى والحضارى بين الثقافة والتفكير الإسلامى من جهة ، وبين ثقافات الشعوب ومعارف الأمم وعقائدها من جهة أخرى ، وتمكّن من كشف زيف الحركات الزائفة الإلحادية ؛ من خلال مناظرات علمية هادئة وقوية فى الوقت نفسه .

هذا جعفر الصادق الذى لُقّب بـ" الصادق " نظراً لاشتهاره بالصدق ، فهل يمكن الادعاء عليه بعكس ذلك ؟ لا يمكن ، فوصايته للكاظم توجب التصديق .

و علينا أن ننظر إلى ولده من بعده موسى الملقّب بـ الكاظم" ، ثمّ علىّ الرضا ، ثمّ محمد الجواد ، فعلىّ

الهادى ، فالحسن العسكرى ؛ كلّهم سلسلة متصلة من دوحة النبوّة أخذها الابن عن الآباء فالأجداد وراثة للعلم .

ونحن لم نكتب سيرة كُلّ منهم لأنّ هذا ليس مجال كتابتنا ، ولكننا فقط نودّ لو نؤكد أنّ الصدق شيمة أهل البيت جميعا ، خاصّة أولئك الذين تربّوا أبا عن جدّ ، والذين نصبهم الآباء أئمّة من بعدهم ...

يقول محمد رضا المظفر عن الأئمة[١٢٩] : لا نعتقد فى أئمتنا ما يعتقده الغلاة والحلوليّون **{ كبُرَت كلمةً تخرج من أفواههم }**، بل عقيدتنا الخاصة أنهم بشر مثلنا ، لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، وإنّما هم عباد مكرمون اختصّهم الله تعالى بكرامته وحباهم بولايته ؛ إذ كانوا فى أعلى درجات الكمال اللائقة فى البشر من العلم والتقوى والشجاعة والكرم والعفة وجميع الخلال الفاضلة والصفات الحميدة ، لا يدانيهم احد من البشر فيما اختصّوا به ، وبهذا استحقّوا أنْ يكونوا أئمّة وهداة ومرجعا بعد النبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فى كُلّ ما يعود للناس من أحكام وحكم ، وما يرجع للدين من بيان وتشريع ، وما يختصّ بالقرآن من تفسير وتأويل .

١٢٩ــ عقائد الإمامية (مصدر سابق) /١٢٥

قال إمامنا الصادق [١٣٠]: ما جاءكم عنّا ممّا يجوز أنْ يكون في المخلوقين ولم تعلموه ولم تفهموه فلا تجحدوه وردّوه إلينا ، وما جاءكم عنّا ممّا لا يجوز أنْ يكون في المخلوقين فاجحدوه ولا تردّوه إلينا .

وقد رأيتُ أنّ كثيراً ممّا جاء عند خصوم أهل البيت عنهم ليس بحقيقيّ ، بل تمّ دفْن هذا التراث الضخم من المعرفة واليقين لا لشيء إلا لإبعادهم عن الحُكْم وتشويه سيرتهم ؛ حتى لايأخذ المسلمون عنهم جميعاً فتهتزّ العروش و تضيع التيجان ...

فظلّ الحكّام العباسيون يطاردون فكْر أهل البيت ؛ حتى ينصرف الناس عنهم، فقالوا عنهم بأنهم يقولون عن الأئمة " إنّهم ليسوا من طينة البشر " ، وشوّهوا تعاليم الرجعة والتقية والبداء وغيْرها ، حتى أصبحت مثْل تلك الكلمات ما يُنبذ به شيعة أهل البيت أو أي مسلم يقول مثلهم .

قالوا بأنهم يغالون في الأئمة ، وتناسوا مغالاة الآخرين لشخصيات تحترمها جميعاً وإنْ كنّا لا نعتقد لهم قداسة ، خذ — مثلاً — القداسة التي مُنحت للبخاري ومسلم وابن تيمية وابن

١٣٠ــ المصدر نفسه / ١٢٦

حنبل والشافعي وأبي حنيفة ومالك ، وللجنيد والرفاعي والبدوي، وغيْرهم كثير ...

لا نعتقد هذه القداسة — رغم احترامنا للجميع — ولكنّ كُلّ من يتمذهب بمذهب معيّن يُضفي قداسةً على إمام مذهبه ، ومن ثَمّ يطعن في الباقين ، ولكنّ الطعن وُجّه أكثر إلى مؤيّدي أهل البيت بصفة خاصة ، وما شرحناه في ذلك وما كتبْناه عن كيفية تزوير التاريخ الإسلامي غنيّ عن البيان .

والسؤال الذي يتبادر للوهلة الأولى : وماذا عن الغلاة : كتلك الفرَق النصيرية والقرامطة وغيْرهم من الفرَق الشاذة ؟ ومن أين جاءت أفكارهم ؟

وهنا يمكننا القول : إنّ أمثال هذه الفرق هي امتداد لأفكار الملاحدة والزنادقة الذين أنكرهم الإمام الصادق كما أنكرهم أئمة أهل السُنّة ، ليسوا من الإسلام في شيء ، والإسلام منهم بريء .

ولعلّ سؤالاً آخر يقول : وماذا عن فرَق الشيعة المختلفة مثْل : الزيدية والإمامية والإسماعيلية وغيْرها ؟

وهنا نستطيع القول أيضاً : بأنّها فرَق اجتمعت في العقائد وافترقت في الفروع والأمور الفقهية ، مثلها مثل المذاهب الإسلامية المختلفة كالأحناف والمالكية والشافعية والحنبلية ؛ فهم

جميعاً اتفقوا مع العقيدة الأشعرية (نسبة إلى أبى الحسن الأشعرى) ثمّ اختلفوا فيما بينهم فى الأمور الفقهية ، تماماً كما اتفق المسلمون على المهدى وإن اختلفوا فى كنهه وصفاته .

ولعلّ الاختلاف فيما بين الفروع عند مذاهب أهل السُّنّة والجماعة يعود إلى مدى صحة الحديث عند إمام عن غيره ، وقد رأينا كيف وصل الأمر بأئمة المذاهب أنْ يعترف بخطئه إذا نبّهه غيره إليه ...

فيقول أبو حنيفة[١٣١] : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب .

ويقول الشافعى[١٣٢] : ما ناظرتُ أحداً إلا تمنيتُ أنْ يغلبنى .

ولم يكن ذلك من قبيل الاعتراف بالخطأ مسبقاً بقدْر تمنيه أنْ يكون الصواب عنده أو عند غيره فيأخذ بالأصحّ .

ورغم ذلك فإنّه حدث من جرّاء تمجيد المذاهب أن انقسم الناس إلى طوائف وتشرذموا حوْل أئمتهم ، وتحولت هذه

١٣١ــ إبراهيم فوزى : تدوين السُّنّة /١١٠

١٣٢ــ المصدر نفسه /١١٠

الفُرقة إلى حروب بيْن السُّنّة والشيعة، وبيْن أهل السُّنّة أنفسهم، وإنْ كان هذا يخرجنا عن البحث .

نَعُود إلى ذلك الذى نقول عنه : إنّ الحكّام آثروا اندثار معالم وتعاليم أهل البيت ؛ حتى لا تصبح منارةً تهدى المسلمين لتحقيق وحدة الأُمّة ...

حقائق قرآنية

سنأخذ مثالاً على ما نقول ، وهو : فكرة التقية : فقدْ أكثَر الجميع فى الحديث عن التقية ، وأصبحَت من ضمْن الأمور التى يُنبَذ بسببها أهل البيت وأصبحَت من مساوئ فِكْرهم ومثالب مذهبهم ، وعدّوها من المكر والخديعة والدهاء والتلون ، وكم قال الجميع عن التقية ...

ولكنّا رأيْنا التقية كما يقول السيد الحكيم[١٣٣] : من خلال الروايات التى وردت عن أهل البيت والتى تتحدث عن التقية نجد أنّ هذا المنهج فى نظر أهل البيت يرتبط بقضايا أساسية فى الدين ؛ بحيث تأخذ حيّزاً واسعاً من الدين والالتزام بالنسبة إلى الإسلام ...

١٣٣ــ الوحدة الإسلامية : (مصدر سابق) /١٢١

فقد ورد في بعض الروايات عن الصادق[١٣٤] أنّ " التقية دينى ودين ابائى ، لا إيمان لمن لا تقية له " ، وأنّ " تسعة أعشار الدين فى التقية " ...

كما أنه يمكن أنْ نفهم مدى أهمية التقية وقيمتها من خلال الاثار والنتائج التى وصفها الأئمة بإزاء التقية .

إنّ التقية تُمثّل أساساً ومنهجاً للسلوك الاجتماعى والسياسى مع الناس ، وإنّ أهل البيت حينما دعوا شيعتهم وأتباعهم للاختلاط بالناس والتفاعل معهم والتلاحم مع وجودهم ومجتمعهم وحكوماتهم ...

فلماذا اختار أهل البيت التقية ؟ وما هو الهدف منها بشكل محدّد ؟ وما هو مضمونها ؟

كان أمام أهل البيت عدة خيارات تجاه علاقة شيعتهم وأتباعهم ، وهم يمثّلون النخبة القليلة فى المجتمع الإسلامى :

الخيار الأول هو : دعوة أتباعهم إلى الانعزال والانكفاء على النّفس ، واللجوء إلى الجبال والغابات وغيرها من المناطق البعيدة عن تناوُل السلطة والاحتكاك بالناس ...

١٣٤ــ نقلا عن المرجع السابق /١٢٣

ولم يَرْضَ هذا الخيار أهل البيت، لأنّهم بحاجة إلى الناس، ولأنّ لهم دوراً فى التأثير وإبلاغ الرسالة لهؤلاء الناس ولو عن طريق القدوة الحسنة.

والخيار الثانى هو : الدخول فى مواجهة علنية ومستمرة مع الناس فى جميع تفاصيل الحياة الإسلامية ، أو فى خصوص القضايا الأساسية منها : كقضية الولاية والحُكْم والشعائر العبادية ...

وهذا الخيار سوف يؤدى إلى استئصال الجماعة الصالحة من أتباعهم .

و لم يكن مناص من **الخيار الثالث** و هو التقية ؛ لأنّه لا مناص من التزام منهج التقية لا خوفاً وجبناً ، بل انطلاقاً من مبدأ التعايش الاجتماعى الذى أكّده أهل البيت ؛ وإلا فأهل البيت هم أهل التضحية والفداء والصبر والصمود والتحمل .

ثُمّ إنّ الأئمة ربطوا التقية بضوابط عديدة ، **مثْل** : قول الباقر[١٣٥] : إنّما جعل التقية ليحقن بها الدم، فإذا بلغ الدم فلا تقية .

وعنه أيضاً : التقية فى كُلّ شىء يضطر إليه ابن آدم ؛ فقد أحلّه الله له .

١٣٥ــ المصدر السابق /١٢٣

وعن الكاظم قال لأحد أصحابه [١٣٦]: مرْ أصحابك أنْ يكفّوا ألسنتهم ويدعوا الخصومة فى الدين ويجتهدوا فى عبادة الله عز وجل .

وتتضح أهمية التقية من خلال النتائج والآثار التى كانوا يتوقعونها بسبب موقف الحكومات الظالمة أو عمليات التشهير والتحريف والإثارة فى أوساط جمهور الأمّة ضد الجماعة الصالحة وأهل البيت أنفسهم ، بعْد أنْ أصبحت العقول العامة مغلفةً بالأطر التى وضعتها السلطة أو فقهاؤها .

وهذا الموقف الذى يُعبّر عنه بـ" التقية " منهج عامّ تلتزم به كُلّ الجماعات والتنظيمات التى تتعرض للقمع ، بل تلتزم به كُلّ الدول والحكومات ، وكُلّ العقلاء والحكماء الذين يشعرون بالخطر عند إفشاء أسرارهم .

وقد انطلق أهل البيت فى هذا المورد من مبدأ التعايش الاجتماعى بشكل واضح من ناحية ، ومن مبدأ أخلاقىّ عامّ اهتمّ به أهل البيت فى موروثهم عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فى العمل الاجتماعى ، والذى تكون له آثار إيجابية حسنة تنعكس على قضية التعايش الاجتماعى ...

١٣٦ــ نفحات من السيرة (مرجع سابق) / ٦٥

فالتقية من مبدأ أخلاقىّ ــ أيضاً ــ يعنى حسن المعاملة والتودد مع الناس وإبداء المرونة والملاينة معهم والبشاشة فى وجوههم ، أى حسْن الخُلق ...

ففى حديث عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم **{ التودد إلى الناس نصْف العقل }**[١٣٧] .

وعن الصادق : مجاملة الناس ثلث العقل [١٣٨].

وأتى رجل إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : " يا رسول الله أوصنى " فكان فيما أوصاه أنْ قال **{ الْقَ أخاك بوجه منبسط }**[١٣٩] .

وأخيراً ... عن الصادق يقول [١٤٠]: أمَا علمتَ أنّ إمارة بنى أمية كانت بالسيف والعسف والجور، و أنّ إمارتنا (إمامتنا) بالرفق والتآلف والوقار والتقية وحسْن الخلطة والورع والاجتهاد، فرَغّبوا الناس فى دينكم (مذهبكم) و ما أنتم فيه... ا هـ .

١٣٧ــ المصدر السابق /١٢٤

١٣٨ــ المصدر نفسه ص١٢٤

١٣٩ــ المصدر نفسه /١٢٤

١٤٠ــ المصدر نفسه

فكما رأينا أنّ التقية مبدأ ضروري لوحدة المسلمين ، وليست كما يذاع عن أهل البيت بأنّ التقية تعني المكر والخديعة التي تصل إلى إبداء الكفر ، وهذا لم يحدث على الإطلاق ، و إن حدث فكان لا بد أنْ يحدث في كُتبهم المملوءة بفكرهم ، فالتقية لم تصل إلى الكتب والتدوين .

ثُمّ أليست التقية أفضل من خلْق التوتر والمشاحنة بيْن أبناء الأمّة ؟

ثُمّ أليست التقية من الأمور التي قال فيها الحقّ سبحانه وتعالى **{ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئنّ بالإيمان ولكنْ من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم }**[١٤١] وأيضاً **{ إلا أنْ تتقوا منهم تقاةً ويحذركم الله نفسه }**[١٤٢] ؟

فالتقية ليست كما تمّ الترويج لها عبر أزمنة التاريخ وأصبحت من مسلّمات الهجوم على أهل البيت وميراثهم .

والتقية دانت بها جميع الفرق الإسلامية في مراحل مختلفة على طول التاريخ الإسلامي ؛ فالخوارج رغم أنهم الضد بالنسبة

١٤١ــ سورة النحل : ١٠٦

١٤٢ــ سورة آل عمران : ٢٨

لأهل البيت فإنهم اختلفوا في البلاد مخفين مذهبهم حتى استقرّوا في عمان وفي الجزائر فأذاعوا أمْرهم حتى الآن ؛ حيث ما زال المذهب الإباضي الخارجيّ هو السائد، والأمر نفْسه بالنسبة للأقلية في أي بلد ...

خذ عندك مثلاً : إذا عاش الصوفية في الديار الحجازية حالياً لا يمكنهم إذاعة أمْرهم ؛ خشيةً على نفوسهم وعلى التشهير بما يقولون .

ولْنقس ذلك في كُلّ ما يَعترض أقليّةً تخشى على نفْسها فتتقي .

ثُمّ إنّ التقية تمّ وضْع ضوابط لها ؛ فإذا بلَغ الدم فلا تقية ، وكم بلَغ الدم وحدثَت الثورات ضد الحكومات الجائرة ، وتقريباً مُعظم الأئمة قُتلوا بالسم وغيْره .

الإمام الخميني في بداية ثوْرته ضد الشاه عام ١٩٦٤ م أفتى بأنّ التقية غيْر جائزة إذا كان الإسلام نفْسه في خطر ، ودعا أئمة المساجد بعدم التقية والجهر بنقد الشاه ، فتمّ نفْيه ، ولم تعرقله التقية ، وبعْد نجاح الثورة في إيران دعا المسلمين الإيرانيين بالصلاة خلف إمام الحرمين المكّيّ أو المدنيّ منعاً للفُرقة .

وقد تحدثنا عن التقية كمثل واحد اتخذه أبناء الإمام علـيّ ؛ فهو الإمام أبو الأئمة الذين استقوا العلم ورووا الأحاديث أباً عن جدّ حتى وصلت إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

لنأخذ مثلاً آخر ، وهي : الأدعية التي كان يتناجى بها الأئمة ، نذكر بعضاً منها لكي نبيّن مدى نصاعة عقيدة أهل البيت ومدى التشويه الذي حاق بهم وبسيرتهم وبأقوالهم ..

ففي " الصحيفة السجادية " من أدعية زين العابدين نقرأ[١٤٣] :

* يا من تُحلّ به عقد المكاره ، ويا مَن يفثأ به حد الشدائد ، ويا من يُلتمس منه المخرج إلى روْض الفرج ، ذلّت لقدرتك الصعاب ، وتسببت بلطفك الأسباب ، وجرى بقدرتك القضاء ، ومضت على إرادتك الأشياء ، فهي بمشيئتك دون قولك مؤتمرة ، وبإرادتك دون نهْيك منزجرة .

* اللهم فارحم وحْدتي بيْن يديك ، و وجيب قلبي من خشْيتك، واضطراب أركاني من هيْبتك ؛ فقدْ أقامتني يا ربّ ذنوبي مقام الخزي بفنائك ، فإنْ سكتُّ لا ينطق عني أحد ، وإنْ شفعتُ فلستُ بأهل الشفاعة .

١٤٣ــ مختارات من أدعية الإمام السجّاد ــ عليه السلام ــ من الصحيفة السجادية / مؤسسة البلاغ / بيروت .

* اللهم لا تدَعْ خصلةً تعاب مني إلا أصلحتها ، ولا عائبةً أؤنّب بها إلا حسّنتها ، ولا أكرومةً فيّ ناقصةً إلا أتممتها .

* اللهم إني أعتذر إليك من مظلوم ظُلم بحضرتي فلم أنصره، ومن معروف أُسدي إليّ فلم اشكره ، ومن مسيء اعتذر إليّ فلم أعذره ، ومن ذي فاقة فلم أوثره ، ومن حقّ ذي حقّ لزمني فلم أوفره ، ومن عيب مؤمن ظَهَر لي فلم أستره .

* اللهم لا تفتني بالاستعانة بغيرك إذا اضطررتُ ، ولا بالخشوع لسؤال غيرك إذا افتقرتُ ، ولا بالتضرع إلى مَن دونك إذا رهبْتُ ، فأستحقّ بذلك خذلانك ومنْعك واعتراضك .

وعن الإمام الصادق : إنّ الله عزّ وجلّ لا يستجيب دعاءً بظَهْر قلْب ساهٍ فإذا دعوتَ فأقبِل بقلبك ثُمّ استيقن الإجابة .

و في أدعية الإمام علي، نزد هذه العبارات[١٤٤]

* إلهي ومولاي ... أجريتَ عليّ حُكْماً اتّبعتُ فيه هوى نفْسيّ ولم أحترس فيه من تزيين عدوّي ، فغرّتني بما أهوى ، وأسعده على ذلك القضاء ، فتجاوزتُ بما جرى عليّ من ذلك بعض حدودك ، وخالفتُ بعض أوامرك .

١٤٤ــ نقلا ببعض التصرف عن كتاب مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي / دار القارئ / بيروت /٩٨ و ما بعدها .

* أي ربّ ... جلّلني بستْرك ، واعف عن تَـوبيخي بكـرم وجهك ، فلو اطّلع اليوم على ذنْبي غيرك ما فعلتَـه ، ولـو خفتُ تعجيل العقوبة لاجتنبتُه .

* اللهم ارزقنا توفيق الطاعة و بُعْدالمعصـية و صـدْقالنيـة وعرفان الحرمة ، وتفضّل على علمائنا بالزهد والنصـيحة ، وعلى المتعلمين بالجهد والرغبة ، وعلى المستمعين بالاتّبـاع والموعظة ، وعلى مرضى المسلمين بالشفاء والراحة ، وعلى موتانا بالرأفة ، وعلى مشايخنا بالوقار والسـكينة ، وعلـى الشباب بالإنابة والتوبة والرحمة، وعلى النساء بالحياء والعفة ، وعلى الأغنياء بالتواضع والسـعة ، وعلىالفقـراء بالصـبر والقناعة ، وعلى الغزاة بالنصرة والغلبة ، وعلـى الأمـراء بالعدل والشفقة ، وعلى الرعية بالإنصاف وحسْن السـيرة ، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين .

وقال هشام بن أحمد[١٤٥] : كنت أسير مع أبي الحسن الكاظم في بعض أطراف المدينة إذ ثنى رجله على دابّته فخرّ سـاجداً فأطال ، ثمّ رفع رأسه وركب دابّته ، فقلتُ :" جُعلْتُ فداك ...

١٤٥ــ الكليني : الكافي ٩٨/٢

قد أطلتَ السجود ؟ " فقال : إنني ذكَرْتُ نعمةً أنعَم الله بها عليّ فأحببتُ أنْ أشكر ربي .

وعندما سُجن الكاظم قال[١٤٦] : اللهم إنك تَعلم أنـي كنـتُ أسألك أنْ تفرغني لعبادتك ، وقد فعلتَ ذلك ؛ فلك الحمد .

فهل نشتمّ ممّا ذكرناه من تلكالأدعية رائحةَ غيْرتوحيدية ؟! وهل فيها ما يشي بأنّ الأئمة فوقالبشر ومن طينة غيْرطينتهم ؟!

أليست جميعها ممّا جاء في القرآن الكريم من إجلال التوحيد لله عزّ وجلّ وحْده ؟!

إننا نربأ بأنفسنا أنْ نقول على الناس بغيْر الحقّ ، فما بـال علماء أجلاّء يأخذون من الخصوم دون الرجوع إلى المصـادر الأصلية للقوم والقراءة فيها بحياد وموضوعية وعـرْض كُـلّ شيء على كتاب الله ؛ فإنْ وجد فيها ما يخالف الكتاب الكـريم رُفض، و إن وجد أنّه يتماشى معالقرآن أُخذ وُروى دون تَردُّد .

فالإمام عليّ هو أب لهؤلاء الأئمة الذين ورثوا العلم عنه ، فهو باب مدينة العلم ، وعلى الذين يدّعون الغيرة على الإسلام وعلى وحدة الأُمّة أنْ يراعوا الله فيما يكتبون ...

فلْيقرأ من شاء " نهْج البلاغة " ؛ فلن يجد فيـه مـا يمـسّ التوحيد بكلمة أو بحرف ؛ فهو نبْع من فيض النُبُوّة ، وبعـض

١٤٦ــ نفحات من السيرة (مصدر سابق) /١٥٩

من أنوار الوحى ، و أولئك الذين يقولون بأنّ " النهج " فيه ما يمسّ بعض الصحابة الكرام فلن يجدوا فيه على لسان الإمام كلمة تجاوُز على إيمانهم أو عبارةً توصى بأنّه يحرص على التقول عليهم ...

فالإمام كان يرى نَفْسه أحقّ بالخلافة ، فوضَع الخُطَب التى تؤكد أحقيته ، ولكنّه حَرِص على وحدة الأُمّة قَبْل حرْصه على أحقيته .

وفى " النهج " الكثير من الإشادة بالصحابة والنصح لهم والحرص عليهم كما نجد فى صفحات هذا الكتاب .

وكُلّ فريق من المسلمين يرى أنّه على الحقّ ويدافع عنه دفاع المستميت ويرى غيْره على ضلال ...

و نرى الآن الذين يكفّرون زوّارالقبور و يتهمونهم بالشرك، رغم انه لا يوجَد مسلم واحد يعتقد أنّه يعبد غيْر الله حتى لو كان النَّبىّ نفْسه، والمتصوفة فى المقابل يهاجمون السلفيين بأنهم مجسّدين وغيْر متأدبين مع صاحب الرسالة النَّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

و رأينا جماعات تُكفّر المجتمع بأسْره وتخرج على الجميع وتحدث مواجهات دامية بيْن السلطة والجماعات، و يتيه الجميع فى من هو على الحقّ ومن هو على الباطل ؟!

فلماذا لايكون أتباع أهل البيت حريصين على إذاعة أمْرهم؟ وطالما أنّ الخلاف لا يصل إلى أصول الدين فلا خطَر، والوحدة تكون قريبة التحقق إذا عذر كُلّ مسلم أخاه المسلم ولم يلجأ إلى التكفير أو السخرية أو الاستهزاء أو التجنى .

فهؤلاء الأئمة من أهل البيت سيرتهم واجبة على كُلّ مسلم ؛ طالما أنّ سيرتهم تؤكّد ما جاء بالقرآن الكريم ، فهمْ أئمة أبناء الإمام المبين .

الإمام اليعسوب

قال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم لأنس بن مالك رضى الله تعالى عنه { **يا أنس... أول من يدخل عليك من هذا الباب إمام المتقين، و سيد المسلمين، و يعسوب الدين، و خاتم** الوصيين، و قائد الغُرّ المحجّلين}[١٤٧]

---

١٤٧ ــ رواه الديلمى فى مسند الفردوس ٢/٨٠

قال أنس : فجاء عليّ فقام إليه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مستبشراً فاعتنقه وقال له **{ أنت تؤدى عنى ، وتُسمعهم صوتى ، وتبيّن لهم ما اختلفوا فيه من بعدى }**[١٤٨] .

و كلمة " يعسوب " لغةً تعنى أمير النحل القائم على مصالحه ، ولقد كان الإمام يعسوباً للدين يعسوباً للمؤمنين ، ولا غرْو ؛ فقدْ قال هو عن نفْسه : أنا يعسوب المؤمنين ، والمال يعسوب الفجار .

ومنذ نشأته وهو يعسوب للدين ويعسوب للمؤمنين .

وقد ظل دينه يتمثل فى دفاعه عن الإسلام حتى لو نال منه شخصياً ، لم يتمتع أحد مثله فى التاريخ الإنسانى بأسْره بالصبر واللواذ بالحكمة ...

فمنذ نشأته سخر منه أعمامه حين أنزل الله تعالى **{ وأنذرْ عشيرتك الأقربين }**[١٤٩] فدعا النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عشيرته فى دار عمّه أبى طالب ، وهمْ يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه ، وفيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب ، فقال لهم النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم

١٤٨ــ رواه الدبلمى فى الفردوس ٦٥/٣

١٤٩ــ سورة الشعراء ٢١٤

{ يا بنى عبد المطلب .. إنى والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قوْمه بأفضل ممّا جئتُكم به ؛ جئتُكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى أنْ أدعوكم إليه ، فأيّكم يوازرنى على أمرى هذا على أنْ يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم }[١٥٠] فأحجم القوم عنه غيْر عليّ ــ وكان أصغرهم ــ إذ قام فقال : " أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه " ، فأخذ سيدنا رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم برقبته و قال **{ إنّ هذا أخى و وصيى و خليفتى فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا }**[١٥١] فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أنْ تسمع لابنك وتطيع ...

وقد كان ضحك القوم منه سخريةً من هذا الفتى الذى يرفع يده لابن عمّه ليكون وزيرا له في دعوة غريبة عن قوْمه تقول بالوحدانية والتى هى دعوة كُلّ الرسل ، ولكنّ الفتى الذى كان يعدّه الله ليكون يعسوباً للمؤمنين أمَن قبْل أنْ يدرك ، فلم يَسجد لصنم فكرّم الله وجْهه ، وعاش فى كنف النُبُوّة يستلهم من فيْضها كُلّ معانى الأريحية والفداء والنبل والطهر ، فأنبتَه الله نباتاً حسناً فكان مولده فى الكعبة ، وكان النّبيّ الأعظم صلّى

١٥٠ ــ ابن الأثير : الكامل ٢٢/٢ وأحمد فى مسنده ٣٨١/١ وغيرهما كثير .

١٥١ــ مسند الإمام أحمد ١١/١ والنسائى فى خصائصه /٦ والطبرى فى تاريخه ٢١٧/٢

الله عليه وآله وسلّم هو الذي سمّاه " عليّاً " وأخذه ليعيش في كنفه بعد الضائقة المالية التي أصابت أبا طالب ، فكان نعم العون لابن العم و هو ما زال طفلاً ...

وكان عليّ نعم العون ــ على صغره ــ للصادق الأمين في بداية الدعوة فصلّى خلف النبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم في شعاب مكة، وعندما راهما أبو طالب يصلّيان دعا ابنه ليستمرّ في عون النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وعندما كان كفّار مكة يعذّبون المستضعفين من الذين آمنوا كان عليّ دائما ردف النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو يواسي المظلومين والمستضعفين والحيارى الذين كانوا يشتاقون لأنوار النبوّة التي تستمدّ الخير من السماء لتعيد دين إبراهيم في أرض العرب، حيث جفاها كبراء قريش منذ أنْ جلب عمرو بن لحي أوثانا معه لتقرّبه إلى الله زلفى، فاتخذها أهل مكة شركاء لله في أرضه أيضاً ...

و منذ إفك ابن لُحيّ فإنّ أشواق الذين هاموا على وجوههم في الأرض يريدون الدين الحقّ ظلّت مستمرّة، مثل : ورقة بن نوفل و زيد بن الخطاب، فاعتقدوا في الآخرة والبعث والحساب، ولكنهم جميعاً ما زالوا يريدون الكلمة الخيرة للوحي الخاتم من

السماء، فظلّت قلوبهم معلّقةً حتى جاء الوحي الأمين الصادق يبشّره باختيار الله له لكي يحمل الرسالة ...

و طلب الله منه أنْ يبدأ بعشيرته **{ وأنذر عشيرتك الأقربين }**، فدعا قومه فلم يستجب له سوى الفتى الصغير عليّ ، فكان إمام المتقين وقائد الغرّ المحجّلين ويعسوب الدين ، فكان أول من آمن بعد صدّيقة الأُمّة خديجة بنت خويلد الزوجة الطاهرة للمبعوث الرحمة المهداة .

و يقول عليّ عن نفسه[١٥٢] : تعلمون موضعي من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة : وضعني في حجره وأنا وليد يضمّني إلى صدره ، ويكنفني في فراشه ، ويمسّني جسده ، ويشمّني عرقه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلا في فعل ، وكنتُ أتبعه إتّباع الفصيل أثر أمّه يرفع لي في كلّ يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بهذا الاقتداء .

ولذلك... فإنّ تكريم الله لوجهه كان عن موعدة وعدها إياه.

وخلال الدعوة المكية آمن كثير من المستضعفين في الأرض في مكة ، وقليل من اشرافها ، مثل : أبو بكر الصديق وسعد بن أبي وقّاص وعمر بن الخطاب والزبير بن العوّام

١٥٢ــ نهج البلاغة ٢/١٧٢

وطلحة بن عبيد الله والأرقم بن أبي الأرقم وعثمان بن عفان وغيرهم ، وقد ذادوا جميعاً عن الدعوة الوليدة ، وكان لكل منهم دور أفاد الرسالة ...

فاشترى أبو بكر كثيراً من المستضعفين وأعتقهم ليعبدوا الله على حريتهم وعلى بصيرتهم.

وهاجر عثمان وجعفر بن أبي طالب وأبو عبيدة بن الجرّاح وغيرهم إلى الحبشة ليكونوا في كنف الرجل الصالح النجاشي .

وقريش مستمرة في عنادها وفي اضطهادها وتعذيبها لعمّار وخبّاب وبلال وأمثالهم.

وايات القرآن تتنزل على قلب النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم تعالج قضية التوحيد بكلّ ما فيها من جلاء ، ومنذرة ومتوعدة القوم الذين يكذّبون بآيات الله تتلى عليهم، فلم يرع القوم ودأبوا على المعاندة .

وكان لله أمر آخر ؛ فقد قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لعليّ **{ إني أُمرتُ أنْ أدنيك ولا أقصيك، و أنْ أعلّمك، و أنْ تعي، وحقّ لك أنْ تعي }**[١٥٣] ، فنزلت الآية الكريمة من سورة

١٥٣ــ تفسير ابن كثير ١٠١/٤ وغيره من التفاسير .

الحاقة **{ وتعيها أُذُن واعية }**[١٥٤] ، فقال الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم **{ سألتُ الله عزوجل أنْ يجعلها أُذُنك يا عليّ }**[١٥٥] ، فكان عليّ أحفظ الصحابة لكتاب الله وأوعاهم له من حيث سبب نزول آياته و خاصيتها و حُكْمها وعموم لفْظها و خصوصية سببها ...

و سورة الحاقة مكية، و عليّ ما زال صبيّاً، والكبار من الذين آمنوا يذبّون عن دين الله بما أوتوا من قوة ومال ويحمون المستضعفين ويتحملون الأذى في سبيل الله ، وعليّ بحكم سنّه لا يفعل مثلما يفعلون ، وإنْ كان أبوه حمى النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم من إيذاء قومه بكل ما أوتي من قوة الاحتمال ، حتى تحمّل سنين الحصار الثلاث إلى أنْ أكلت الأرضة الصحيفة الظالمة تاركةً كلمة " الله " على حالها .

و خلال هذه المحنة التي طالت لثلاث عشرة سنة تتنزل الآيات بخصوص الفتى عليّ ، فكان ذلك حكمةً من الله بأنّ عليّاً الفتى ــ بعْد أنْ وعى كُلّ شيء ــ سيكون له عهد يليق بكونه يعسوب الدين و يعسوب المؤمنين.

١٥٤ــ سورة الحاقة : ١٢

١٥٥ــ تفسير ابن كثير ١٠١/٤

ولذلك فهو يقول[١٥٦] : أمّا بعد ... فإنّ الله سبحانه بعث محمداً صلّى الله عليه وآله وسلّم وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدّعي نبوّة ولا وحياً ، فقاتل بمن أطاعه مَن عصاه؛ يسوقهم إلى منجاتهم ويبادر بهم الساعة أنْ تنزل بهم ويحسر الحسير ، و يقف الكسير فيقيم عليه حتى يلحقه غايته إلا هالكاً لا خير فيه، حتى أراهم منجاتهم وبوّأهم محلّتهم ، فاستدارت رحاهم واستقامت قناتهم ، وأيم الله لقد كنتُ من ساقتها حتى تولّت بحذافيرها واستوسقت في قيادها ، ما ضعفتُ ولا جبنتُ ولا خنتُ ولا وهنتُ ، وأيم الله لأبقرنّ الباطل حتى أُخرج الحقّ من خاصرته .

وقد بقر الباطل دوماً حتى أخرج الحقّ منه كما قال عن نفسه ...

بقر الباطل عندما تمسّك بأهداب كلمة النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى قومه : كما في حديث الدار يوم الإنذار .

١٥٦ــ نهج البلاغه ١٩٩/١

و بقره عندما نام على سرير النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ليلة الهجرة مفديه بنفسه، فنزلت فيه الآية الكريمة **{ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد }**[١٥٧] ...

و في هذا الخبر قيل[١٥٨] : لمّا آخى الله سبحانه و تعالى بين الملائكة آخى بين جبرائيل و ميكائيل، فقال سبحانه و تعالى: (إني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر ، فأيكما يؤثر أخاه بالحياة دون نفسه) فاختار كلّ منهما الحياة ، فقال الله عز وجل :(أفلا تكونان مثل عليّ بن أبي طالب حيث آخيت بينه وبين حبيبي محمد وآثره بالحياة على نفسه في هذه الليلة وقد بات على فراشه يفديه بنفسه ، اهبطا فاحفظاه من عدوّه) ، فهبطا إلى الأرض فجلس جبرائيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وهما يقولان : بخٍ بخٍ لك يا ابن أبي طالب ! من مثلك ؟ وقد باهى الله تعالى بك ملائكة السماوات وفاخر بك .

وظلّ عليّ يعسوباً للدين والمؤمنين ، والرجال الصادقون الملتفّون حول النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم يصدقون

١٥٧ــ سورة البقرة : ٢٠٧

١٥٨ــ أبو الفضل سديد الدين شاذان : كتاب الفضائل / مؤسسة الأعلمي / بيروت ١٩٨٨ م /٩٣

العهد عنده، ويعتقدون أنّ علياً كرّمه الله ليكون له دوْر هائل بعْد مرحلة الاستضعاف فى مكة، وأولئك المستضعفون الذين حملوا راية التوحيد الذى خلّصهم من عبودية الشرك كلّهم ذادوا عن دين الله بعْد أنْ آمنوا به ، حتى كانت ليلة الهجرة التى صحب فيها أبو بكر النّبىّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ليختفيا فى غار ثور ، تاركين علياً فى سرير النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قد يلاقى حتْفه ولكنّ الله حماه ليؤدى عن النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم الأموال التى كانت قريش تستأمنه عليها .

وكان أنْ هاجر بعْد النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى يثرب ومعه نساء بيت النّبىّ والهاشميات المسلمات ، وفى يثرب ــ التى أصبحت المدينة المنورة بالنبى الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ كان علىّ قد أصبح فتىً جلْداً ، وشاباً نابهاً منذ أنْ وعت أذناه كلمات الله تُتلى على نبيّه الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ...

ومنذ قدومه المدينة وعقد مؤاخاة سيدنا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لأصحابه آخى صلّى الله عليه وآله وسلّم بينه و بينه، ثُمّ أخذ بيده و قال { **هذا علىّ مع القرآن، والقرآن مع**

علىّ؛ لا يفترقان حتى يردا علىّ الحوض }[١٥٩] وفهم الصحابة الكرام من تزكية النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم له أنّه يعسوب الدين ويعسوب المؤمنين ، خاصّةً بعْد أنْ رأوه فى المعارك الفاصلة يذبّ عن دين الله ويقتل أئمة الكفر فى بدر وفى أُحُد والخندق عندما قتل صنديد قريش الذى لم يبارز أحداً إلا قتله ، وهو عمرو بن ودّ ، ولكنّ سيف علىّ كان الأسبق ، فقتل عمْراً ، وكان مصرعه بداية الوهن فى الأحزاب الذين تجمّعوا فى المحاولة الأخيرة المستميتة لكى يطفئوا نور الله ، ولكنّ الله أتمّ نوره ولو كره الكافرون .

وفى خيبر ــ حيث اليهود الذين حرّفوا الكلم عن مواضعه ــ كان لعلىّ الدور الأكبر فى فتْح حصْن خيبر ، وكان أول المدافعين عن الحصن أحد أكبر شجعان اليهود ، وهو مرحب اليهودى ، بارزه علىّ متترساً بباب ثقيل أعيا أكثر من سبعة رجال على حمْله ، ولكنه حمَله واتّخذه درعاً ، وبارز مرحباً وقتله ، وفتح علىّ باب الحصن المنيع ، وكان النصر

١٥٩ــ النسائى: خصائص أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب / تحقيق حمزة النشرتى / مكتبة النشرتى / القاهرة ١٩٩٧م /٥

والحديث أخرجه الطبرانى فى الأوسط والحاكم والسيوطى فى الجامع الصغير .

للمسلمين الذين هتفوا : لا فتى إلا علىّ ، ولا سيف إلا ذو الفقار .

وفى كلّ غزوات النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كان لعلىّ اليد الطولى فى المبارزة والقتال .

ولكنّ سيدنا رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم تركه فى المدينة عند سفره إلى تبوك وقال له **{ أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبىّ بعدى }**[١٦٠] أو قال **{ ألا ترضى أنْ تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لانبىّ بعدى }**[١٦١]، وقد فعل فى المدينة ما فعله هارون عندما ذهب موسى لمناجاة ربه حيث كان علىّ فى المدينة يتبع سبيل المؤمنين، و كان خير خلف لنبى الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

زواج المعصومين

ولقد زوّجه النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم من الحبيبة الطاهرة فاطمة ابنته، ولقد كان علىّ يفكر فى الزواج منها ،

١٦٠ــ رواه أحمد فى مسنده ١٨٥/١ ومسلم فى صحيحه ٢٦٨/٥ بشرح النووى

١٦١ــ رواه ابن الأثير فى أسد الغابة ١٠٤/٤ وابن هشام فى السيرة النبوية ١٢٩/٤ طبعة الأنوار المحمدية والحديث له روايات متعددة بألفاظ متقاربة .

ولكنه كان يستحيى أنْ يطلبها بعد أنْ تقدّم لخطبتها كبار الصحابة ولكنّ النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يعتذر لهم بلطف ويقول **{ لم ينزل القضاء بعد }** ، ثمّ تشجّع علىّ فى خطبتها فذهب إلى النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وجلس بين يديه ناظراً إلى الأرض فسأله النّبىّ صلّى الله عليه و آله و سلّم **{أتيت لحاجة }** قال: نعم... أتيتك خاطباً فاطمة، فهل أنت مزوّجى يا رسول الله ؟

قالت أم سلمة : فرأيتُ وجه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يتهلل فرحاً وسروراً ، ثمّ يبتسم فى وجه علىّ ، ثمّ دخل على فاطمة فقال لها **{ إنّ علىّ بن أبى طالب من قد عرفت قرابته وفضله فى الإسلام ، وإنى سألتُ ربى أنْ يزوّجك خير خلقه وأحبّهم إليه ، وقد ذكر شيئاً ؛ فما ترين }**[١٦٢] فسكتت ، فخرج رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو يقول **{ الله أكبر سكوتها إقرارها }**[١٦٣] .

وتمّ زواج علىّ بالزهراء الذى سيكون له آثار إيجابية على أمّة الإسلام بخروج العترة الطاهرة نسل النّبىّ الكريم منها ؛ فقد

١٦٢ــ رواه ابن الأثير فى أسد الغابة ٢٢١/٧

١٦٣ــ ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٩/٨

تحقّق دعاء النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لهما ليلة زفافهما بقوله **{ جمع الله شملكما ، واسعد جدّكما ، وبارك عليكما ، وأخرج منكما كثيراً طيّبا }**[١٦٤] ...

يقول أنس بن مالك: فوالله لقد أخرج منهما الكثير الطيب .

وقد كان هذا الخير الكثير منذ ميلاد الحسن والحسين وزينب عليهم السلام ، ولذلك نرى النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم بعد مولدهم يُكثر الحديث عن العترة التي هي ثمار بيت النُبوّة ، ممّا يؤكّد أنّ أهل البيت الذين ذُكروا في القرآن محصورون في نسل عليّ والزهراء ، و**{ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى }**[١٦٥] تشمل هذا النسل الكريم الذين لا تحلّ لهم الصدقة ...

فاصطفاء الله للنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم من بني هاشم عن اختيار إلهيّ للبعثة الشريفة ، واصطفاء نسل النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم من عليّ والزهراء كان باختيار إلهيّ أيضاً ، ليس لوضعهم فوق البشر أجمعين ، ولكن لكونهم نسل النّبيّ الطاهر صلّى الله عليه وآله وسلّم والذين نزلت فيهم الآية

١٦٤ــ المرجع السابق وغيره من كتب التاريخ كابن كثير والذهبي .

١٦٥ــ سورة الشورى : ٢٣

الكريمة (آية الكساء) **{ إنّما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا }**[١٦٦] ، عندما نزلت هذه الآية أخذ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عليّاً وفاطمة والحسن والحسين وغطّاهم معه بكساء وقال **{ اللهم هؤلاء أهل بيتي ، فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا }**[١٦٧] .

وعلى ذلك ... فإنّ العترة لا تشمل كُلّ الهاشميين ، بل انحصرت في نسل عليّ من الزهراء ، وهمْ أولئك الذين لا تحلّ لهم الصدقة ، وهم المشمولون بالآية الكريمة **{ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى }**[١٦٨] .

بل إنّ هذا النسل الكريم على مرّ الأيام أخرج أئمةً يهدون بالحقّ وبه يعدلون ، وانتشر هذا النسل الشريف في كُلّ بقاع الأرض ــ سيماهم التقوى والورع ونهْج سبيل المؤمنين .

وأحاديث النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عن أهل البيت وعن عليّ مستفيضة:

١٦٦ــ سورة الأحزاب : ٣٣

١٦٧ــ أسد الغابة (مرجع سابق) ٧/٢٤٠

١٦٨ــ سورة الشورى : ٢٣

يقول صلّى الله عليه وآله وسلّم { **يا أيها الناس ... إني تركتُ فيكم ما إنْ تمسّكتم به لن تضلّوا : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي** }[١٦٩] .

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم { **إني تارك فيكم ما إنْ تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي : كتاب الله ؛ حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما** }[١٧٠] .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم { **ألا إنّ مثَل أهل بيتي فيكم مثَلُ سفينة نوح: من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق** }[١٧١] .

و قال أيضا { **إنّما مثَل أهل بيتي فيكم مثَلُ باب حطّة في بني إسرائيل ؛ من دخله غُفر له** }[١٧٢] .

كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم { **اجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد ، ومكان العينيْن من الرأس ، ولا يهتدي الرأس إلا بالعينيْن** }[١٧٣] .

١٦٩ــ يراجع ص ١٠٢ من هذا الكتاب و ما بعدها

١٧٠ــ المصدر نفسه

١٧١ــ رواه الديلمي في الفردوس ٢/٣١٠

١٧٢ــ رواه السيوطي والدارقطني والديلمي وغيرهم كثير

١٧٣ــ خصائص النسائي /٩٢

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم { **مَن مات على حب آل محمد مات شهيداً ، ألا ومَن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له ، ألا ومَن مات على حب آل محمد مات تائباً ، ألا ومَن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان ، ألا ومَن مات على حب آل محمد بشّره مَلَك الموت بالجنة ثمّ منكر ونكير ، ألا ومَن مات على حب آل محمد يُزفّ إلى الجنة كما تُزفّ العروس إلى بيت زوْجها ، ألا ومن مات على حب آل محمد فُتح له في قبره بابان إلى الجنة ، ألا ومَن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ، ألا ومَن مات على حب آل محمد مات على السُنّة والجماعة ، ألا ومَن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بيْن عينيه : آيس من رحمة الله** }[١٧٤] .

وكما فضّل الله العترة الطاهرة فإنّه فضّل علياً أكثر من غيْره، واختصّه الله في كتابه الكريم بآيات تدلّ على هذا الفضل العظيم ...

١٧٤ــ خصائص النسائي /٨٣ وأسد الغابة وابن كثير .

{ إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهمْ راكعون }[١٧٥] ؛ فقد نزلت هذه الآية الكريمة في عليّ عندما كان يصلّي وتصدّق بخاتمه أثناء ركوعه عندما أشار للسائل بإصبعه فأخذ الخاتم منه .

كما نزلت فيه الآية الكريمة من سورة الإنسان **{ ويُطعمون الطعام على حبّه مسكينا ويتيما وأسيرا }**[١٧٦] .

وكثير من الآيات الكريمة التي نزلت في حقّ عليّ ، وكثيرة ومتواترة ومستفيضة تلك الأحاديث النبوية الكريمة التي أشادت بعليّ، **مثل :**

قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم **{ أنا مدينة العلم ، وعليّ بابها ، فمن أراد العلم فليأت الباب }**[١٧٧] .

و قوله صلّى الله عليه و آله و سلّم **{ مَن أحبّ عليّا فقد أحبّني، ومن أبغض عليّا فقد أبغضني }**[١٧٨] .

١٧٥ــ سورة المائدة : ٥٥

١٧٦ــ سورة الإنسان : ٨

١٧٧ــ أسد الغابة ٤/٢٢ ومستدرك الصحيحين ٣/١٢٦ والترمذي في خصائص أمير المؤمنين /٣٥

١٧٨ــ الترمذي في خصائصه /٦٣

و قوله صلّى الله عليه و آله و سلّم **{ مَن آذى عليّا فقد آذاني}**[١٧٩] .

وخاطبه قائلا **{ يا عليّ ..طوبى لمن أحبّك وصدق فيك ، وويل لمن أبغضك وكذب فيك }**[١٨٠] .

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم في جمع من الصحابة **{ إنّ منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله }**[١٨١] ، فاستشرف لها القوم ومنهم أبوبكر وعمر، قال أبوبكر:" أنا هو؟ " قال **{ لا }**، قال عمر: " أنا هو ؟ " قال **{لا، ولكنّ خاصف النعل}** يعني عليّا ...

قال أبوسعيد الخدري : فأتيناه فبشّرناه، فلم يرفع رأسه ؛ كأنه قد سمعه من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وفي يوم غدير خم أخذ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بيد عليّ وقال **{ اللهم من كنتُ مولاه فعليّ مولاه ... اللهم وال من والاه، و عاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله }**[١٨٢] .

١٧٩ــ رواه أحمد في مسنده ٦/٣٢٣

١٨٠ــ الترمذي في خصائصه /٦٥

١٨١ــ رواه أحمد في مسنده ٣/٣١ والمحب الطبري في الرياض النضرة /٦٢٤

١٨٢ــ أحمد في مسنده ٥/٣٢٦ والطبراني في الصغير ١/٦٥

و لذلك فقد كان عمر يقول لعليّ : بخ بخ لك يا ابن أبي طالب ! أصبحت وليّي ووليّ كلّ مؤمن ومؤمنة .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله من الفضائل ما جاء لعليّ بن أبي طالب .

وما كانت كلّ هذه الفضائل وحرص النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم على إبراز فضائله ــ دون الانتقاص بالطبع من فضائل باقي الصحابة الكرام ــ إلا ليجدّ المسلمون في الأخذ منه ؛ لأنّه الأذن الواعية والحريص حرصاً كبيراً على وحدة الأمّة ، شريطة الالتزام بكل ما جاء به القرآن وجاءت به السُّنّة النبوية المطهّرة .

ولذلك فهو يذمّ اختلاف العلماء في الفتيا بقوله[١٨٣] : تَرِد على أحدهم القضية في حُكْم من الأحكام فيَحكم فيها برأيه ، ثمّ ترد تلك القضية بعينها على غيْره فيَحكم فيها بخلافه ، ثُمّ يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوّب آراءهم جميعاً، وإلههم واحد، ونبيّهم واحد، وكتابهم واحد، أفأمرهم الله بالاختلاف فأطاعوه ؟! أم نهاهم عنه فعصوه ؟! أم أنزل الله ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه ؟! أم كانوا شركاء له فلهم أنْ

١٨٣ــ نهج البلاغة ١/٥٤

يقولوا وعليه أنْ يرضى ؟! أم أنزل الله سبحانه ديناً تامّاً فقصّر الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم عن تبليغه وأدائه ؟! والله سبحانه يقول **{ ما فرّطْنا في الكتاب من شيء }** ، فيه تبيان كلّ شيء ، وذكر أنّ الكتاب يصدّق بعضه بعضاً وأنّه لا اختلاف فيه ؛ فقال **{ ولو كان من عند غيْر الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا }** وإنّ القرآن ظاهره أنيق ، وباطنه عميق ، لا تفنى عجائبه ، ولا تنقضي غرائبه ، ولا تُكشف الظلمات إلا به .

ولم تَشغله الخلافة رغم أنّه يرى أنّه الأحقّ بها ، ولكنه آثر وحدة الأمّة ، وانشغل بغسل ودفن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ...

وكما قال ابن سعد في طبقاته[١٨٤] : تُوُفّي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ورأسه في حجْر عليّ ، وغسّله عليّ .

وفي خطبة للإمام عليه السلام قال فيها[١٨٥] : ولقد علم المستحفظون من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أني لم أرد على الله ولا على رسوله ساعةً قطّ، ولقد واسيتُه

١٨٤ــ ابن سعد : الطبقات ٩/٥٠

١٨٥ــ نهج البلاغة ٢/١٧١

بنفسي في المواطن التي تتكص فيها الأبطال و تتأخر فيها الأقدام ، نجدة أكرمني الله بها، ولقد قُبض صلّى الله عليه و آله وسلّم و إنّ رأسه لعلى صدري ، ولقد سالت نفسه في كفي فأمررتها على وجهي ، ولقد وُلّيتُ غسله صلّى الله عليه وآله وسلّم والملائكة أعواني ، فضجّت الدار والأفنية ، ملأ يهبط ، وملأ يعرج ، وما فارقت سمعي هينمة منهم يصلّون عليه ، حتى واريناه في ضريحه، فمن ذا أحقّ به مني حيّاً وميتاً ؟

وحدة الأُمّة هدف الإمام

و في السقيفة تمّت البيعة للصديق، واحتجّوا على الأنصار بأنّ العرب لا ينبغي أنْ تولّي الأمر إلا من كانت النُبوّة فيهم، وبأن الله خصّ المهاجرين الأوائل بتصديق رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، والإيمان به، والمواساة له والصبر معه على الشدة من قومهم ...

وبلغ الإمام احتجاج المهاجرين على الأنصار ، فاحتجّ هو الآخر بالاحتجاج لنفسه عليهم فقال لهم[١٨٦] : زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر لما كان محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم

١٨٦ــ شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد ٦/٥

منكم ، فأعطوكم المقادة وسلّموا لكم الإمارة ، وأنا أحتجّ عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار : إنْ كانت الإمامة في قريش فأنا أحقّ قريش بها ، وإلا فالأنصار على دعواهم ، نحن أولى برسول الله حياً وميتاً ، فأنصفونا إنْ كنتم مؤمنين .

و لمّا علن الإمام انشقاقه، و آثر وحدة الأُمّة ، ثُمّ ذهب إلى أبي بكر وقال له[١٨٧]: أمّا بعْد يا أبا بكر ... فإنّه لم يمنعنا أنْ نبايعك إنكار لفضيلتك ولا نفاسة عليك ، ولكنّا كنّا نرى أنّ لنا في هذا الأمر حقّاً .

فكان الإمام بالفعل يعسوباً للدين عندما آثر وحدة الأُمّة، لكنه في الوقت نفسه أثبت أحقيته في الخلافة ؛ حتى لا يقال بعْده : إنّه لم يطالب بها .

صورة مضيئة من صور الإخاء الإسلامي ترجمه الإمام بفعله وبحديثه وبأخوته للصحابة الكرام ، لم يدخر وسعاً في النصح للخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان رضى الله عن الجميع .

و بعْد بيعة أبي بكر قال الإمام[١٨٨] : أيها الناس ... شقّوا أمواج الفتن بسفن النجاة ، وعرّجوا عن طيف المنافرة ،

١٨٧ــ عبد الله بن سبأ (مرجع سابق) ١ / ١٣٣

١٨٨ــ المصدر السابق ١/٤٠

وضعوا عن تيجان المفاخرة ، أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح ، هذا ماء احن (متغير الطعم واللون) ولقمة يغصّ بها اكلها، و مجتنى الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه، فإنْ أقلْ يقولوا: حرص على الملْك، و إنْ أسكت يقولوا: جزع من الموت، هيهات بعد اللتيا والتي، والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه، بل اندمجتُ على مكنون علْم لو بحتُ به لاضطربتم اضطراب الأرشية (الحبال) في الطوى (البئر) البعيدة .

والإمام في هذا يشرح مقصده ليعلم الجاهل والغائب، فهو بين نارين: إنْ طلب الخلافة التي يراها حقّه يقولون عنه: إنّه يحرص على الملك، وإن سكت عمّا يراه حقّاً له يقولون: جزع من الموت، ويعسوب الدين حرص أنْ يجمع بين الضدين: يُثبت حقّه في الخلافة، ثُمّ يدعها حرصاً على مصلحة الأُمّة .

أليس من يفعل ذلك يجعله الله على لسان رسوله يعسوباً للدين؟!

ألم يكن في وسعه لو أراد أنْ يحتجّ على المهاجرين بأحقيته في الخلافة ويخرج بالمؤيدين له ــ وهمْ كثير ــ على الخليفة وتكون فتنة ؟! وعمر نفسه يصف ما حدث في السقيفة بقوله بأنّها : كانت فلتة وقى الله شرّها .

ولكنه الإمام الذي يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة ، وكم كانت به خصاصة .

وعندما ماتت الزهراء عليها السلام وأخذ في دفنها ذهب إلى قبر النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال[١٨٩] : السلام عليك يا رسول الله ... عني وعن ابنتك وزائرتك ، والمختار لها سرعة اللحاق بك، قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري، ورقّ عنها تجلّدي، إلا أنّ لي التأسي بسنّتك، وفي فُرقتك موضع تعزٍّ، إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، قد استُرجعت الوديعة، وأُخذت الرهينة، واختلست الزهراء، فما أقبح الخضراء والغبراء ...

يا رسول الله ... أمّا حزني فسرمد، وأمّا ليلي فمسهّد، ولا يبرح ذلك من قلبي حتى يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم، كمد مبرح، وهمّ مهيّج، سرعان ما فرّق بيننا يا رسول الله، فبعين الله تُدفن ابنتك سرّاً، ويُهتضم حقّها قهراً، ويُمنع إرثها جهراً، و لم يطلْ منك العهد، ولم يخلق منك الذكْر فإلى الله المشتكى ، وفيك أجمل العزاء ، وصلوات الله عليك وعليها و رحمة الله و بركاته .

١٨٩ــ نهج البلاغة ٢/١٨٢

فهو يتأسى برسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم في الصبر، و يشكو إلى الله حزنه على فراقه البتول ، و يشكو إليه ـ أيضاً ـ منع حقّها من إرث فدك ويتجمل بالعزاء و السلوان ...

إنّه يعسوب الدين ، يشكو إلى الله عُجرَه و بُجره، ولكنه في النهاية يؤثر مصلحة الأُمّة أوّلاً وآخراً .

وفي قضية إرث الزهراء من فدك ما فيها ؛ فقد سمع أبو بكر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول [١٩٠] **{ إنّا معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة }** ، ولكنّ زوجة الإمام رأت أنّ الأنبياء يورثون، واستشهدت بالآية الكريمة **{وورث سليمان داود }**[١٩١] والآية **{ فهبْ لي من لدنك وليّاً يرثني ويرث من آل يعقوب }** [١٩٢]...

ولذلك فإنّ عمر بن عبد العزيز لمّا ولي الخلافة أعاد فدك لأبناء الزهراء رغم أنّ الإمام في أثناء خلافته لم يُعدْها لهم ـ ربما وهو الأقرب لنفسية الإمام ـ حتى لا يقال بأنّه يعطي لأولاده وهو خليفة ما مُنع عنهم من قَبل .

١٩٠ـ البحراني ٤ / ١١٨

١٩١ـ سورة النمل / ١٦

١٩٢ـ سورة مريم / ٦

و هذا الخلاف أغضب الزهراء، و ماتت غاضبة، و بعد أن رأى أبوبكر هذا الغضب منها طلب من الصحابة أنْ يقيلوه من بيعتهم له، ولكنهم رفضوا والإمام نفسه رفض رغم ما حدث له وللزهراء؛ لأنّه في النهاية يرى صالح الأُمّة و ما هي عليه من وحدة، و يخشى التفرق لو أقيل أبوبكر.

ثمّ جمع بعضاً من صحابة النّبيّ وعلّمهم كيفية الصلاة على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال لهم[١٩٣] : اللهم داحي المدحوّات (باسط المبسوطات)، وداعم المسموكات، وجابل القلوب على فطْرتها، شقيّها وسعيدها ، اجعل شرائف صلواتك ونوادي بركاتك على محمد عبْدك و رسولك، الخاتم لما سبق، والفاتح لما انغلق، والمعلن الحقّ بالحقّ، والدافع جيشان الأباطيل ، والدافع صولات الأضاليل ، كما حمل فاضطلع قائماً بأمرك ، مستوفزاً في مرضاتك، غير ناكل عن قدُم، ولا واهٍ في عزْم ، داعياً لوحْيك، حافظاً لعهْدك، ماضياً على نفاذ أمْرك، حتى أورى قبس القابس ، وأضاء الطريق للخابط، وهديت به القلوب بعْد خوضات الفتن، وأقام موضحات العلام ونيّرات الأحكام، فهو

١٩٣ـ نهج البلاغة ١/ ١٢٠

أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، و شهيدك يوم الدين ، وبعيثك بالحق، و رسولك إلى الخلق ...

اللهم افسح له مفسحا فى ظلك، واجزه مضاعفات الخير من فضلك.

اللهم أعل على بناء البانين بناءه ، وأكرم لدنك منزلته ، وأتمم له نوره ، واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة ومرضى المقالة ، ذا منطق عدل ، وخطة فصل .

اللهم اجمع بيننا وبينه فى برد العيش ، وقرار النعمة ، ومنى الشهوات ، وأهواء اللذات ، ورخاء الدعة ، ومنتهى الطمأنينة ، وتحف الكرامة .

وكما علمهم كيفية الصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم علمهم معنى **{ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين }**[١٩٤] ؛ والإمام رأى الخلافة تعدل عنه ثانية وتتخطاه من جديد ، وهو يرى أنه محل القطب من الرحى ، فيسترجع ويقول[١٩٥] : اللهم اغفر لى ما أنت أعلم به منى ، فإن عدت فعد على بالمغفرة ... اللهم اغفر لى ما وأيت من نفسى

١٩٤ــ سورة الحجر : ٤٧

١٩٥ــ نهج البلاغة ١/١٢٧

ولم تجد له وفاء عندى ... اللهم اغفر لى ما تقربت به إليك بلسانى ثم خالفه قلبى اللهم اغفر لى رمزات الألحاظ وسقطات الألفاظ وشهوات الجنان وهفوات اللسان .

وبعدها أخذ يكيل النصح للخليفة وهو يراه يعدل بين الرعية ويساوى بين الناس ويقتص حتى من نفسه وولده ، يمدحه قائلا[١٩٦] : لله بلاد فلان ! لقد قوم الأود ، وداوى العلل ، وأقام السنة ، وخلف البدعة ، وذهب نقى الثوب قليل العيب ، أصاب خيرها ، واتقى شرها ، أدى لله طاعة ، واتقاه بحقه .

وظل بجوار عمر، يعلم الناس، ويحثهم على الجهاد لنشر كلمة الإسلام القائمة على التوحيد لله، مخلص النصح للخليفة ، قاضيا بين الناس فيما أشكل عليه من أمور، حتى قال عمر : لولا علىّ لهلك عمر .

وأثناء الفتوحات يقرر عمر أن يذهب بنفسه لحرب الروم ، فيشير عليه الإمام بعدم الخروج ويقول له[١٩٧] : وقد توكل الله لأهل هذا الدين بإعزاز الحوزة وستر العورة ، والذى نصرهم وهم قليل لا ينتصرون ومنعهم وهم قليل لا يمتنعون إنك متى

١٩٦ــ نهج البلاغة ٢/٢٢٢

١٩٧ــ المصدر السابق ٢/١٨

تسرّ إلى هذا العدوّ بنفسك فتُلقهم بشخصك فتُنكب لا تكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم ، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً محرّباً، واحفز معه أهل البلاد والنصيحة فإنّ أظهر الله فذاك ما تحبّ، وإنْ تكن الأخرى كنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمين ...

و لم يخرج عمر، وانتصر المسلمون على الروم .

ولما اشتدّ الفرس على المسلمين في القادسية قرّر عمر الخروج بنفسه لحربهم، ومن جديد يمنعه الإمام، ويأخذ الفاروق بنصيحته فلايخرج ، و في مقالته قال[١٩٨] : إنّ هذا الأمر لم يكن نصره و لاخذلانه بكثرة ولابقلّة، و هو دين الله الذي أظهره ، وجنده الذي أعدّه وأمدّه حتى بلغ ما بلغ ، ونحن على موعد مع الله ، والله منجز وعده وناصر جنده ، ومكان القيّم بالأمر مكان النظام من الخرز ؛ يجمعه ويضمّه ، فإذا انقطع النظام تفرّق الخرز وذهب ثُمّ لم يجتمع بحذافيره أبداً، والعرب اليوم وإنْ كانوا قليلاً فهمْ كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع ، فكن قطباً واستدر الرحى بالعرب ، وأصلهم دونك نار الحرب ؛ فإنك إنْ شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من

١٩٨ــ تفسير الثعلبي ٢/٢٩

أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهمّ إليك ممّا بين يديك ، إنّ الأعاجم إنْ ينظروا إليك غداً يقولوا: " هذا أصل العرب؛ فإذا قطعتموه استرحتم "، فيكون ذلك أشدّ لكلبهم عليك وطمعهم فيك ...

فأمّا ما ذكرت من سيْر القوم لقتال المسلمين: فإنّ الله سبحانه هو أكره لسيْرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره .

أمّا ما ذكرت من عددهم : فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنّما كنّا نقاتل بالنصر والمعونة من الله تعالى .

فقد كان الإمام حريصاً على المسلمين وعلى الخليفة وعلى وحدة الدولة.

وقد وافق الإمامُ عمر عندما منع كبار الصحابة من الخروج إلى البلاد المفتوحة حتى لا يفتتن الناس بهم ، كما خشي مع عمر من الثروات الهائلة التي كانت تدرّ على الناس ؛ خشيةً من فتنة الدنيا للصحابة ، وخشيًا من هذه الدنيا المقبلة الجديدة والتي حاول عمر جاهداً أنْ يمنع تأثيرها الضار على الأجيال المقبلة التي لم تشهد مطلع نور الوحي ولم تتشرف برؤية صاحب الرسالة صلّى الله عليه وآله وسلّم ، خشيًا من هذه الدنيا التي كانت تتشرف لها نفوس فتكنز الذهب والفضة ، حتى إنّ

بعضهم كان لديه من الذهب ما يُكسر بالفئوس ، والآخر كان لديه ضياع وإماء فتن بهنّ .

ورأى الإمام عمر يختار ستّة من كبار المهاجرين لكي يختاروا من بينهم الخليفة الجديد، لم يشأ أنْ يختار واحدا بالاسم كما فعل أبو بكر معه ، ورغم ذلك تمنّى أنْ يختار القوم عليّا وردّد :" لو ولّوها الأجلح لأخذهم على الجادة " ولكنّه لم يفعل ، ولينّه فعل .

الإمام في خضم الفتنة

واختار القوم عثمان بن عفان خليفةً للمسلمين بعْد أن اشترط على نفسه العمل بكتاب الله وسنّة رسوله وبسيرة الشيخيْن أبي بكر وعمر ، والعمل بسيرة الشيخيْن هو الشرط الذي لم يقبله الإمام ؛ لأنّه كان يرى أنهما اجتهدا وأنّه سيجتهد مثلهما، وفي النهاية تمّت البيعة لعثمان، ومن جديد رأى الإمام أنّه يذاد عنها ، ولكنه في النهاية آثر وحدة الأمّة وخشي من الفتن إنْ أعلن الخروج عن طاعة الخليفة ، ولكنه أكّد أحقيته كثيراً فيها ، فيردّ على رجل من بني أسد سأله :" كيف دفعكم قومكم عن هذا

المقام وأنتم أحقّ به؟ " فقال [١٩٩]: يا أخا بني أسد ... إنك لقلق الوضين؛ ترسل في غير سدد، ولك بعْد ذمامة الصهر وحقّ المسألة ، وقد استعلمت فاعلم ...

أمّا الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسباً والأشدّون برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم نوطاً : فإنّها كانت أثرة شحّت بها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين، و الحكم الله ، والمعود إليه يوم القيامة ...

ثمّ قال : اللهم إني أستعديك على قريش ؛ فإنهم قطعوا رحمي ، وأكفأوا إنائي ، وأجمعوا على منازعتي حقّاً كنتُ أولى به من غيري ، وقالوا : " ألاَ إنّ في الحقّ أنْ تأخذه ، وفي الحقّ أنْ تمنعه ، فاصبر مغموماً ، أو متْ متأسفاً " ، فنظرتُ فإذا ليس لي رافد ولا ذابّ ولا مساعد، إلا أهل بيتي ، فضننتُ بهم عن المنيّة ، فأغضيتُ على القذى ، وجرعتُ ريقي على الشجى وصبرتُ من كظْم الغيظ على أمرّ من العلقم وآلم للقلب من حزّ الشفار (حد السيف) .

وقد كان الإمام يعلن أحقيته كلّ حين لكي يعلم الغائب وغير العالم بأنّ أهل بيت النّبيّ أولى بالخلافة من غيرهم ، ولكنه لم

١٩٩ــ نهج البلاغة ٢/٦٣

يحدث منه أن أعلن عن نيته بعدم البيعة ، فكما بايع أبا بكر وعمر بايع عثمان على أمل أن يستقرّ الحال على ما هو عليه في النفوس التي كانت تشتاق لأيام الوحي الذي ينزل من السماء، ولكنّ الوحي انقطع، ولم يبق من الوحي غير المبشّرات : الرؤيا التي يراها الرجل الصالح أو تُرى له .

ولكنّ الأيام أتت بما لا يشتهي الإمام وبما لا تشتهي نفوس المؤمنين ؛ فقد استغلّ الأمويون عطْف الخليفة عليهم فولاهم الإمارات لكي يعدلوا بين الناس ولكنّهم أثْروا وكنزوا الذهب والفضة ، وظلموا عباد الله من المؤمنين ، واعتبروا الخلافة مُلكا أمويا كما صرّح أبو سفيان[٢٠٠] : " إنّه المُلْك ؛ فاحرص عليه " . المُلك لا الخلافة ... الدنيا لا الاخرة .

والخليفة عثمان يسأل عن الرعية والعدل بينهم فيُزيّن له الولاة الأمويّون أنّ العدل يشمل الجميع ، والأمن مستتبّ ، وأنّه لا توجد شكايات بين المسلمين ، وكانوا يرسلون له رعايا من المنتفعين يؤكدون للخليفة كُلّ ما يزعمون .

ومروان بن الحكم بخاتم عثمان يُصدر الأوامر للولاة ويتبجّح على الصحابة ، ويعتبر نفسه وزيراً لملك ، ولكنّ

٢٠٠ــ البداية والنهاية (مرجع سابق) ج ٨ / ٩٩

الخليفة يعتقد ــ عن عطْفه على ذوي قرابته ــ أنّ المشاغبين الذين بدأوا يطالبون بالعدل والمساواة ما همْ إلا شراذم يجب تأديبها، وبالفعل تمّ تأديب بعض الصحابة ونفي الآخرين، مثل : عمّار بن ياسر و أبي ذرّ الغفاري وعبدالله بن مسعود، فتجمعت الثورة ، حتى كان من أمْر الثوار مع الخليفة ، فقتلوه و هو يتلو آيات الله في المصحف المفتوح أمامه[٢٠١]، فسقطت دماؤه على الآية الكريمة **{ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم }**[٢٠٢] . و قد كفاه الله ؛ فقدْ قتل من قتلوه، وهمْ ألوف .

و قد كان موقف الإمام عليّ من الفتنة موقفاً ينمّ عن أنّه يعسوب الدين ؛ فعثمان يُحكم موقعه كخليفة للمسلمين تجب له الطاعة ، وبما يحدث من تسلُّط الأمويين يجب نصْح الخليفة ...

اتخذ الإمام طريقاً يجعله حقيقة يعسوب الدين ؛ ظلّ على ولائه لولي الأمر، و في الوقت ذاته لم يدخر وسعاً في نصحه ...

ذهب إليه أوّلاً وقال له[٢٠٣] : يا أمير المؤمنين ... ألا تنهى سفهاء بني أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم ؟ والله لو ظلم عامل من عُمّالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه

٢٠١ ــ البداية و النهاية ، ١٨٦/٧ ــ ١٨٨

٢٠٢ــ سورة البقرة : ١٣٧

٢٠٣ــ نهج البلاغة : ٦٨/٢

مشتركاً بينك وبينه، فارجع إلى الله، فحتّى متى ؟ و إلى متى؟[٢٠٤]

ثُمّ يذهب إليه مرّة أخرى بعد إلحاح من الناس فيقول له : إنّ الناس ورائى قد كلّمونى فيك، والله ما أدرى ما أقول لك ؛ فما أعرفك شيئاً تجهله ولا أدلّك على أمر لا تعرفه ، وإنّك لتعلم ما نعلم، وما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، لقد صحبت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وسمعت ورأيت مثل ما سمعنا ورأينا، وما ابن أبى قحافة وابن الخطّاب بأولى بالحقّ منك، ولأنت أقرب إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم رحماً، ولقد نلت من صهره ما لم ينالاه، فالله الله فى نفسك ؛ فإنّك لا تبصر من عمى، ولا تعلم من جهل[٢٠٥] ...

فقال له عثمان : والله لو كنت مكانى ما عنّفتك ولا أسلمتك، ولا عتبت عليك أنْ وصلت رحماً وسددت خلّة وآويت ضائعاً، أو لم يولّ عُمر معاوية ؟

فقال له علىّ: إنّ ابن عمّك معاوية كان أشدّ خوفاً وطاعة لعُمر من غلامه، ولكنّ معاوية الآن يبتزّ الأمر دونك ويقطعها

٢٠٤ــ المصدر السابق ٢/٦٩

٢٠٥ــ المصدر السابق ٢/٧٠

بغير علمك، ويقول للناس: " هذا أمر عثمان "، و يبلغك فلا تغير[٢٠٦] .

ولكنّ الخليفة ــ تحت تأثير بطانة الأمويين ــ اعتقد أنّ علياً تلتفّ الناس من حوله، وأنّ الناس تتجرأ على مقام الخليفة باسمه، و زيّنوا له أنْ ينفى علياً إلى ينبع، فنفاه .

ولكنّ الثورة ظلّت متأجّجة ، وعلم الخليفة أنّ علياً هو أنصح الناس له وأخلصهم، فطلب منه العودة، فسمع وأطاع وعاد، ولكنّ الثوار قد أحكموا حصار دار الخليفة، و أرسل الإمام ولديه الحسن والحسين ليدافعا عن الدار ، ولكنّ الخليفة طلب من الجميع إنْ كانوا يعتبرونه إمامهم وله عليهم الطاعة أنْ ينصرفوا، وما كان يريد أنْ تُهرق الدماء بسببه فى مدينة النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وبجواره، فخرج أبناء الصحابة ليدافعوا عن الدار من خارجها، ولكنّ الخوارج تسوّروا من خلفها وقتلوا الخليفة .

و ظلّت الأمّة بلا خليفة ، والثوار يطلبون الإمام لكى يتسلم الخلافة، وصحابة النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يطلبونه ــ

٢٠٦ــ المصدر نفسه ١/٧٦

أيضاً ــ بعد أنْ تأخّرت عليه كثيراً ؛ لأنّه إمام الهدى و إمام المتقين و قائد المساكين و يعسوب الدين .

سألوه عن عثمان و الثوار، فلخّص القضية في قوله: استأثر فأساء الأثرة، و جزعوا فأساءوا الجزع، و لله أمْر واقع في المستأثر و الجازع[٢٠٧] .

فعادوا يطلبونه، و هو يلحّ عليهم أنْ يطلبوا غيْره، و في النهاية كان لا بد مما ليس منه بد ؛ فالأُمّة تحتاج إليه هو لو الدنيا أقبلت، و عرفت التخمة طريقها إلى البطون، و الأهواء إلى العقول .

و أطلّت العصبية بعد أنْ غابت خلال سنين الوحي و أثناء خلافة الشيخيْن ولكنّها عادت من جديد، وليس لقمْعها مرّة أخرى سوى أبي حسن، الإمام الذي تتفجر الحكمة منه، و الإيمان في مشاشه .

بيعة ليست فلتة

وأخيرا ... بويع الإمام بيعة عامّة على ملأ من الصحابة و بيعة منهم جميعاً مهاجرين و أنصار، وقادة و ولايات، حتى الثوار

٢٠٧ــ المصدر السابق ١/٧٦

بايعوه، فصعد المنبر و خطب الناس قائلا : إنّ الله تعالى أنزل كتابا هاديا بيّن فيه الخير و الشرّ، فخذوا نهج الخير تهتدوا، و اصدفوا عن سمْت الشرّ تقصدوا، الفرائض الفرائض؛ أدّوها إلى ربّكم إلى الجنّة، إنّ الله حرّم حراما غير مجهول، و أحلّ حلالا غير مدخول، و فضّل حرمة المسلم على الحُرم كلّها، و شدّ بالإخلاص و التوحيد حقوق المسلمين في معاقدها (مواضعها) . فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده إلا بالحقّ ، و لا يحلّ لأحد مسلم إلا بما يجب ، باذروا أمر العامة و خاصّة أحدكم و هو الموت؛ فإنّ الناس أمامكم، و إنّ الساعة تحدوكم من خلفكم، تخفّفوا تلحقوا ؛ فإنّما ينتظر بأولكم آخركم، اتقوا الله في عباده و بلاده؛ فإنّكم مسئولون حتى عن البقاع و البهائم، أطيعوا الله و لا تعصوه، و إذا رأيتم الخير فخذوا به، و إذا رأيتم الشرّ فأعرضوا عنه[٢٠٨] .

فقام إليه قوم من الصحابة فقالوا له : لو عاقبت قوما ممن أجلب على عثمان ؟

فقال : يا إخوتاه ... إني لست أجهل ما تعلمون ، ولكن كيف لي بقوة و القوم المجلبون على حدّ شوكتهم ؛ يملكوننا و لا

٢٠٨ــ نهج البلاغة ٢/٧٨

نملكهم ، وها همْ هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، والتفت إليهم أعرابكم ، وهمْ خلالكم يسومونكم ما شاءوا ، وهلْ ترون موضعاً لقدرة على شيء تريدونه ؟! إنّ هذا الأمر أمر جاهلية ، وإنّ لهؤلاء القوم سادة[٢٠٩] ...

إنّ الناس من هذا الأمر ــ إذا حرّك ــ على أمور : فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك ؛ فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق مسمحة، فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم به أمري ، ولا تفعلوا فعلة تُضعضع قوّة وتُسقط منّة وتورث وهناً وذلّة ، وسأمسك الأمر ما استمسك ، وإذا لم أجد بدّاً فآخر الدواء الكي .

واقتنع الصحابة بحديث أمير المؤمنين ، ولكنّ بعضهم من الذين بايعوه كانوا يريدون أنْ يكونوا شركاء في الخلافة بالمشاورة المباشرة بجوار العمود الذي اختاره الإمام في مسجد النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ليكون إيوان الحُكْم ، وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير ، خاصّة وأنّه أكّد أنّه سيعيد الأموال التي أقطعها عثمان لأقربائه وبعض الصحابة فقال :

٢٠٩ــ المصدر السابق ٢/٨٠

والله لو وجدته قد تزوّج به النساء وملك به الإماء لرددته ؛ فإنّ في العدل سعةً، ومَن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق[٢١٠] .

ثُمّ بدأ يوضّح صفة الحُكْم وعنوان الخلافة التي شرع يرسيها ، فقال في صفة مَن يتصدى للحُكْم بيْن الأُمّة وليس لذلك أهلا : إنّ أبغض الخلائق إلى الله رجلان : رجل وكله الله إلى نفْسه ؛ فهو جائر عن قصْد السبيل ، مشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة ، فهو فتنة لِمَن افتتن به ، ضالّ عن هدى مَن كان قبْله ، مُضلّ لِمَن اقتدى به في حياته وبعْد وفاته ، حمّال خطايا غيْره رهْن بخطيئته ...

ورجل قمش جهلاً (جمعه) ، موضع في جُهّال الأُمّة ، عاد في أغباش الفتنة ، عم بما في عقْد الهدنة ، قد سمّاه أشباه الناس " عالماً " وليس به ، تكثّر فاستكثر ، من جمع ما قلّ منه خير ممّا كثر ، حتى إذا ارتوى من آجن واكتنز من غيْر طائر جلس بيْن الناس قاضياً ، ضامناً لتخليص ما التبس على غيْره ، فإنْ نزلت به إحدى المبهمات هيّأ لها حشواً رثّاً من رأيه ثُمّ قطع به ، فهو من لبس الشبهات في مثْل نسْج العنكبوت ، لا يدري أصاب أم أخطأ ، فإنْ أصاب خاف أنْ

٢١٠ــ المصدر السابق ١/٤٦

يكون قد أخطأ ، وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب ، جاهل خابط خبّالاً ، عائش ركّاب عشوات ، لم يعضّ على العلم بضرس قاطع ، يذرو الروايات إذراء الريح الهشيم ، لا ملئ والله بإصدار ما ورد عليه ، ولا هو أهل لما فوّض إليه ، لا يحسب العلم في شيء مما أنكره ، ولا يرى أنّ من وراء ما بلغ مذهباً لغيره ، وإن أظلم أمر اكتتم به ؛ لما يعلم من جهل نفسه، تصرخ من جور قضائه الدماء، وتعجّ منه المواريث ...

إلى الله أشكو من معشر يعيشون جُهّالا ويموتون ضلاّلا ، ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تُلي حقّ تلاوته ، ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حُرّف عن مواضعه ، ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر[٢١١] .

ذكر الإمام بعض حالنا ما نقول ، فإذا كان هذا فيما يخصّ القضاء بين المسلمين في أمورهم الشخصية فكيف بمن يحكم الأمة ، هو عند أهل التحقيق ؟!

قد يعضّ بعضنا أسنانه حين سوّى بين المسلمين في عطائهم، وأعلن أنّ العوالم هم بيضة الإسلام وهم حماة الدين ، وليس الخاصة هم الذين يقومون بهذا الدور ، فقال : إنّ سخط

٢١١ــ نهج البلاغة ١/٥٠

العامة يُجحف برضا الخاصة ، وإنّ سخط الخاصة يُغتفر مع رضا العامة ، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤنة في الرخاء و أقلّ معونة له في البلاء و أكره للإنصاف و أسأل بالإلحاف وأقلّ شكراً عند الإعطاء وأضعف صبراً عند ملمّات الدهر من أهل الخاصة ، وإنّما عمود الدين وجماع المسلمين والعدة لأعداء العامة من الأمّة[٢١٢] .

العامة همّ مادة الإسلام ، والخاصة من المترفين لا يستطيعون الجهاد ، فضلاً عن طلباتهم الدائمة في عدم مساواتهم مع العامة ؛ معتبرين أنفسهم فوق عباد الله ، فهمّ عقبة دائمة ضد التغيير ...

وقد كان هؤلاء الخاصة هم الذين حاربوا النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم في مكة و جمعوا الأحزاب لحربه و إطفاء دعوته ، أمّا الدهماء من العامة فهم الذين دخلوا الدين الحديد و دافعوا عنه .

باستثناء بعض الخاصة، والذين يظلّون عبر التاريخ استثناء عن القاعدة والقاعدة دائما هم من ذكرهم الإمام بـ" العامة "، والعوامّ الذين يقصدهم همّ عامة المسلمين من عرب و موال ،

٢١٢ــ المصدر السابق ٣/٨٦

لا فضل لعربيّ على أعجميّ ولا لأحمر على أبيض إلا بالتقوى كما ذكر النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فالتفّ حوله من الموالى الكثير الذين أسلموا عن يقين ، ولكنّهم دوماً كان يُنظر لهم باعتبارهم أقلّ منزلةً من العرب ، ولكنّ الإسلام لا يعرف هذه التفرقة .

وكلمات الإمام وجدت صداها فى قلوب الموالى فى المدينة وغيرها من مدن دولة الإسلام ، خاصّةً عندما وصلت كلماته لهم يقول فى بعضها : فأيّما رجل استجاب لله ولرسوله فصدّق ملّتنا ودخل فى ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده .

وقد نفّذ ما قاله مباشرةً ؛ فقد ساوى فى العطاء بيّن جميع الناس : الموالى والسادة ، فأخذ بعض الذين اعتبروا أنفسهم من الخاصة بإعلان عدم الرضا ، ولكنّ الإمام يصدّهم .

أعطى أخته أمّهانئ بنت أبيطالب عطاءها عشرين درهماً ، وأعطى مولاتها الفارسية عشرين درهماً ، فطلبت أمّ هانئ التميز عن جاريتها ، فقال لها [٢١٣]: يا أختاه .. انصرفى

٢١٣ــ موسوعة الإمام على (مرجع سابق) ٣ / ٨٥

رحمكِ الله ، ما وجدْنا فى كتاب الله فضلاً لآل إسماعيل على آل إسحاق .

وجاءه طلحة والزبير فسألاه العطاء الذى كانا يأخذانه من عمر ، فقال لهما الإمام [٢١٤]: فماذا كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يعطيكما ؟ أليس كان رسول الله يقسم بالسوية بيّن المسلمين من غيْر زيادة ؟

فسكتا وخرجا ، ثُمّ عادا إليه بَعْد أيام فقالاَ : هل تدرى علامَ بايَعناك يا أميرالمؤمنين ؟

قال : نعم : على السمع والطاعة ، وعلى ما بايَعتم عليه الخلفاء من قبلى أبا بكر وعمر وعثمان .

فقالاَ : ولكنّا بايعناك على أنّا شريكاك فى الأمر .

قال : لا ، ولكنّكما شريكان فى القول والاستقامة والعون . وطلب منه طلحة ولاية البصرة، وطلب الزبير ولاية الكوفة ، فرفض طلبهما ؛ لأنّهما أظهرا حرصاً على الولاية ، وقال : لو كنتُ مستعملاً أحداً لضرّه أو نفْعه لاستعملتُ معاوية على الشام [٢١٥] .

٢١٤ــ نهج البلاغة ٦/٢

٢١٥ــ المصدر نفسه

فخرج طلحة والزبير إلى مكة والتقيا أمّ المؤمنين عائشة ، و خرجوا يطلبون قتلة عثمان في البصرة، فكانت موقعة الجمل، قُتل فيها طلحة بسهم مروان بن الحكم ، وقُتل الزبير غيلة بعد أن خرج من المعركة بعد أن ذكّره الإمام بأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال له بأنه سيقاتل عليّاً وهو له ظالم ، اما ام المؤمنين فقد ندمت على خروجها ، وظلّت نادمة حتى وفاتها رضي الله عنها .

في هذه المعركة فقد ظهر سلوك الإمام كيعسوب للدين على حقيقته ؛ فهو يعلم يقيناً أنّ الأمويين كانوا وراء خروج طلحة والزبير وام المؤمنين ، وانهم كانوا يريدون إفساد إمارة الإمام بأيّ وسيلة ؛ لأنهم يعلمون جميعاً أنّه لم يكن له يد في قتل عثمان ، ولكنّها العصبية عادت من جديد ، وأنهم لا ينسون أن عليّاً وترهم في المعارك حينما كانوا مشركين ...

والإمام عندما خرج إليهم إلى البصرة كان يودّ لو يوحّد صفوف المسلمين من جديد لكي يبدأ نشر الدعوة إلى الحجارى والمستضعفين من غير العرب إلى التوحيد وإلى الخلاص من تأليه الأباطرة والأكاسرة والملوك المتعفنين ، ولكن أنّى له ذلك وفريق لا يستهان به من الأمة يقفون ضده وهو يرسي دعائم الخلافة الراشدة القائمة على منهاج النُبوّة ؟!

وكان الإمام يضنّ بأيّ دماء تُسفك من المسلمين ، وآخر الحرب حتى يبدأوه بها .

سأله رجل من أصحابه[٢١٦] : يا أمير المؤمنين ... أيّ شيء تريد ؟

قال : الذي نريد ونبتغي فإصلاح إنْ قبلوا منّا .

قال الرجل : فإنْ لم يقبلوا ؟

قال : ندعوهم ونعطيهم من الحقّ ما نرجو أنْ يرضوا به .

قال الرجل : فإنْ لم يرضوا ؟

قال : ندعهم ما تركونا .

قال الرجل : فإنْ لم يتركونا ؟

قال الإمام : نمتنع عنهم .

أيّ صبرٍ هذا يا إمام ؟!

أناس يخرجون على إمارتك وأنت أميرهم التقيّ ، فتعطيهم العذر بعد العذر ، و ترجوا من الله حقن دمائهم، و أخّرت آخر الدواء الكيّ عندما أعلن القوم تمسّكهم بما جاءوا له ، وقد كانت الحرب آخر الدواء .

٢١٦ـ على إمام المتقين (مرجع سابق) ٤٩/٢

أمر رجاله قائلاً قُبيل الحرب[٢١٧]: يـا أيهـا النـاس ... إذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح ، ولا تتبعوا موليـا ، ولا تطلبوا مدبراً ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيـل ، ولا تهتكوا ستراً ، ولا تفرقوا شيئا من أموالهم إلا ما تجدونه فـي عسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد أو أمة ، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو امن .

و نفّذ أصحابه تعليماته ، وبعد النصر فإنّه صـلّى علـى القتلى من الفريقين الموالين والخصوم ، وبكى أحرّ بكاء عندما رأى طلحة مجندلاً تحت نجوم السماء ، وحـزن عنـدما رأى سيف الزبير الذى طالما كشف الكروب عن رسول الله صلّى الله عليه واله وسلّم ، وأعاد أمّ المؤمنين معزّزة مكرمة إلى مكـة المكرمة ، وجلد من سبّها ؛ فهى أمّ المـؤمنين وزوج النّبـىّ الكريم فى الدنيا والاخرة ، و وضع دستورا للأُمّة بعده فى كيفية قتال الناكثين من المسلمين ، وما كان أحد يدرى حُكْـم قتـال هؤلاء ، وقد ابتُلى الإمام بهم ، فقاتلهم على سُنّة النّبىّ الكريم صلّى الله عليه واله وسلّم .

٢١٧ــ المحضر السابق ٢/٥٣

وبسبب سيرته تلك فى قتال الناكثين كان الجميع منهم فـي ندم ...

طلحة يقول لأمّ المؤمنين أثناء المعركة : ما عدتُ أعـرف أمخطئ أنا أم مصيب يا أمّ المؤمنين .

والزبير يخرج من ميدان المعركة نادماً ، وأمّ المؤمنين تندم على ما فرّطت فى حقّ الإمام بخروجها عليه .

الإصرار الأموى على الفتنة

أمّا الأمويون فهمْ وحْدهم الذين لم يشعروا بالندم، ولئن هُزموا فى " الجمل " فإنّ لهم ملاذاً فى دمشق عند كبيرهم معاوية الذى لم يبايع إمام الهدى و تَرَك الأمويين وحْدهم فى "الجمل " ليتحصّن فى دمشق التى طال أمدُ ولايته عليها إلى عشرين عاماً. يطلب الإمام من المسلمين[٢١٨] : لَعمْرى ما علىّ من قتال مـن خـالف الحقّ وخابط الغىّ من إدهان ولا إيهان ، فاتقوا الله عباد الله ، وفرّوا إلى الله من الله ، وامضوا فى الذى نهجه لكم ، وقُوموا

٢١٨ــ نهج البلاغة ١/٦٣

بما عصبه بكم ، فعلىّ ضامن لفلجكم آجلاً ، وإن لم تمنحوه فعاجلاً .

وبانتهاء موقعة الجمل لم يتبق لوحدة الصف الإسلامىّ سوى الشام وأميرها معاوية . لقد انتهت " الجمل " بندم المشاركين فيها ضد الإمام ، أمّا معاوية فقد ظلّ الإمام على موقفه بأنّ معاوية لا يصلح للإمارة ؛ لأنّه اتخذ المال وسيلة لتثبيت الحكم وليس لنشر العدل والمساواة بين الناس ، كما أنّه نهض بنابذ الخليفة الشرعىّ للمسلمين الذى بايعه المهاجرون والأنصار بأسرهم ، لم يتخلف أحد منهم سوى سبعة نفر ندموا بعد فوات الأوان لأنهم لم يبايعوه ولم يشاركوه حربه ضد الفئة الباغية ، فهو إمام الهدى ، وإمام المتقين ، وقائد الغرّ المحجّلين ، وباب مدينة العلم ، و يعسوب الدين .

ولكنّ معاوية يرسل إليه بطلب مُعجز : يطلب من إمامه تسليم قتلة عثمان وهم ألوف ، مُعظمهم غير معروفين ، والمعروفون منهم للإمام فى جيشه من المولّين وليسوا من المشاركين ، وكلّهم يعتقدون أنهم نفّذوا ما أوصى الله به وهم مخطئون ...

ثمّ كيف يطلب أحد من المسلمين الثأر من قتلة الخليفة عثمان وهو أصلاً لم يبايع؟!

أفلا يدخل فى البيعة ثمّ يطلب رسميّاً القصاص ؟ أم أنّها الحجة لعدم الإذعان واتخاذ ذلك الأمر وسيلةً للمُلك العضوض فيما بعْد ؟

وحقيقةً لقد ظلّ الإمام على هدى من ربّه فى معاوية ، ظلّ يكيل له النصح ولا يرعوى ، ظلّ يناشده وحدة الصف ، فلا يزداد إلا معاندة .

وانتقل الإمام إلى الكوفة ، يحفّه حَفَظة القرآن والبدريّون والمساكين والمشتاقون إلى العدل وحريّة الإنسان ؛ لكى يكون قريباً من الشام .

نصحه البعض بتثبيت معاوية فى ولاية الشام ثمّ بعْد أنْ يأخذ البيعة منه يعزله ، ولكنّ الإمام ــ وهو يعسوب الدين ــ ما كان ليسكت عن شىء نصح به عثمانَ ، ولا يمكن أنْ يداهن فى دين الله ، وهو لا يريد سوى العودة بالدين إلى أصوله الموحاة إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من رب العالمين .

وبدأ عمله فى عزل الولاة الذين أتخموا من الثروات التى جمعوها بدون وجْه حقّ ، وكلّهم هربوا بما أخذوه إلى الشام ، وأعطاهم معاوية فوْق الذى سرقوه من مال المسلمين ليكونوا عوناً له ضد إمام العدل والمساواة والخلافة الراشدة .

ثُمّ بدأ الإمام يولّى جباةً يعرف تقواهم وخشيتهم من ربهم ، وكانت وصيّته إليهم جميعاً واحدة[٢١٩] : انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا تُروّعنّ مسلماً ، ولا تأخذنّ منه أكثر من حقّ الله فى ماله ، فإذا قدمتَ على الحىّ فانزل بمائهم من غير أنْ تخالط أبياتهم ، ثُمّ امضِ إليهم بالسكينة والوقار حتّى تقوم بينهم فتُسلّم عليهم ، ولا تخدج (لا تبخل) بالتحية لهم ، ثُمّ تقول : عباد الله .. أرسلنى إليكم ولىّ الله وخليفته لآخذ منكم حقّ الله فى أموالكم، فهلْ لله فى أموالكم من حقّ فتؤدّوه إلى وليّه ؟

فإنْ قال قائل :" لا " فلا تراجعه ، وإنْ أنعم إليك منعم فانطلق معه من غير أنْ تخيفه أو تُوعده أو تُعسّفه أو تُرهقه ، فخُذْ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإنْ كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ؛ فإنّ أكثرها له ، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلّط عليه ولا عنيف به ، ولا تُنفّرنّ بهيمةً ولا تُفزعنّها ، ولا تسوءنّ صاحبها فيها ، واصدع المال صدْعيْن ثُمّ خيّره ، فإذا اختار فلا تعرضنّ لما اختاره ، ثُمّ اصدع الباقى صدْعيْن ثُمّ خيّره ، فإذا اختار فلا تعرضنّ لما اختاره ،

٢١٩ــ نهج البلاغة ٣/٢٦

فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحقّ الله فى ماله ، فاقبض حقّ الله منه ، فإن استقالك فأقِلْه ، ثُمّ اخلطهما ، ثُمّ اصنع مثل الذى صنعت أوّلاً حتى تأخذ حقّ الله فى ماله .

ثُمّ اعلم أنّ لك فى هذه الصدقة نصيباً مفروضاً و حقّاً معلوماً ، وشركاء أهل مسكنة ، وضعفاء ذوى فاقة ، وإنّا موفّوك حقّك ، فوفّهم حقوقهم ، وإلا تفعل فإنّك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة ، وبؤساً لمَن خصمه عند الله الفقراء والمساكين والسائلون والمدفوعون والغارم وابن السبيل ، ومَن استهان بالأمانة ورتع فى الخيانة ولم ينزّه نفْسه ودينه عنها فقدْ أحلّ بنفسه فى الدنيا الخزى ، وهو فى الآخرة أذلّ وأخزى ، وإنّ أعظم الخيانة خيانة الأُمّة ، وأفظع الغشّ غشّ الأئمة ، والسلام .

لقد كانت تلك بعض وصاياه لمَن يولّيه على الصدقات أو لعُمّاله الجدد الذين اختارهم من أهل الورع والمتعفّفين عن أموال المسلمين .

يقول الإمام فى عهْده لمحمد بن أبى بكر عندما ولاّه مصرْ[٢٢٠] : فاخفض لهم (أى الرعية) جناحك ، و ألِنْ لهم

٢٢٠ــ نهج البلاغة ٣/٢٧

جانبك، وابسط لهم وجهك، و آس بينهم في اللحظة والنظرة ؛ حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم ، ولا ييأس الضعفاء من عدلك بهم ؛ فإنّ الله تعالى يسائلكم معشر عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة والظاهرة والمستورة . فإنْ يُعذّب فأنتم أظلم ، وإنْ يعفُ فهو أكرم .

فأين هذه العهود من أولئك الولاة ؟

أحدهم ــ عبد الله بن أبي السرح ــ يأخذ خُمْس فيء إفريقيا له [٢٢١] ، والآخر ــ الوليد بن عقبة ــ يصلّي بالناس الفجر أربعاً وهو مخمور [٢٢٢] ، وغيرهما .

وفي الحقيقة لقد تجرّع الإمام الغيظ تجرّعاً وهو يرى معاوية يزداد معاندة ورفضاً لإمام الهدى ؛ فالفتوح توقّفت ، والفتنة أطلّت ، ومعاوية يجد من يفتيه بأنّه اجتهد فأخطأ ويكفيه أجر المخطئ ...

فهلْ من يجتهد فيخطئ وبسبب هذا الخطأ يُقتل سبعون ألف نفس ويُفرّق أمْر الأمّة إلى غير رجعة وتُحوّل الخلافة الراشدة إلى مُلْك كسرويّ ؟!

٢٢١ــ البداية والنهاية (مرجع سابق) ، ٦/ ٢١٥

٢٢٢ــ المصدر نفسه

فهلْ في ذلك اجتهاد أم مروق ؟

وعلى كلّ ... فإنّ الإمام ظلّ على موقفه ؛ حفاظاً على وحدة الصف ، ويدْعو الله أنْ يحقن دماء المسلمين بسبب خطأ واحد منهم ...

أرسل الإمام له رسائل كثيرةٌ شملت جزءاً ليس بالهيّن من " نهج البلاغة " يقول في إحداها[٢٢٣] : أمّا بعْد ... فإنّ بيعتي بالمدينة لزمتْك وأنت بالشام ؛ لأنّه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم ، فلم يكن للشاهد أنْ يختار ، ولا للغائب أنْ يردّ ، وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل فسمّوه " إماماً " كان ذلك لله رضاً ، فإذا خرج منهم خارج ردّوه إلى ما خرج منه ، فإنْ أبى قاتلوه على اتّباعه غير سبيل المؤمنين ، وأوْلاه الله ما تولّى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا ...

وإنّ طلحة والزبير بايعاني بالمدينة ثُمّ نقضا بيعتهما ، فكان نقْضهما كردّتهما ، فجاهدتُهما بعدما أعذرتُ إليهما ، حتى جاء الحقّ وظهر أمْر الله وهمْ كارهون .

٢٢٣ــ نهج البلاغة ٣/٧

فادخل فيما دخل فيه المسلمون ؛ فإنّ أحبّ أمورك إلى العافية ، إلا أنْ تتعرض للبلاء ، فإنْ تتعرض للبلاء قاتلتك واستعنتُ بالله عليك ، وقد أكثرتَ الكلام في قتلة عثمان ، فادخل في الطاعة ثُمّ حاكم القوم إليّ أحملك وإياهم على كتاب الله ، فأمّا تلك التي تريدها فهي خدعة الصّبيّ عن اللبن ، ولعمري لئنْ نظرت بعقلك دون هواك لتجدنّي أبرأ الناس من دم عثمان .

واعلم يا معاوية أنّك من الطلقاء الذين لاتحلّ لهم الخلافة ، ولا تعقد معهم الإمامة ، ولا تُعرض فيهم الشورى .

وقد بعثتُ إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله ، وهو من أهل الإيمان والهجرة والسابقة ، فبايع ، لا قوّة إلا بالله .

فما كان من معاوية من ردّ إلا أنّ لديه مائة ألف لا يعرفون عليّاً و لاقرابته، و لاسعداً و لادعوته، و لاعمّاراً و لاسابقته ، لايعرفون إلاالعطاء ...

يفخر بأنّ ليس لديه تقيّ يعرف ربّه دون العطاء ، هذا هو الفخر بالملك القادم ، فهلْ يُعقل الخضوع لإمام الحقّ ؟

ظلّت الكتب بين الإمام ومعاوية حتى أعذره ، وحتى أيقن أنّ معاوية لا يخضع إلا بالسيف وهو آخر الدواء ، فتأهّب إلى المسير نحو الشام لملاقاة الباغي، و دعاالإمام : اللهمّ إنّ

أظهرتنا على عدوّنا فجنّبنا البغي وسدّدنا للحقّ ، وإنْ أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة ، واعصم بقية أصحابي من الفتنة .

ثُمّ دعا مرّة أخرى[٢٢٤] : اللهمّ إنّك آنس الأولين لأوليائك ، و أحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك، تشاهدهم في سرائرهم ، وتطّلع عليهم في ضمائرهم ، وتعلم مبلغ بصائرهم ، فأسرارهم لك مكشوفة ، وقلوبهم إليك ملهوفة ، إنْ أوحشتهم الغربة آنسهم ذكْرك ، وإنْ صُبّت عليهم المصائب لجأوا إلى الاستجارة بك ؛ علْماً بأنّ أزمّة الأمور بيدك ، و مصادرها عن قضائك ...

اللهمّ إنْ فهتُ (عجزتُ عن البيان) عن مسألتي أو عميتُ عن طلبتي فدلّني على مصالحي ، وخذْ بقلبي إلى مرائدي ؛ فليس ذلك بنكر من هداياتك ولا ببدع من كفاياتك ...

اللهمّ احملني على عفْوك ، ولا تحملني على عدْلك .

إنّ الإمام يستجير بالله قبل الحرب، فهو يقاتل الفئة الباغية ، ويجد من أصحابه من يسبّ أهل الشام ، فيمنعهم ويطلب منهم أنْ يُظهروا مساوئهم ، ويدْعو الله أنْ يحقن دماءهم ودماء أهل الشام ...

٢٢٤ــ نهج البلاغة ٢/٢٢١

فأين ذلك من سبّ الإمام على منابر المسلمين فى الشام ؟!

لقد كان للدين يعسوباً فى حربه لمعاوية ؛ فمعاوية وجنده يمنعون الماء فى صفّين عن أصحاب الإمام ، ولكنّ الإمام عندما يزيحهم عن الماء و يملك شريعتها يتركهم يشربون الماء .

ويرسل لعمرو بن العاص محذّرا من الولوج فى الفتنة ، ولكنّ أين الآذان التى تسمع ؟ وأين القلوب التى تعى ؟

لقد صمّت ، ولم يعُدْ يجدى الكلام ، فكانت الحرب .

وخشى أصحاب الإمام من أنْ يرسل معاوية من يغتاله، و يحذّرونه فيقول لهم[٢٢٥] : وإنّ علىّ من الله جُنّة حصينة ، فإذا جاء يومى انفرجت عنى وأسلمتنى ، فحينئذ لا يطيش السهم و لا يبرأ الكلم .

و يردّ على سائل يسأله عن الفتنة و هل سأل النّبىّ صلّى الله عليه و اله و سلّم عنها ؟ فقال الإمام : لمّا أنزل الله سبحانه قوله **{ الم * أحسب الناس أنْ يُتركوا أنْ يقولوا آمنّا وهمْ لا يُفتنون }**[٢٢٦] علمتُ أنّ الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله صلّى الله

٢٢٥ــ نهج البلاغة ١/١٠٨

٢٢٦ــ سورة العنكبوت : ٢

عليه و آله وسلّم بيْن أظهُرنا ، فقلتُ[٢٢٧] : يا رسول الله ما هذه الفتنة التى أخبرك الله تعالى بها ؟

فقال **{ يا علىّ ... إنّ أمّتى سيُفتَنون بعدى }** .

فقلتُ : يا رسول الله ... أوَ ليس قد قلتَ لى يوم أُحُد حيث استُشهد من استُشهد من المسلمين وحيزتْ عنى الشهادة فشقّ ذلك علىّ فقلتَ لى **{ أبْشرْ ؛ فإنّ الشهادة من ورائك }** ؟

فقال لى **{ إنّ ذلك لكذلك ، فكيف صبْرك إذن }** ...

فقلتُ: يا رسول الله ... ليس هذا من مواطن الصبر، ولكنْ من مواطن البشرى و الشكر !

فقال **{ يا علىّ ... إنّ القوم سيُفتَنون بأموالهم، و يَمُنّون بدينهم على ربّهم، و يتمنّون رحْمته، ويأمنون سطْوته، ويستحلّون حرْمته حرامةَ بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية ، فيستحلّون الخمر بالنبيذ ، والسحت بالهدية ، والربا بالبيع }** .

قلتُ : يا رسول الله ... بأىّ المنازل أُنزلهم عند ذلك ؟ أبنزلة ردّة أم بمنزلة فتنة ؟

فقال **{ بمنزلة فتنة }**[٢٢٨] .

٢٢٧ــ نهج البلاغة ٢/٤٨

٢٢٨ــ نهج البلاغة ٢/٤٩

لم يخرج الإمام خصومه من الإسلام ؛ فهمْ بغاة عصاة مشعلو فتنة ، وليس للفتنة سوى الإمام الذى يتجرع الغيظ كُلَّ يوم.

و كان يمكنه النصر السريع المباغت لو لجأ للمكر والخديعة ، ولكنّه لو فعل فماذا يبقى لجلال الخلافة الراشدة التى يمثّلها هو ؟ وماذا يفرق عن معاوية وعمرو إذنْ ؟

ولكنّه يستخدم كُلّ وسائل التقوى لمنْع الفتنة ، ويلجأ لكلّ دواعى الإيمان لحفْظ دماء المسلمين وحفْظ بيضة الإسلام .

ولكنّ الخصوم يلجأون للمكر والخديعة ، بل يفخرون بذلك ويتيهون إعجاباً بالدهاء ، ولكنّ الإمام يعلن : والله ما معاوية بأدهى منّى ، ولكنّه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنتُ من أدهى الناس .

وفى صفّين ــ وبعْد ليلة الهرير والنصر للفئة التى على الحقّ والإمام قائدها ــ يلجأ من يفتخر بالدهاء والغدر إلى حيلة رفْع المصاحف لتكون حكماً بيْن الفرقتيْن ، ولكنّ الإمام يعلم أنّها الخديعة ويقول: اللهمّ إنّك تعلم أنّهم ما كتاب الله يريدون، فاحكم بيْننا وبيْنهم إنّك أنت الحكم الحقّ المبيّن[٢٢٩].

٢٢٩ــ نهج البلاغة ٣/٦٠

ولكنّ الخدعة نجحت فى وقْف مسيرة إمام الهدى ، الإمام المبين ويعسوب الدين ، وخرج من جيْشه من شغب عليه وطلب من إجابة أهْل الشام لكتاب الله ، و وقف معهم عبد الله بن أبى سلول الجديد ، و هو الأشعث بن قيس ؛ يؤلّب القراء الغلاة الذين لا يعرفون من الدين سوى قشوره ، فأرغموا الإمام على قبول التحكيم ، ثمّ أنكروا التحكيم مرّة أخرى ، وعنّفوه لأنّه لم يأخذهم إلى الجنة بسلاسل من حديد ، لا بالرأى والحكمة والموعظة الحسنة ، بل كفّروه ...

ودوّت كلمة " لا حُكْم إلا لله " فى معسكرهم ، والإمام يردّ عليهم : كلمة حقّ يراد بها باطل .

وبعْد التحكيم وخدعة عمرو لأبى موسى الأشعرىّ قال[٢٣٠] : الحمد لله وإنْ أتى الدهر بالخطْب الفادح والحدث الجليل ، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحْده لا شريك له ، ليس معه إله غيْره ، وأنّ محمّدًا عبْده ورسوله صلى الله عليه وآله ... أمّا بعْد ...

فإنّ معصية الناصح الشفيق العالم المجرّب تورث الحسرة ، و تعقب الندامة ، و قد كنتُ أمرْتكم فى هذه الحكومة أمرى

٢٣٠ــ نهج البلاغة ١/٨٤

ونخلتْ لكم مخزون رأيي لو كان يطاع لقصير أمْر ، فأبيْتم عليّ إباء المخالفين الجفاة والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضنّ الزند بقدحه .

و : فاجمع رأى ملئكم على أن اختاروا رجليْن ، فأخذْنا عليهم أنْ يجعلا (يقيما) عند القرآن ولا يجاوزاه ، وتكون ألسنتهما معه و قلوبهما تبعه، فتاها عنه، و تركاالحقّ و هما يبصرانه ، وكان الجور هداهما ، والاعوجاج دأبهما ، وقد سبق استثناؤنا عليهما في الحُكْم بالعدل والعمل بالحقّ سوء رأيهما وجورَ حُكْمهما ، والثقة في أيدينا لأنفسنا حين خالفا سبيل الحقّ وأتيا بما لا يُعرف من معكوس الحُكْم .

ولكنّ الخوارج لم يهدأوا ، وخرجوا للنهروان ، فحاربهم الإمام ليُرجعهم إلى الحقّ بعْد أنْ عاثوا في الأرض فساداً ، وقتلوا عبد الله بن خبّاب بن الأرتّ وامرأته وثلاث نسوة جئن يعتّنها ، وطلب منهم تسليم القتلة فلم يجيبوه فقتلهم في النهروان وهو يدرك أنّهم شباب لا يدركون من الدين إلا قشوره ، وتعمقوا في هذه القشور حتى خرجوا من الدين كما يخرج السهم من الرّمية .

وقد جادلهم الإمام كثيراً دون جدوى ، وتثاقل باقي أصحابه عن نصرته بعْد صفّين ، وأمْر معاوية يعلو ، ويُغير جنْده

على أطراف الدولة يقتلون ويسرقون ويشترون الذمم بالأموال المسلوبة من مال المسلمين ، دون رادع من دين أو خُلُق أو ضمير ...

فبسْر بن أرطأة يعيث فساداً في أرض اليمن لكيْ يضمّها لمملكة معاوية ، ويسمّ مالك الأشتر والي مصْر من قبل الإمام بعْد أنْ يقتل محمد بن أبي بكر وتُوضع جثّته في بطْن حمار ميت ويُحرق بالنار .

الإمام يعضّ إصبعه ويتألم ويقول[٢٣١] : أعصي ويطاع معاوية ؟!

و هو تعجّب مقبول من ذوي الضمائر الحية والقلوب المؤمنة ؛ فكيف يُعصى إمام الهدى ، الإمام المبين لأمّة محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ؟!

ولكنّ أتباع الإمام همْ كما وصفهم[٢٣٢] : مُنيتُ بمَن لا يطيع إذا أمرتُ ولا يجيب إذا دعوْتُ .

ومع شدة معاناته يسأله أصحابه عن الخوارج[٢٣٣]: أمشركون همْ يا أمير المؤمنين؟

٢٣١ــ نهج البلاغة ٢/١٨٧

٢٣٢ــ نهج البلاغة ١/٩٠

٢٣٣ــ عليّ إمام المتقين (مرجع سابق) ٢/٥٣

فيقول : من الشرك فرّوا .

فيقولون : أمنافقون ؟

يقول : إنّ المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا .

فيقولون : فمن هم يا أمير المؤمنين ؟

فيجيب : إخواننا بغوا علينا ، فقاتلناهم ببغيهم ، واذكروا عني : ليس من طلب الحقّ فأخطأهُ كمن طلب الباطل فأدركه.

لله درّك يا إمام ! حتى وأنت تتجرع الغيظ من الذين خرجوا على إمامتك الورعة تُحسن إليهم القول وتوصي بهم لأنهم طلبوا حقاً بسوء فهمهم فأخطأوه وغيرهم (معاوية) طلبوا الباطل فأصابوه .

والخوارج ظلّوا على عنادهم ، حتى قاد العناد من تبقّى منهم إلى قتل إمام الهدى ، والاعتقاد بأنّ قتله يُقرّبه إلى الله زلفى !

وعبدالرحمن بن ملجم وهو يضربه يقول له : الحُكْم لله وليس لك يا عليّ !

وهو شقيّ مثل عاقر ناقة صالح تماماً، يُعتقد أنّه أدنى البريّة ميزاناً ؛ لأنه سفك دم أمير المؤمنين .

والإمام اليعسوب يوصي بقاتله بعد أنْ ضربه بالسيف[٢٣٤] : وصيّتي لكم (لأبنائه) : أنْ لا تشركوا بالله شيئاً ، و محمد ــ صلى الله عليه وآله ــ فلا تضيّعوا سُنّته ، أقيموا هذين العمودين وخلاكم ذمّ ، أنا بالأمس صاحبكم ، واليوم عبرة لكم ، وغداً مفارقكم ، إنْ أبقَ فأنا وليّ دمي ، وإنْ أفْنَ فالفناء ميعادي ، وإنْ أعفُ فالعفو لي قُربة ، وهو لكم حسنة ؛ فاعفوا **{ ألاَ تحبّون أنْ يَغفر الله لكم }** ، والله ما فجأني من الموت وارد كَرِهْتُه ، ولا طالع أنكرتُه و ما كنتُ إلا كقارب وَرَدَ ، وطالب وجَد **{ و ما عندالله خيْر للأبرار }**.

هل يوجَد إنسان على مرّ التاريخ الإنسانيّ يوصي بقاتله ويقول لولده : اعفوا **{ ألاَ تحبّون أنْ يَغفر الله لكم }** ؟!

أيّ رجل كان ؟! وأيّ إمام إلا أنْ يكون يعسوباً للدين ؛ علّم المؤمنين كيفية إقامة الإمامة الورعة بيْن الأهواء المتفرقة والفتن المتنوعة ، وهو يشقّ طريقها بسفن النجاة .

لقد كان الإمام المبين مبيناً للحقّ الجليّ مدافعاً عنه قاصداً العدل لإرضاء الخالق سبحانه .

٢٣٤ــ نهج البلاغة ٣/٢١

وما كان الإمام علىّ فى حياته ومماته إلا عنواناً للفضيلة المعذّبة عندما يرى أصحابه يتخاذلون عن نصرة الحقّ ويستميت الأعداء فى نصرة الباطل ولم يهتزّ يوماً ، ولم يحنق على هؤلاء الأعداء الذين يلجأون لكُلّ وسيلة خسيسة لشراء دين أصحابه بدنياهم ، ولم يؤدّه هذا الحنق للّجوء إلى خيانة الضمير والتقوى والورع من أجل كسب الدنيا .

وما كان النصر لدى الإمام إلا وسيلة لإشاعة العدل والمساواة للمحرومين و تصدير الإسلام إلى غيْر المسلمين: العرب و سواهم.

ألم ينكر على عثمان عدم اقتصاصه من عُبَيْد الله بن عمر بن الخطاب بعد أنْ قتل الهرمزان وجفينة ؟ رغم أنّ عبيد الله كان يعتقد أنّ ثمّة مؤامرة اشترك فيها الهرمزان لقتْل عمر ، ولكنّ الإمام كان يريد من الخليفة وحْده الأخذ بالثأر وإقامة حدّ الله .

ثمّ ألم يكن فى وسْع الإمام أنْ يُقطع القطائع للولاة لكىْ يمنحوه ولاءهم ويُثبّت حُكْمه ؟

ولكنه لم يفعل ؛ لأنّه لو فعل لأضحى مثْل أىّ حاكم سيأتى بعْده يشترى الذمم ويقتل على الشبهة والمظنة من أجْل دوام المُلْك ، ولكنّه الإمام المبين يعسوب الدين .

ولولاه لَمَا لجأت الأُمّة الإسلامية فى أوقات اضطهادها من الحكام المظلومين — وهمْ كثير — إلى الدعوة العلَوية ؛ ففيها ملاذ لكُلّ مظلوم ومأوى لكُلّ مستضعف .

ولكنّ حكّام الأمويين والعباسيين ما تركوا من نسْل الإمام أحداً إلا قتلوه أو اضطهدوه أو عذّبوه أو سجنوه ؛ لما يعرفون أنّه سيقول بكلمة يعسوب الدين الإمام المبين ، وهى الحكمة الخالدة من قول نبىّ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم للإمام بأنّه **يعسوب الدين }**، و قول الإمام عن نفْسه: أنا يعسوب الدين، والمال يعسوب الفجّار .

وقد صدَق الإمام ؛ فالمال هو أمير الفجار ؛ لأنّه الوحيد الهدف القريب والبعيد لهم ، ولا يكتوى بنيران ظُلْمهم سوَى الفقراء والمُعدَمين و أبناء السبيل .

ألا ترى أنّ الفاتحين الكبار فى التاريخ الإسلامى قَتَلهم الحكّام : إمّا خشية افتتان الناس بهم ، أو أنْ ينازعونهم سلطانهم فى البلاد البعيدة التى فتحوها ؟

هل نذكر موسى بن نصير ومحمد بن القاسم والمهلّب بن أبى صفرة وابنه يزيد وأبا مسلم الخراسانى وغيْرهم الكثير ؟ ممّن باعَدوا بيْن الخلافة التى زعموها وبيْن الهدف الذى نادوا للوصول إليه والوسيلة التى اتّخذوها لأهدافهم ، و هى القتل للمعارضين

بالهمس أو الثائرين الناشدين للحقّ من نسل علـيّ والزهـراء وغيرهم .

هل نذكر مصارع الشهداء من نسلهما: الحسين وزيد والكاظم والرضا وأعوانهم ؟

الحقّ قديم ــ كما قال الإمام اليعسوب ــ حتى وإنْ كان أهله قلّة ؛ يقول الإمام داعياً الناس[٢٣٥] : أيها الناس ... لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله ؛ فإنّ الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل ...

أيها الناس ... إنما يجمع الناس الرضاء والسخط، و إنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لمّا عمّوه بالرضا ، فقال سبحانه **{ فعقروها فأصبحوا نادمين }**[٢٣٦] ، فما كان إلا أنْ خارت أرضهم بالخسفة خوار السكّة المحماة في الأرض الخوّارة .

أيها الناس ... من سلك الطريق الواضح وردالماء، و من خالف وقع في التيه .

٢٣٥ــ نهج البلاغة ٢/١٨١

٢٣٦ــ سورة الشعراء : ١٥٧

أمّا بعد... أيها الناس... فأنا فقأتُ عين الفتنة، و لم تكن ليجرأ عليها أحد غيري بعد أنْ ماج غيهبها واشتدّ كلبها ، فاسألوني قبل أنْ تفقدوني ؛ فوالذي نفسيّ بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدي مائةً وتضلّ مائةً إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحطّ رحالها ، ومن يُقتل من أهلها ويموت منهم موتاً ، ولو قد فقدتموني ونزلت بكم كرائه الأمور وحوازب الخطوب لأطرق كثير من السائلين وفشل كثير من المسئولين ، وذلك إذا قلصت حربكم وشمّرت عن ساق ، وضاقت الدنيا عليكم ضيقاً تستطيلون معه أيام البلاء عليكم ، حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم ، إنّ الفتن إذا أقبلت شُبِّهت ، وإذا أدبرت نبهت ، يُنكرْنَ مقبلات ، ويُعرفْنَ مدبرات ، يحمْنَ حول الرياح ، يُصبْنَ بلداً ويُخطئنَ بلداً ، ألا إنّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية ؛ فإنها فتنة عمياء مُظلمة ، عمّت خطّتها ، وخصّت بليّتها ، وأصاب البلاء من أبصر فيها ، وأخطأ البلاء من عمي عنها .

ولأنّه يعسوب الدين فإنّه لخّص مواصفات الوالي في قوله[٢٣٧] : إنّه لا ينبغي أنْ يكون الوالي على الفروج والدماء

٢٣٧ــ نهج البلاغة ٢/١٤

والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل ؛ فتكون أموالهم همته ، ولا الجاهل ؛ فيُضلّهم بجهله ، ولا الجافى ؛ فيقطعهم بجفائه ، ولا الحائف للدّول ؛ فيتّخذ قوماً دون قوم ، ولا المرتشى فى الحُكْم ؛ فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع ، ولا المُعطّل للسُّنّة ؛ فيُهلك الأُمّة .

يعتقد البعض أنّ أفكار الإمام عليّ مثالية ليست قابلةً للتطبيق فى أرض الواقع ؛ بدليل تخاذُل قومه عنه وخروج الخوارج عليه ، ولكنّ ما حدث بعكس ذلك ؛ فالإمام طبّق أفكاره على الأرض التى حكمها ، فولّى الولاة حسب الشروط التى وضعها .

ولم تكن مشكلته أنْ تولّى الخلافة بَعْد أنْ أصابت الدنيا المسلمين وأصبحوا يتنعمون فى الحياة اللذيذة وبما يصيبونه بسيوفهم من البلاد المفتوحة وافتتنوا بالدنيا .

فقد حذّر أبوبكر عمر من كبار صحابة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وحذّره من خروجهم من المدينة إلى البلاد المفتوحة، وضيّق عليهم عمر و منعهم من الجهاد وقال لهم : يكفيكم الجهاد مع رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلّم ...

ولكنّ عثمان سمح لهم بالخروج ، ولو كان الإمام ، لأخذهم على الجادة ولاستقاموا له ، ولو أنّ المسلمين اختاروه خليفةً

للمسلمين بَعْد النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم مباشرةً لوجدوه هادياً مهدياً يأخذ بهم الصراط المستقيم .

لماذا ؟

لأنّه أكثر الصحابة وعياً بآيات الله ؛ فقد دعا النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنْ تكون أُذُن عليّ هى الأذن الواعية .

و رغْم ذلك فإنّ تعامُله مع الخلفاء الراشدين قبله كان ينمّ عن أنّه يعسوب الدين ، وأنّه أكبَر جامع لكلمات الدين ، فهو الإمام المبين .

الإمام الشامل

ليس فى التاريخ الإنسانىّ بأسْره ــ من غيْر الأنبيــاء ــ مَــن اشتمل فكْره كُلّ نواحى الحياة والأشياء فى طبَاع البَشَر وحقيقة الكون و كيفية الخَلْق ، وفى القضاء والقدَر ، و فى نظريــات الحُكْم ، و وصْف الكائنات ، و فى علوم الإلهيات بوجْه عامّ مِثْل: الإمام علىّ ...

وقد استمَدّ الإمام فِكْره مِــن القــرآن الكــريم ، وتَمَكّــن ببصيرته أن يَنفذ إلى طبائع البَشَر ، وان تَكون كُــلّ أفكــاره قائمةً على تقوى من الله تَعَهَّده بها النَّبىّ الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم .

فكْرُه فى خلْق السماوات والأرض

يقول فى خطبة له يذكر فيها كيف خلق الله السماوات والأرض وخلق ادم عليه السلام بقوله[٢٣٨] : الحمد لله الذى لا يبلُغ مدْحته القائلون ، ولا يحصى نعماءه العادّون ، ولا يؤدى حقّه المجتهدون ، الذى لا يدركه بُعْد الهمم ، ولا يناله غوْص الفطن ، الذى ليس لصفته حدّ محدود ، ولا نعْت موجود ، ولا وقْت معدود ، ولا أجَل ممدود ، فطَر الخلائق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته ، ووتد الصخور ميدان أرْضه ...

أوّلُ الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفْى الصفات عنه ؛ لشهادة كُلّ صفة أنّها غيْر الموصوف ، وشهادة كُلّ موصوف أنّه غيْر الصفة ، فمن وصف الله سبحانه فقدْ قرَنه ، ومَن قرَنه فقدْ ثنّاه ، ومَن ثنّاه فقدْ جزّأه ، ومَن جزّأه فقدْ جهله ، ومَن جهله فقدْ أشار إليه ، ومَن أشار إليه فقدْ حدّه، ومَن حدّه فقدْ عدّه، و مَن قال :" فيمَ ؟ " فقدْ ضمّنه، و مَن قال : " علامَ ؟ " فقدْ أخلَى منه ...

٢٣٨ــ نهج البلاغة ١/١٤ و ما بعدها .

كائن لا عن حدَثٍ ، موجود لا عن عدم ، مع كُلّ شيء لا بمقارنة ، وغيْر كُلّ شيء لا بمزايلة (مفارقة) ، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة ، بصير إذ لا منظور إليه من خلْقه ، متوحّد ، إذ لا سكَن يستأنس به ولا يستوحش لفقْده ...

أنشأ الخلْق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً، بلا روية أجالها، ولا تجربة استفادها، و لاحركة أحدثها، و لاهمامة نفْس اضطرب لها، وألزمها أشباحها، عالماً بها قبْل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها (جوانبها) ...

ثُمّ أنشأ سبحانه فتْق الأجواء و شقّ الأرجاء و سكائك الهواء، فأجرى فيها ماءً متلاطماً تيّاره متراكماً زخاره، حمَله على متْن الريح العاصفة والزعزع القاصفة، فأمَرها بردّه، وسلّطها على شدّه، وقرَنها إلى حدّه، الهواء من تحْتها فتيق، والماء من فوْقها دقيق ...

ثُمّ أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبّها ، وأدام مربها ، وأعصف مجراها ، وأبعد منشاها ، فأمرها بتصفيق الماء الزخار وإثارة موْج البحار ، فمخضته مخض السقاء ، وعصفت به عصْفها بالفضاء ، ترُدّ أوّله إلى آخره وساجيه إلى مآثره ، حتى عبّ عبابه ورمى بالزبد ركامه ، فرفعه فى هواء منفتق وجوّ منفهق ، فسوّى منه سبْع سماوات ، جعَل

سفرهنّ موجاً مكفوفا(ممنوعاً من السيلان) ، وعلياهنّ سقفاً محفوظاً وسمكاً مرفوعاً بغير عَمَد يدعمها ولا دسار (مسامير أو حبال) ينظمها ، ثُمّ زيّنها بزينة الكواكب وضياء الثواقب ، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً وقمراً منيراً فى فلك دائر وسقف سائر ورقيم مائر (متحرك) ، ثُمّ فتق ما بين السماوات العلا فملأهنّ أطواراً من ملائكته : منهم سجود لا يركعون ، وركوع لا ينتصبون ، وصافّون لا يتزايلون، ومسبّحون لا يسأمون ، لا يغشاهم نوم العيون ، ولا سهو العقول ، ولا فترة الأبدان ولا غفلة النسيان ، ومنهم أمناء على وحيه وألسنة إلى رسُله ، ومختلفون بقضائه وأمْره ، ومنهم الحَفَظة لعباده والسدنة لأبواب جنانه ، ومنهم الثابتة فى الأرضين السفلى أقدامُهم ، والمارقة من السماء العليا أعناقهم ، والخارجة من الأقطار أركانهم ، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم ، ناكسة دونه الأبصار ...

ثُمّ جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها وعذْبها وسبخها تربةً سنّها بالماء حتى خلصت ، ولاطها بالبلّة حتى لزبت ، فجبل منها ذات أحناء ووصول وأعضاء وفصول ، أجمَدها حتى استمسكت ، وأصلَدها حتى صلْصلت (يبست) لوقت معدود وأجلٍ معلوم ، ثُمّ نفخ فيها من روحه ، فمثّلت إنساناً ذا

أذهان يجيلها، و فكر يتصرف بها، و جوارح يختدمها (يجعلها فى خدْمته)، وأدوات يُقلّبها، و معرفة يُفرّق بها بين الحقّ والباطل .

يقول الأستاذ زهير غزاوى[٢٣٩] : وفى تلك الخطبة التى تُعتبر أول الخُطَب فى " نهْج البلاغة " والمستمَدّة من القرآن الكريم والسُّنّة النبوية المطهّرة جمعَت قصة الخَلْق وأوْجزته بما يشبه النظرية القديمة لخَلْق العالَم كما حدّدها القرآن ، وتحدّث بها الإمام ، وقد كان ذلك فى وقْت لم يعرف العالَم القديم ذو الحضارات (فارسية ويونانية وهندية ومصرية) عنها شيئاً ، يُصوّر الإمام حدثاً كالانفجار العظيم ونشوء الأرض والسماوات بألفاظ مثْل: (الفتق، الشق، المتلاطم، المتراكم، الريح العاصفة ، الزعزع القاصفة ، ريح اعتقم مهبّها ، أعصف مجراها ، تصفيق الماء الزخار) ، فالغيب القديم عند خلْق العالَم معروض فى خُطبة الإمام ، أمّا العالَم الحديث فيعالج تلك القضية بمفردات باردة ، مثْل : (بدأ الزمان الانفجار الأعظم ، وقَبْل ذلك لا زمن) .

٢٣٩ــ زهير غزاوى : الإمام علىّ والعلوم الحديثة ... بحث منشور فى مجلة النور اللندنية (العدد ١٢٧) ديسمبر ٢٠٠١ م .

والواقع أنّ قياس بدء الزمن الإنسانيّ المحسوب لدينا بنشوء الكون جعل من جدلية الزمن ذاتها أحد قضايا فلسفة الإلهيات الغامضة . كما في قصة خلق ادم من طين الأرض ؛ فقد احتوى هذا الإنسان للأضداد المختلفة التي يتكون منها المحيط الطبيعيّ ، وذلك ما يساعده على التكيف معاً ، فهذا المخلوق (الإنسان) هو أقدر المخلوقات على التكيف والسيطرة وابتداع كلّ الوسائل العلمية الممكنة لتحقيق هذا الهدف .

سأله سائل من أصحابه فقال[٢٤٠] : هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين ؟

فقال عليه السلام : أفأعبد من لا أرى ؟!

فقال الرجل : وكيف تراه ؟

قال : لا تراه العيون بمشاهدة العيان ، ولكنّ تدركه القلوب بحقائق الإيمان ، قريب من الأشياء غير ملامس ، بعيد منها غير مباين ، متكلّم بلا روية ، مريد لا بهمة ، صانع لا بجارحة، لطيف لا يُوصف بالخفاء، كبير لا يوصف بالجفاء، بصير لا يوصف بالحاسّة ، رحيم لا يوصف بالرقّة ، تعنو الوجوه لعظمته ، وتجب القلوب من مخافته .

٢٤٠ـ نهج البلاغة ٢/٩٩

والمتأمّل لهذا الكلام وما قبله من حديثه عن خلْق السماوات والأرض وخلْق آدم عليه السلام يتيقّن أنّ الإمام كان يعي في صدْره آيات القرآن الكريم بَعْد أنْ وعتْها أُذُنه ، فتدفّق حديثه عن الخلْق ، ثُمّ عن الله سبحانه وتعالى ، الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار ، المنزّه عن كُلّ شيء ، والذي ليس كمثله شيء ، وكأنّ السائل استمع للخُطبة عن الخلْق ، فتخيّل الإمام يرى ربّه سبحانه ، فسأله السؤال ، وردّ عليه الإمام بما يفيد ما وعته أُذُنه ...

فيسأله آخَر : بِمَ عرفْتَ ربّك يا أمير المؤمنين ؟

فيقول : بما عرّفني نَفْسه ، لا تُشبهه صورة ، ولا يدرك بالحواسّ ، ولا يقاس بالناس ، قريب في بُعْده ، بعيد في قُربه ، فوقَ كُلّ شيء ، ولا يقال : شيء تحْته ، وتحْت كُلّ شيء ، ولا يقال : شيء فوقه ، أمام كُلّ شيء ، ولا يقال : شيء أمامه ، داخل كُلّ شيء ، ولا كشيء ، ولا من شيء ، ولا في شيء ، ولا بشيء ، سبحان مَن هو هكذا ، ولا هكذا غيْره ، خلَق الأشياء من لا شيء كان منه ، ولا عن شيء احتذاه، ولا عن شيء امتثله ...

حقيقة الإيمان والقضاء والقدر

فيأتي إليه ثالث يسأله : ما حقيقة الإيمان ؟

فيجيبه قائلاً[٢٤١] : الإيمان على أربع دعائم: الصبر، واليقين ، والعدل ، والجهاد ...

وأخذ يعدّد كلاً من مقامات هذه الدعائم .

وتحدّث بعض أصحابه وبعض أصحاب معاوية عن القضاء والقدر : بعض أصحاب معاوية زعموا أنّ وقوفهم معه كان بقدر الله ، فأرسل إليهم قائلاً[٢٤٢] : أمّا بعد ... أتأمرون الناس بالتقوى وبكم ضلّ المتّقون ؟! وتنهون الناس عن المعاصي وبكم ظهر العاصون ؟! هل منكم إلا مفتر على الله يحمل إجرامه عليه وينسبه علانيةً عليه ؟ (لأنهم قالوا بالقدر في انضمامهم لمعاوية) ، وهل منكم إلا من السيف قلادته ، والزور على الله شهادته ؟!، خالفتم أهل الحقّ حتى ذلّوا وقلّوا ، وأعنتم أهل الباطل حتى عزّوا وكثّروا، فأنيبوا إلى الله وتوبوا ، وتاب الله على من تاب ، وقبل من أناب ...

٢٤١ــ نهج البلاغة ٤/٧

٢٤٢ــ نهج البلاغة ٤/١٧

ثمّ قال : كان في علم الله أنهم يرتكبون المعصية ، ولكنّه جلّ شانه لم يحملهم على ارتكابها .

أمّا أصحابه الذين قالوا بالقضاء والقدر : فقد جاء إليه واحد منهم فسأله : يا أمير المؤمنين.. أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام : أكان بقضاء الله وقدره ؟

فقال الإمام : والذي خلق الحبّة وبرأ النسمة ما هبطنا وادياً ولا علونا جبلاً إلا بقضاء وقدر .

فقال الرجل : عند الله أحتسب عنائي ، ما لي من الأجر شيء ؟

فأدركه الإمام : بل أيّها الشيخ أعظم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون ، وفي منقلبكم وأنتم منقلبون ، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مُكرهين ، ولا إليها مضطرّين .

فيعاود الرجل استفساره : وكيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا ، وعنهما كان مسيرنا ؟

فقال الإمام : لعلّك تظنّه قضاء واجباً وقدراً حتماً ؟! لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب و سقط الوعد والوعيد، و لما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب ولا محمدة لمُحسن ، ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسيء ، ولا المسيء بعقوبة الذنب أولى من المحسن ؛ تلك مقالة إخوان الشياطين

وعبدة الأوثان وخصماء الرحمن وشهود الزور ، أهل العمى عن الصواب في الأمور ، هم قدرية هذه الأمة ومجوسها ، إنّ الله أمر تخييرا ونهى تحذيرا ، ولم يكلف مجبرا ، ولا بعث الأنبياء عبثا[٢٤٣] . { ذلك ظنّ الّذين كفروا فويلٌ للّذين كفروا من النّار }[٢٤٤] .

ثمّ نصح الناس[٢٤٥] : اسأل تفقّها ، ولا تسأل تعنّتا ؛ فإنّ الجاهل المتعلّم أشبه بالعالم ، وإنّ العالم المتعسّف شبيه بالجاهل المتعنّت .

ثمّ قال[٢٤٦] : الحكمة ضالّة المؤمن ، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق ، خذ الحكمة أنّى كانت ؛ فإنّ الحكمة تكون في صدر المنافق فتتلجلج في صدره حتى تخرج فتسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن .

والإمام بذلك يرسي قواعد العلم وعدم الحياء من طلب الحكمة ؛ لأنّها ضالّة المؤمن ، فهو أحقّ بها ؛ لأنّ المؤمن يضع الحكمة حيث يأمره الله أنْ يضعها، والتقوى شعار المؤمن...

٢٤٣ــ نهج البلاغة ٤/١٧

٢٤٤ــ نهج البلاغة ٤/١٧

٢٤٥ــ نهج البلاغة ٤/١٧

٢٤٦ــ نهج البلاغة ٤/١٨

و سؤال المؤمن لا يجب أنْ يكون تعنّتاً ، بل هو استفسار يؤدي إلى زيادة الإيمان.

الحكمة ضالّته ... ضالّة المؤمن

ولذلك دائماً ما كان يردّد: اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية لاعقل رواية؛ فإنّ رواة العلم كثير، و رعاته قليل .

والحكمة ضالّة المؤمن ، كرّس الإمام مفهومها عندما ردّد بعض حِكَم الهند والفرس واليونان ، لا على أنّها مغنية عمّا في كتاب الله، ولكنْ كان يرى أنّ معرفة حكمة الآخرين فيها من الخير، و هي من العلم الذي طلب النّبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم من أصحابه أنْ يطلبوه ولو في الصين ...

حكى لأصحابه يوماً حكايةً من كُتُب الهند[٢٤٧]: أثوار ثلاثة كُنّ في أجمة : أبيض وأسود وأحمر ، ومعهنّ أسد ، فكان لا يقدر منهنّ على شيء ؛ لاجتماعهنّ عليه ، فقال الأسد للثور الأسود والثور الأحمر: لا يدلّ علينا في أجمتنا إلا الثور الأبيض ؛ فإنّ لونه مشهور ، ولونى على لونكما ، فلو تركتماني آكله صفت لنا الأجمة ...

٢٤٧ــ على إمام المتقين (مرجع سابق) ٢ / ١٠٦

فقالا له : دونك فكُله .

فأكله ، فلما مضت أيام قال للأحمر : لوْنى على لوْنك ، فدعنى اكل الأسود لتصفو لنا الأجمة ...

فقال : دونك فكُله .

فأكله ، ثمّ قال للأحمر : إنى اكلك لا محالة .

فقال له الثور : دعنى أنادى ثلاثا ...

فقال : افعل .

فنادى : انى أكلتُ يوم أكل الثور الأبيض .

كان الإمام يعطى هذا الدرس من كلمة الهنود لكىْ يُعلّمهم انّ الفُرقة هى التى تضيّع الأُمّة ، وأنّ الاختلاف ليس مطلقاً من الرحمة فى شيء ، والحديث على لسان الحيوانات فى كلمة الهنود قديم ، ويعطى دروساً غيْر مباشرة ، كان الإمام يهدف إلى أنْ فُرقة الأُمّة منذ خرج الثوار على الخليفة عثمان ، ثُمّ انشقاق معاوية وتأسيس دولة فى ظلّ وجود الخليفة الشّرعىّ للمسلمين والإمام الذى لُقّن العلم صغيراً وأذاعه كبيراً ، هذا الانشقاق منع انتشار الإسلام كثيراً ، ولو أنّ الإمام لم ينازعه أحد الخلافة والإمامة لانتشر الإسلام فى عهْده حتى شمل كُلّ ربوع الأرض المعروفة ، سواء على يديه أو على يد من جاء بعْده ، ولكنّ الأمويين الذين انتشر الإسلام فى عهْدهم بموجة

الإيمان التى كانت تعمر صدور الصحابة والتابعين ؛ اتخذوا أهْل البلاد المفتوحة عبيدا لهم ، لم يُشركوهم فى مال الله ، بل أخذوا منهم الخراج حتى من أولئك الذين أسلموا فيما بعْد .

والإمام علىّ كان يرى فى حُكْم الرعية شيئاً مختلفاً لما اعتاد عليه المسلمون فى زمن الفتنة ، عالمية للإسلام أجدر أنْ تُتّبع وأحْرَى أنْ يأخذ بها ولكنّه لم يستطع فى ظلّ الفتنة ، فاكتفى عليه السلام بإرساء دعائمها فى كُتبه ووصاياه لأبنائه ولولاته وللمسلمين من بعْده كما طبّقها فى البلاد التى كانت تحْت يده .

و يرسل إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة ، وكان قد دُعى إلى وليمة قوْم من أغنياء البصرة فلبّاها ، وعرف الإمام فأرسل إليه مؤنّبا وذاكرا ومنبّها إياه ونفسه فى كتاب من أروع الكتب يقول فيه[٢٤٨] : أمّا بعْد يا ابن حنيف فقدْ بلغنى أنّ رجلاً من فتْية أهْل البصرة دعاك إلى مأدبة، فأسرعْت إليها تُستطاب لك الألوان وتُنقَل إليك الجفان، و ما ظننتُ أنّك تجيب إلى طعام قوْم عائلُهم مجفوّ ، وغنيّهم مدْعوّ ، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضَم : فما اشتبه عليك علْمه فالفظّه، ما أيقنت بطيب وجوهه فنلْ منه ...

٢٤٨ـ نهج البلاغة ٣/٧٠

ألا وإنّ لكلّ مأموم إماماً يقتدى به ويستضيء بنور علمه ، ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريّه ، ومن طعمه بقرصيه ، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ، ولكنْ أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد ، فوالله ما كنزتُ من دنياكم تبراً ، ولا ادّخرتُ من غنائمها وفراً ، ولا أعددتُ لبالي ثوبيّ طمراً ، بلى كانت في أيدينا فدكٌ من كلّ ما أظلّته السماء ، فشحّت عليها نفوس قوم ، وسخت عنها نفوس آخرين ، ونعم الحكم الله ، وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانّها في غد جدثٌ تنقطع في ظلمته آثارها وتغيب أخبارها ، وحفرة لو زيد في فسحتها وأوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر والمدر وسدّ فرجها التراب المتراكم ، وإنّما هي نفسيّ أروّضها بالتقوى ؛ لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر وتثبت على جوانب المزلق ، ولو شئتُ لاهتديتُ الطريق إلى مصفّى هذا العسل ولُباب هذا القمح ونسائج هذا القزّ ، ولكنْ هيهات أنْ يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع ، أوْ أبيت مبطاناً وحولي بطونٌ غرثى وأكباد حرّى ، أوْ أكون كما قال القائل :

وحسبُك داءً أنْ تبيت ببطنة ... وحولك أكباد تحنّ إلى القدّ

أأقنع من نفسيّ بأنْ يقال " أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر ؟ أو أكون أسوةً لهم في جشوبة العيش ؟

فما خُلقتُ ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة ؛ همّها علفها ، أو المرسلة ؛ شغلها تقمّمها ، تكترش من أعلافها ، وتلهو عمّا يراد بها ، أوْ أُترك سُدىً ، أو أُهمل عابثاً ، أو أجُرّ حبل الضلالة ، أو أعتسف طريق المتاهة .

وكأنّي بقائلكم يقول : إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان !

ألا وإنّ الشجرة البرّيّة أصلبُ عوداً ، والروائع الخضرة أرقّ جلوداً ، والنباتات البدوية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً ، وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو والذراع من العضد ، والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما ولّيتُ عنها ، ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعتُ إليها ، وسأجهد في أنْ أطهّر الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس ؛ حتى تخرج المدرة من بين حبّ الحصيد .

إليكِ عني يا دنيا ؛ فحبلُك على غاربك ، قد انسللتُ من مخالبك ، وأفلتُ من حبائلك ، واجتنبتُ الذهاب في مداحضك ...

أين القرون الذين غررتهم بمداعبك ؟! أين الأمم الذين فتنتهم بزخارفك ؟ ها همْ رهائن القبور ومضامين اللحود ...

والله لو كنت شخصاً مرئياً وقالباً حسّياً لأقمتُ عليك حدود الله في عباد غررتهم بالأماني وأمم ألقيتهم في المهاوي وملوك أسلمتهم إلى تلف وأوردتهم موارد البلاء إذ لا ورْد ولا صدر..

هيهات ... من وطئ دحضك زلق ، ومن ركب لُجَجك غرق ، ومن ازورّ عن حبائلك وُفق ، والسلم منك لا يبالي إنْ ضاق به مُناخه ، والدنيا عنده كيوم حان انسلاخه .

اعزبي عني ؛ فوالله لا أذلّ لك فتستذليني ، ولا أسلس لك فتقوديني ، وأيمُ الله ــ يمينا أستثني فيها بمشيئة الله ــ لأروضنّ نفسي رياضة تهشّ معها إلى القرص إذا قدرتُ عليه مطعوماً وتقنع بالملح مأدوماً ، ولأدعنّ مقلتي كعَيْن ماء نضب معينها مستفرغة دموعها ...

أتمتلئ السائمة من رعْيها فتبْرك وتشْبع الربيضة من عشْبها فترْبض ويأكل عليّ من زاده فيهجع ؟! قرّت إذنْ عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية !

طوبى لنفس أدّت إلى ربها فرْضها ، وعركت بجنْبها بؤسها ، وهجرت في الليل غمْضها ، حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرْضها وتوسّدت كفّها في معشر أسهر عيونهم

خوْف معادهم ، وتجافت عن مضاجعهم جُنوبهم وهمْهمت بذكر ربهم شفاههم ، وتقشّعت بطول استغفارهم ذنوبهم . **{ أولئك حزْب الله ألا إنّ حزْب الله هم المفلحون }** .

فاتّق الله يا ابن حنيف، ولْتكفك أقراصك؛ ليكون من النار خلاصك.

أمّا عهْده إلى الأشتر النخعي لمّا ولاّه مصر : فهو يُعدّ من أروع صيغ الحُكْم التي لم تأخذ حقّها من الدراسة والنفع ؛ لأنّ كُلّ الحكام الذين حكموا ديار المسلمين من أمويين وعباسيين وعثمانيين أخفوا هذا الكنز الرائع من دُرر أمير المؤمنين ؛ لأنّه بمجرد قراءته ينكسر كُلّ ظالم ، فتمّ إخفاء هذه التعاليم ، وقالوا عن " نهْج البلاغة " بأنّه موضوع على لسان الإمام عليّ وليس من أقواله ، متناسين أنّ أيّ محقّق منصف لا بد أنْ يضع كُلّ كُتب التراث الإسلاميّ على قدم المساواة والتعامل معها جميعاً بنفس تلك المساواة فليس من العدل أنْ يقتصر الاتهام بالتحيز وتحريف النصوص ووضْع الأقوال على " نهج البلاغة " وحده ...

ثُمّ إنّ " نهْج البلاغة " فيه أسلوب الإمام الذي تفرّد به ، ولم يتمكن أحد أنْ يدانيه في أسلوبه .

وللأسف ... فإنّ كثيراً من علماء أهل السُنّة انحازوا لمقولة : إنّ أغلب " نهج البلاغة " موضوع على لسان الإمام ، وقد أثّر ذلك كثيراً على أنظمة الحُكم الاستبدادية التى حكمت الدولة الإسلامية ، وتمكّنوا من رقاب العباد ؛ لأنّه لم يواجههم أحد بمثل عهد أمير المؤمنين للأشتر أو بأقوال الإمام لولاته ولولده وأهله ...

وفى هذا العهد يصوّر المجتمع أجلى تصوير ، ويحثّ الوالى على الأخذ فى الرعية بالرفق دون الانتقاص من الدين : ليكنْ أحبّ الأمور إليك أوسطها فى الحقّ، وأعمّها فى العدل ، وأجمعها لرضا الرعية ؛ فإنّ سخط العامة يُجحف برضا الخاصة ، وإنّ سخط الخاصة يُغتفر مع رضا العامة ، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤنة فى الرخاء و أقلّ معونة له فى البلاء و أكره للإنصاف و أسأل بالإلحاف و أقلّ شكراً عند الإعطاء وأضعف صبراً عند ملمّات الدهر من أهل الخاصة ، وإنّما عمود الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمّة ، فليكنْ صفوك لهم وميلك معهم ...

هل هناك أشدّ معونة لوالٍ أو للإمام أو للحاكم من العامة الذين يخوضون الحروب ويدفعون الضرائب ؟ وهمْ أقرب الناس للتمسك بأوامر الدين ونواهيه من أولئك الذين يسمّون أنفسهم

" أهل الخاصة " الذين يقتربون من دائرة الحكام ويشكّلون من حوله بطانةً فاسدة .

لم يوجد فى التاريخ الإنسانىّ من الخاصة مَن نصحوا للحاكم خير نصيحة ، وكثير من العوام الذى يؤدّون تلك النصيحة للحاكم : يأخذها منه هذا الحاكم ، ويكون ردّ فعله إمّا قطع رقبته أو السخرية منه ، أو ربما اتخذها نصيحةً خالصةً لوجه الله ، فيرتعد خوفاً ويبكى خشيةً ، أو يقع ساجداً على وجهه يؤنّب نفسه ، ولكنّه فى النهاية يعود إلى أبّهة الحُكْم والاستبداد به والطغيان على الذين يخوضون غمار الحروب تحت رايته !

أمّا أولئك الخواصّ : فلا يوجد لهم نصيب فى حرب يستشهدون فيها، ولا أموال يدفعونها لكىْ يُمولوا تلك الحروب، ولكنّهم يكتفون بالتكبر على خَلْق الله .

وقد حاول الإمام جاهداً أنْ يُرسى قواعد العدالة الاجتماعية ؛ فقد كان حريصاً على إبراز أنّ الدولة الإسلامية لا ينبغى لها أنْ تقوم على أُسس طبقية ؛ فقد أزال الإسلام تلك الطبقية ، ولم يوزع المال إلا على قدم المساواة وقد كان النّبىّ الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم يساوى بين الناس جميعاً ، ويتركهم وإيمانهم على الله من الذين ساهموا بالقدْر الأكبر فى نصرة الإسلام قبْل الهجرة وبعدها من المهاجرين والأنصار ...

و قد ساوى بين الجميع: الحرّ والعبد، المهاجر والأنصارى ، الصحابى والتابعى، كلّهم سواء.

وقد اختلف فى ذلك مع ما اجتهد فيه عمر بن الخطاب ؛ فقد اجتهد عمر بعد أن بدأ بآل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وذوى قرابته ، فبدأ بالعباس وفرض له اثنى عشر ألفا ، ثمّ فرض لزوجات الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم لكلّ واحدة عشرة الاف ، وفضّل عائشة بألفين فأبت ، فقال لها : بفضل منزلتك عند رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فإذا أخذت فسألك ...

واستثنى من الزوجات جويرية وصفية وميمونة ففرض لكل واحدة منهنّ ستة الاف ، فقالت عائشة رضى الله عنها : " إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يعدل بيننا " ، فألحق الزوجات الثلاث بسائرهنّ .

ثمّ فرض للمهاجرين الذين شهدوا بدراً لكل واحد خمسة الاف، ولمن شهدها من الأنصار لكل واحد أربعة آلاف، و قد رُوى أنّه فرض لكل واحد ممن شهد بدرا من المهاجرين أو الأنصار أو من غيرهم من القبائل خمسة آلاف ، ثمّ فرض لمن شهد بدراً وما بعدها إلى الحديبية أربعة الاف ، ثمّ فرض لكل

من شهد المشاهد بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ألفين وخمسمائة وألفين ، وألفا واحداً إلى مائتين ، وهمّ أهل هجر .

ولكنّ الإمام ترك ذلك ، فساوى بين الجميع فى العطاء ، وقد عوتب على ذلك من بعض الصحابة ، ولكنه أعلمهم بأنّه واحد منهم ؛ يأخذ مثلهم ، ويساوى نفسه معهم دون تمييز[٢٤٩] .

ولذلك ... يُروى أنّ من أهمّ أسباب تقاعس العرب عن نصرة الإمام أنّه لم يكن يفضّل شريفاً على وضيع ولا عربيّاً على أعجمى ، ولا يصانع الرؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك ، ولا يستميل أحداً إلى نفسه .

جاء إليه عبد الله بن جعفر بن أبى طالب يسأله المال زيادةً على عطائه ، فقال له : لا والله ما أجد لك شيئاً إلا أن تأمر عمّك أن يسرق فيعطيك .

وحدث مثل هذا مع أخيه عقيل الذى تركه وذهب إلى معاوية فأعطاه من مال المسلمين دون أن يردعه ضمير أو دين .

وتفجّرت عن قضية عدم المساواة العلاقة بين العرب والموالى ؛ فقد واجه الإمام النعرة العصبية العنصرية التى ترى

٢٤٩ـ للمزيد يرجع إلى موسوعة الإمام علىّ لعبد الفتاح عبدالمقصود (مرجع سابق) .

أنّ العرب خير من العجم ، فعمل على وأد تلك العنصرية البغيضة بإعلانه أنّ المساواة تخصّ جميع البشر، و لااعتبار إلا بالتقوى، والقرآن ينصّ على { **إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم** }، فالتفّ الموالى من حوله، واعتبروه المخلّص لهم من التفرقة، سواء فى العطاء أو فى المعاملات الإنسانية جميعها ...

وقد كان هذا السلوك من الإمام حافظاً للإسلام من تحوّله إلى حُكم قومىّ يميّز بين العرب والعجم ، أو بين العرب والموالى ، أو بين بعض القبائل العربية وغيرها .

ولذلك... فإنّ تلك التفرقة مارسها حكّام الدولة الأموية بشكل متعسّف ، و قد كانت بداية ظهور ما أسموه بـ" الحركة الشعوبية " ؛ فإنّ ردّ فعل الموالى تجاه افتخار العرب بجنسهم أن افتخر الموالى بأصولهم واحتقروا العرب ، الأمر الذى شكّل بداية تفرقة الأمّة ؛ حيث انحاز العجم للدعوة العلوية ، فساهموا فى تأسيسها، وإنْ جاءت على غير ما عملوا على مساعدتها ، فتحوّلت الدعوة إلى بنى العباس التى ظلّت تمارس التفرقة وتسوس الأمّة على نظرية جديدة ليست من الإسلام فى شىء ، وهى نظرية الحقّ الإلهىّ فى الحُكم .

" ثُمّ انظر فى أمور عُمّالك ؛ فاستعملْهم اختباراً ، ولا تُولّهم محاباةً وأثرة فإنّهما جماع من شُعَب الجور والخيانة " ...

المحاباة والأثرة .. إنّهم الخاصة من جديد ؛ يفسّر الإمام أنهم الذين يولّون الأعمال على الأثرة ، فيكون الجور .

ولذلك ... فإنّ الإمام أرسى قاعدة قانونيّة هى : أنّ السلب والنهب جريمة لا تسقط بالتقادم ولا بتراكم آثارها ؛ فقد ألزم الولاة الذين أخذوا من بيت المال بردّ ما أخذوه حتى ولو تزوّجوا به النساء واشتروا به الإماء ؛ فإنّ فى العدل سعةً ، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق .

ولم يستنكف – وهو الحُجّة – أنْ يحاور مخالفيه لكىْ يردّهم إلى الحقّ ، وعندما رأى أنّ بعض هؤلاء يأخذون من القرآن ما يوافق هواهم فإنّه ردعهم بالحُجّة وبالسُّنّة النبوية ، وطلب من عبد الله بن عباس – عندما أرسله للاحتجاج على الخوارج – أن : لا تخاصمهم بالقرآن ؛ فإنّ القرآن حمّال ذو وجوه ، تقول ويقولون ، ولكنْ حاججهم بالسُّنّة ؛ فإنّهم لن يجدوا عنها محيصا .

وقد ناظرهم ابن عباس حتى أقام الحُجّة عليهم ، وعندما أنكروا على الإمام أنّه عندما قاتل أصحاب الجمل أحلّ لهم دماءهم و لم يُحلّ لهم نساءهم، فسألهم ابن عباس: و من يرغب منكم أنْ تكون أمّ المؤمنين عائشة فى سهمه ؟!

فأفحمهم، وجعلوا أصابعهم في آذانهم، وقالوا له: أمسكْ عنّا لسانك يا ابن عباس ؛ فإنه زلق غوّاص في مواضع الحُجّة .

و حمل الإمام مصحفاً فوق رأسه و قال : تكلّم أيّها المصحف ...

فقالوا له : يا أمير المؤمنين ... إنّما هو مِداد في ورق ؟!

فقال لهم: إنّما يتكلم بما في القرآن الرجال، و يحكمون بما فيه ...

ولنفرض أنّ رجلاً مسلماً تزوّج كتابيّةً نصرانيّةً أو يهوديّةً وحدث شاق بينهما ، والقرآن يقول **{ فابعثوا حَكَماً من أهله وحكماً من أهلها }**[٢٥٠] ، فيأتي من أهل الرجل المسلم ، ويأتي من أهل المرأة الكتابيّ ؛ ليُصلحا بينهما ، أليس في هذا تحكيم لما في كتاب الله ؟![٢٥١]

و بعد أنْ أجبره الخوارج على التحكيم وحدث ما حدث في دومة الجندل ، وطلب بعض أصحابه أنْ يَشرح لهم التحكيم وأنّه رجا أنْ يَلمّ الله به شمل الأُمّة قال : إنّا لم نُحكّم الرجال ، وإنّما حكّمنا القرآن ، وهذا القرآن إنّما هو خطّ مستور بين

٢٥٠ــ سورة النساء / ٣٥

٢٥١ــ علي إمام المتقين (مرجع سابق) ٢/١٦٥

الدفّتين ، لا ينطق بلسان ، ولا بدله من ترجمان ، وإنّما ينطق به الرجال ، ولمّا دعانا القوم إلى أنْ نُحكّم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولّي عن كتاب الله ، وقد قال سبحانه **{ فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول }**[٢٥٢] ، فردّه إلى الله أنْ نحكم بكتابه ، وردّه إلى الرسول أنْ نأخذ بسنّته ، فإذا حُكم بالصدق في كتاب الله فنحن أحقّ الناس به ، وإنْ حُكم بسنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فنحن أولاهم به .

و قال عن الحكمين : فأجمع رأي ملئكم على أن اختاروا رجلين ، فأخذنا عليهما أنْ يجعجعا عند القرآن ولا يجاوزاه ، وتكون ألسنتهما معه وقلوبهما تبعه ، فتاها عنه ، وتركا الحقّ وهما يبصرانه، وكان الجور هداهما، والاعوجاج دأبهما، وقد سبق استثناؤنا عليهما في الحُكم بالعدل والعمل بالحقّ سوء رأيهما وجور حُكمهما ، والثقة في أيدينا لأنفسنا حين خالفا سبيل الحقّ وأتيا بما لا يُعرف من معكوس الحُكم .

ومن القواعد الهامة التي أرساها الإمام وهي المستقاة من كتاب الله تعالى: " التقية " ، و قد أرساها الإمام لأولاده من بعده، و جميعهم كانوا في صفوف المعارضة ، والمعارضون للحكم ــ

٢٥٢ــ سورة النساء : ٥٩

خاصّة العلويّين منهم ــ يؤخذون بالشبهة والمظنة: يُقتلون بالسم وغيره، ويُدخلون السجون فيموتون صبرا ...

ورغم أنّ التقية جوبهت بمعارضة شديدة ــ سواء من العلماء أو الحكّام ــ إلا أنّ المتأمّل لها يجدها من أنبل القضايا التي أخذها الإمام وأولاده من بعده ــ باستثناء الحسين ــ لا عن جبن أو إرهاب في دين الله ، وحاشاه ذلك ، ولكن انطلاقا من مبدأ التعايش السلميّ .

والتقية حالة نفسيّة طبيعية في النّفس البشرية ، يتجه إليها الإنسان عندما يحسّ بالخطر ويشعر بتصاعد نسبة احتمالات الأذى والضرر .

والتقية أفضل من العزلة أو مواجهة السلطة الغاشمة ، وهي تؤدّي إلى تماسُك المجتمع الإسلاميّ .

والقرآن الكريم أشار إلى التقية بقوله **{ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبُه مطمئنّ بالإيمان ... }**[٢٥٣] ، وقوله تعالى **{ إلا أن تتقوا منهم تُقاة }**[٢٥٤] .

٢٥٣ــ سورة النحل : ١٠٦

٢٥٤ــ سورة آل عمران : ٢٨

والإمام أعلن موقفه من الخلافة بعد وفاة النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ثمّ استمرّ في مساعدة الخلفاء من قبله عن إخلاص وتقوى من الله واتّباع سبيل المؤمنين، ولأنّ الحكّام من بعده كما تأكّد له من خروجهم عليه فإنّه أفتى برخصة التقية عند الضرر، والضرر لا بد واقع بأهل البيت، فاتّقوْا، وأصبحت التقية دينهم ودين آبائهم، ولا دين لمن لا تقية له، وتسعة أعشار الدين في التقية.

ويأخذ الخصوم عليه التقية ، ولكنْ ثمّ وضْع سقف لاستخدام التقية : فإذا كانت التقية تؤدي إلى الإضرار بالآخرين فلا تقية ، وإذا سُفكت الدماء فلا تقية .

والإمام الباقر يقول : إنّما جعل التقية ليحقن بها الدم ، فإذا بلغ الدم فلا تقية .

ولذلك... فإنّ الإمام كان حريصاً في خلافته على إظهار كُلّ كوامن الخير في الأُمّة حتى لا تفسد، ويحذّر المسلمين من الاختلاف والفُرقة ويبدي رأيه عن قريش فيقول: أمّا بنو مخزوم: فريحانة قريش، نُحبّ حديث رجالهم والنكاح في نسائهم .

وأمّا بنو عبْد شمس : فأبعدها رأياً، وأمنعها لما وراء ظهورها .

و انا نحن (بنو هاشم): فالبذل لما فى أيدينا، و السمح عند الموت بنفوسنا، و هم اكثر و أمكر و أنكر، ونحن أفصح و أنصح و أصبح .

ومن ارائه الشديدة فى طباع البشر[٢٥٥] :

* غيرة المرأة كفر، وغيرة الرجل ايمان .
* عجبت للبخيل ؛ يستعجل الفقر الذى منه هرب، ويفوته الغنى الذى إياه طلب، فيعيش فى الدنيا عيش الفقراء ، ويحاسب فى الاخرة حساب الأغنياء.
* افضل الزهد إخفاء الزهد .
* ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر فى فلتات لسانه و صفحات وجهه .
* سيئة تسوءك خير عند الله من حسنة تُعجبك .
* لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ أخاه فى ثلاث : فى نكبته، وغيبته، و وفاته .
* لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .
* لا يعاب المرء بتأخير حقّه ، إنّما يعاب من أخذ ما ليس له .
* الناس أعداء ما جهلوا .

٢٥٥ـ مقتطفات من نهج البلاغة (مرجع سابق) .

* إنْ لم تكن حليما فتحلّم ؛ فإنه قلّ من تشبّه بقوم إلا أوشك أنْ يكون منهم .
* بئس الزاد إلى المعاد العدوانُ على العباد .
* من ظنّ بك خيرا فصدّقْ ظنّه .
* صاحب السلطان كراكب الأسد ؛ يغبط بموقعه وهو أعلم بموضعه .
* اشدّ الذنوب ما استهان به صاحبه .
* العفاف زينة الفقر ، والشكر زينة الغنى .
* تكلّموا تعرفوا ؛ فإنّ المرء مخبوء تحت لسانه .
* ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلبا لما عند الله ، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله .

وكان الإمام يحمل كُلّ علوم الدنيا فى صدره كما حمل علوم الدين ، لم تفته شاردة ولا واردة إلا كان له فيها حديث أو كلمة أو عبارة موجزة .

و كان الإمام يعي أن الناس سيشهرهم علمه الوفير فيحنقون و يغالون فيه حتى يؤلهوه، و أن الناس الاخرين سيحسدونه على ما اتاه الله من فضله فيكرهونه ويبغضونه ويذكرون عنه ما ليس فيه ، وكلاهما سيدخل النار : محب مفرط ، و مبغض مفرط أيضا .

وسعت كلماته الدنيا حتى ازدهت بها ، وتاقت البشرية لأمثالها .

يأتيه ابن ملجم وهو يشحذ سيفه يسأله العطاء فيعطيه ، وبحدسه يعلم أنه قاتله ، ويقول : هو قاتلي ...

فيطلب منه أصحابه أنْ يقتله، فيقول: ولكنه لم يقتلني بعد !!

فيطلبون منه أنْ يتخذ حرساً لحمايته ، فيردّ عليهم : يحرسني أجلي .

و قد حرسه أجله حتى أنهاه ابن ملجم بضربة على رأسه، فيسيل الدم على وجهه الكريم، منهياً حياة معذّبة فاضلة، حاول أنْ يأخذ الناس إلى العدل والمساواة والأريحية، و حاول خصومه أنْ يأخذوهم إلى دنياتهم وأثرتهم، و نجحوا في ذلك ...

ولكنْ ... ظلّ الإمام وظلّت كلماته نبراساً لكل راغب في الحُكْم بما أنزل الله على نبيّه صافياً ؛ لأنه يأخذه من منابعه قبل أنْ تتعكّر مياهه .

ولذلك ... فإنّ نسله ملأ الدنيا يتفاخرون بالانتساب إليه ، و خصومه ضاعوا، و ربما سبب ضياع نسلهم أنهم وجدوا غضاضة في أنْ يذكروا أنهم نسل من خرج على إمام الأمّة المهدي .

و في كُلّ أقواله وأفعاله يُشعرك بأنه إمام شامل لعلوم الدنيا والدين، فهو الإمام المبين .

الإمام المبين

بينما رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم بين أصحابه طلب من أحد الصحابة الكرام أنْ يقرأ عليه بعضاً من القرآن، فقرأ حتى بلغ الآية الكريمة **{ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة }**[٢٥٦]، فقال النّبيّ الكريم صلّى الله عليه و آله و سلّم لصحابته **{ قولوا الآن قولكم: ما أول نعمة رغّبكم الله فيها و بلاكم بها }** ...

فذكروا نعَم الله التي أنعَم عليهم بها من العافية والمال والذرية والأزواج والعلم، فقبل الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم منهم، ولم يستزد واحداً منهم إلا عليّاً؛ التفت إليه فقال **{ يا أبا الحسن ... قُلْ؛ فقدْ قال أصحابك }** ...

٢٥٦ـ سورة لقمان : ٢٠

فقال عليّ : وكيف لي بالقول ــ فداك أبي وأمي ــ وإنّما هدانا الله بك ؟[٢٥٧]

فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم { **ومع ذلك فهات . قُلْ : ما أول نعمة بلاك الله عزّ وجلّ وأنعم عليك بها** } ...

فقال عليّ : أنّ خلقني الله جلّ ثناؤه ولم أكُ شيئاً مذكورا .

فقال النّبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم { **صدقْت ... فماالثانية**}...

فقال : أنْ أحبّني إذ خلقني فجعلني حيّا لا ميتا .

فقال النّبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم { **صدقْتَ ... فما الثالثة** } ...

فقال عليّ : أنْ أنشأني ــ فله الحمد ــ في أحسن صورة و أعدل تركيب.

فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم { **صدقْت ... فماالرابعة** } ...

قال : أنْ جعلني متفكرا راغباً لا ساهيا .

قال صلّى الله عليه وآله وسلّم { **صدقْت ... فماالخامسة** } ..

قال : أنْ جعل لي مشاعر أدرك بها ما ابتغيتُ ، وجعل لي سراجا منيرا (يقصد العقل) .

٢٥٧ــ علي إمام المتقين (مصطفى مسلم) ٦/١ .

قال صلّى الله عليه وآله وسلّم { **صدقْتَ... فماالسادسة** } ...

قال: أنْ هداني لدينه ولم يضلّني عن سبيله .

قال صلّى الله عليه وآله وسلّم { **صدقْتَ ... فماالسابعة** } ...

قال: أنْ جعل لي مرَدّا في حياة لا انقطاع لها .

قال صلّى الله عليه وآله وسلّم { **صدقْت ... فماالثامنة** } ...

قال: أنْ جعلني ملكا مالكا لا مملوكا .

قال صلّى الله عليه وآله وسلّم { **صدقْتَ ... فماالتاسعة** } ...

قال: أنْ سخّر لي سماءه و أرْضه و ما فيهما و ما بينهما من خلْقه .

قال صلّى الله عليه وآله وسلّم { **صدقْتَ ... فماالعاشرة** } ...

فقال عليّ ضاحكا: أنْ خلقني ذكرا و لمْيخلقني أنثى.

فضحك الصحابة الكرام، و قال الرسول صلّى الله عليه و آله وسلّم { **وما بعْد هذا** } ...

فقال عليّ : كثُرت نعم الله يا نبيّ الله فطابت.{ **وإنْ تعُدّوا نعمة الله لا تحصوها** }.

فقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم { **لتهنئك الحكمة ... ليهنئك العلم يا أبا الحسن، أنت وارث علمي والمُبين لأمّتي ما اختلفت فيه بعدي، من أحبّك لدينك و أخذ بسبيلك فهو من**

هدى إلى صراط مستقيم، و مَن رغب عن هداك و أبغضك لقى الله يوم القيامة لا خلاق له }[٢٥٨] .

و في الحقيقة أنّ عليّاً كان وارث علم النُبوّة، فكان يقول لأصحابه: اسألوني قبل أنْ تفقدوني، فوالله ما نزلت آية من كتاب الله إلا علمتُ أين نزلت: في سهل أم في جبل، و متى نزلت ...

و هذه الحقيقة و عاها الصحابة الكرام لعليّ، فكانوا دوماً يسألونه و هو يجيبهم دون تأخُر، وكان يقول لهم عن الآية الكريمة **{ فاسألوا أهل الذكر إنْ كنتم لا تعلمون }**[٢٥٩] : نحن أهل الذكر؛ اسألونا.

و وراثة العلم النبوي جاءت منذ أنْ نزلت الآية الكريمة **{وتعيها أذن واعية}**[٢٦٠] فقال النّبيّ صلّى الله عليه و آله وسلّم **{ يا عليّ ... إنّ الله أمرني أنْ أُدنيك وأعلّمك لتعي }**[٢٦١]، فكان عليّ يقول: ما سمعتُ من رسول الله صلّى الله عليه و آله وسلّم شيئاً فنسيتُه .

٢٥٨ــ على إمام المتقين (مصدر سابق) ١/ ٤٦ .

٢٥٩ــ سورة النحل : ٤٣ .

٢٦٠ــ سورة الحاقة / ١٢

٢٦١ــ البداية والنهاية ٧ / ٣٧٠ ، ١١٨

و قد ذكرْنا في غيْرموضع من هذا منزلة عليّ، و لماذا قال النّبيّ صلّى الله عليه و آله وسلّم بتفضيله هو و أهل البيت، و لماذا اختصّوا بالقربى الذين يجب مودّتهم .

و قد رأيْنا الإمام قد حفظ عن رسول الله صلّى الله عليه و آله وسلّم، فلم يحدّث منه إلا الحرص على وحدة الأُمّة، ثمّ نشر العلم الذي ورثه، في شتّى فروع العلم قال فيه و عنه، واستنبط من القرآن الكريم درراً جاءت على لسانه بعد أنْ وعتها أُذُنه ...

فمن أقواله : أيّها الناس ... سلوني قبل أنْ تفقدوني؛ فلأنا بطُرُق السماء أعلم مني بطُرُق الأرض ...

فهلْ كان الإمام يدّعي علم الغيب و قد قال الله عزّوجلّ **{ عالم الغيب فلا يُظهر على غيْبه أحداً * إلاّ مَن ارتضى من رسول}**[٢٦٢] ؟!

و هذا مُحال على الإمام ، وقد ردّ على رجل قال له : لقد أُعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب ...

فضحك وقال له : ليس هو بعلم غيْب، و إنّما هو تعلُّم من ذي علم، و إنّما علم الغيب علم الساعة و ما عند الله بقوله **{ إنّ الله عنده علم الساعة و ينزّل الغيث و يعلم ما في الأرحام و ما**

٢٦٢ــ سورة الجن : ٢٦ ، ٢٧

تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأىّ أرض تموت إنّ الله عليم خبير }[٢٦٣]، فيعلم سبحانه ما فى الأرحام من ذكر و انثى، وقبيح وجميل، و سخىّ و بخيل، و شقىّ و سعيد، و من يكون فى النار حطبا، أو فى الجنان للنّبيّين مرافقاً، فهذا علم الغيب الذى لايعلمه إلا الله، و ما سوى ذلك فعلّم علّمه الله نبيّه، فعلّمنيه ودعا لى بأنْ يعيه صدرى وتضطمّ عليه جوانحى .

و نحن نعلم يقيناً أنّ النّبىّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم تنبّأ بأمور كثيرة علّمه‌الله إياها، مثل: علامات قيام‌الساعة، و أوصاف يأجوج و مأجوج، و صفات أهل‌الشرك، و غيْر ذلك كثير ...

و الإمام لأنّه مدينة علمه صلّى الله عليه وآله وسلّم فنعتقد أنّ النّبىّ علّمه بعض هذه النبوءات، ربما ليس وحده، ولكنْ لأنّه الأذن الواعية فقدْ حفظها صدْره واستقرّت فى ذهْنه ...

وعلى هذا الأساس لا نستنكر بعض ما جاء فى خُطب الملاحم من " نهْج البلاغة " ؛ فقدْ حدّث منها الكثير حتى بعْد كتابة " النهج " .

٢٦٣ــ سورة لقمان : ٣٤

يصف الإمام صاحب حركة الزنج الذين استشرى شرّهم فى البصرة وحاربوا الخليفة العبّاسى وأشاعوا الفساد بقوله للأحنف بن قيس[٢٦٤] : يا أحنف كأنّى به (أى صاحب حركة الزنج) وقد سار بالجيش الذى لا يكون له غبار ولا لجب (صياح) ولا قعقعة لُجُم ولا حمحمة خيْل ، يثيرون الأرض بأقدامهم كأنّها أقدام الأنعام ، ويْل لسككم العامرة والدُّور المزخرفة التى لها أجنحة كأجنحة النسور وخراطيم كخراطيم الفيلة من أولئك الذين لا يندب قتْلهم ولا يفتقد غائبهم ، أنا كابّ الدنيا لوجْهها ، وقادرها بقدرها ، وناظرها بعيْنها .

وقد جاءت الأوصاف مطابقةً لصاحب الزنج .

كما يصف الإمام فى خُطب الملاحم أوصاف الفتن التى تحدّث بعْده، فيقول فى إحداها[٢٦٥] : يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى، و يعطف الرأى على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأى ...

ويعظ آخرين فيما يفعلونه عند الفتن : فمَن استطاع عند ذلك أنْ يعتقل نفْسه على الله عزّ وجلّ فلْيفعل ، فإنْ أطعتمونى

٢٦٤ــ نهج البلاغة ٢/٩

٢٦٥ــ نهج البلاغة ٢/٢١

فإني حاملكم إن شاء الله على الجنة ، وإن كان ذا مشقة شديد ومذاقة مريرة .

وكان علم الإمام يشمل كل العلوم المعروفة ، وحديثه المتكرر: " سلوني قبل أن تفقدوني " كان يقصد منه إيصال هذا العلم غير الموجود عند سواه: في التفسير، و في أوصاف البشر، وفي وصفه لعقول الناس وقلوبهم، و وصفه لمخلوقات الله ، وللأرض و السماوات ... كلها جاءت على لسانه ...

ونأخذ خطبة من خطبه نموذجاً على حديثه المليء بفيض الحكمة، والتي لا تأتي على ألسنة الخطباء في الإسلام ربما منذ استشهاده حتى الآن، ولكننا نوردها لكي ندلل على مدى علمه وحكمته، وأيضاً عن مدى حجب هذا العلم عن نفوس المسلمين طوال مئات من السنين ...

يقول[٢٦٦] :

الحمد لله الذي إليه مصائر الخلق وعواقب الأمر، نحمده على عظيم إحسانه و نير برهانه و نوامي فضله و امتنانه، حمداً يكون لحقه قضاءً ولشكره أداءً، وإلى ثوابه مقرباً، و لحسن مزيده موجباً، و نستعين به استعانة راج لفضله، مؤمل لنفعه،

٢٦٦ــ نهج البلاغة ٢/١٠٣

واثق بدفعه، معترف له بالطول، مذعن له بالعمل والقول، و نؤمن به إيمان من رجاه موقناً، وأناب إليه مؤمناً، وخنع له مذعناً، وأخلص له موحداً، وعظمه ممجداً، ولاذ به راغباً مجتهداً، لم يولد سبحانه فيكون في العز مشاركاً، ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً، ولم يتقدمه وقت ولا زمان ، ولم يتعاوره زيادة ولا نقصان، بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التدبير المتقن والقضاء المبرم ...

فمن شواهد خلقه خلق السماوات موطدات بلا عمد ، قائمات بلا سند ، دعاهن فأجبن طائعات مذعنات غير متلكئات ولا مبطئات ، ولولا إقرارهن له بالربوبية وإذعانهن بالطواعية لما جعلهن موطناً لعرشه ولا مسناً لملائكته ولا مصعداً للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه ...

جعل نجومها أعلاماً يستدل بها الحيران في مختلف فجاج الأقطار ، لم يمنع ضوء نورها ادلهمام سجف الليل المظلم ، ولا استطاعت جلابيب سواد الحنادس أن ترد ما شاع في السماوات من تلألؤ نور القمر .

فسبحان من لا يخفى عليه سواد غسق داج ولا ليل ساج في بقاع الأرضين المتطأطئات ، ولا في يفاع السفع المتجاورات ، وما يتجلجل به الرعد في أفق السماء ، وما تلاشت عنه بروق

الغمام ، وما تسقط من ورقة تزيلها عن مسقطها عواصف الأنواء وانهطال السماء ، و يعلم مسقط القطرة و مقرّها ، ومسحب الذرّة ومجرّها، و ما يكفى البعوضة من قوتها، و ما تحمل الأنثى فى بطنها .

الحمد لله الكائن قبل أن يكون كرسىّ أو عرش أو سماء أو أرض أو جانّ أو إنس ، لا يُدرك بوهم ، ولا يُقدّر بفهم ، ولا يشغله سائل ، ولا ينقصه نائل ولا يُبصر بعين ، ولا يُحدّ بأين ، ولا يوصف بالأزواج ، ولا يخلق بعلاج ، ولا يُدرك بالحواسّ ، ولا يقاس بالناس ، الذى كلّم موسى تكليماً وأراه من اياته عظيماً ، بلا جوارح ولا أدوات ، ولا نطق ولا لهوات ، بل إنْ كنت صادقاً أيها المتكلّف لوصف ربّك فصف جبرائيل وميكائيل وجنود الملائكة المقرّبين فى حجرات القدس مرجحنين ، متولّهة عقولهم أنْ يحدّوا أحسن الخالقين ؛ فإنما يُدرك بالصفات ذوو الهيئات والأدوات و مَن ينقضى إذا بلغ أمد حدّه بالفناء ...

فلا إله إلا هو ، أنار بنوره كُلّ ظلام، وأظلم بظلمته كُلّ نور.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذى ألبسكم الريّاش وأسبغ عليكم المعائش ، ولو أنّ أحدا يجد إلى البقاء سلّما أو إلى دفع الموت سبيلاً لكان ذلك سليمان ابن داود عليه السلام الذى سُخّرله

مُلك الجن والإنس مع النُبوّة وعظيمة الزلفة ، فلمّا استوفى طُعْمته واستكمل مدّته رمتْه قسىّ الفناء بنبال الموت ، وأبحت الديار منه خالية والمساكن معطّلة ، و ورثها قوم آخرون .

وإنّ لكم فى القرون السالفة لعبرة ؛ أين العمالقة وأبناء العمالقة ؟! أين الفراعنة وأبناء الفراعنة ؟! أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين وأطفأوا سُنن المرسلين وأحيوا سُنن الجبّارين ؟! وأين الذين ساروا بالجيوش وهزموا الألوف وعسكروا العساكر ومدّنوا المدائن ؟!

منها قد لبس للحكمة جُنّتها وأخذها بجميع أدبها من الإقبال عليها والمعرفة بها والتفرغ لها ، وهى عند نفسه ضالّته التى يطلبها وحاجته التى يسأل عنها ، فهو مغترب إذا اغترب الإسلام ، وضرب بعسيب ذنبه ، وألصق الأرض بجرانه ، بقية من بقايا حُجّته ، خليفة من خلائف أنبيائه .

أيها الناس ... إنى قد بثثتُ لكم المواعظ التى وعظ الأنبياءُ بها أممهم، وأدّيتُ إليكم ما أدّت الأوصياء إلى من بعدهم، وأنبّئكم بسوطى فلم تستقيموا وحدوتُكم بالزواجر فلم تستوثقوا ...

لله أنتم ! أتتوقعون إماماً غيرى يطأ بكم الطريق ويرشدكم إلى السبيل ؟!

ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً، وأقبل منها ما كان مدبراً، و أزمع الترحال عبادُ الله الأخيار، و باعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفنى .

ما ضرّ إخواننا الذين سفكت دماؤهم وهم بصفين أنْ لا يكونوا اليوم أحياء يُسيغون الغُصص ويشربون الرّنق ؛ قد والله لقُوا الله فوفّاهم أجورهم وأحلّهم دار الأمن بعْد خوْفهم .

أين إخوانى الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحقّ ؟ أين عمّار ؟ وأين ابن التّيّهان ؟ وأين ذو الشهادتيْن ؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقَدوا على المنيّة وأُبْرِدَ برءوسهم إلى الفجرة (ثُمّ ضرب بيده على لحيته الشريفة الكريمة فأطال البكاء) ...

أوَه على إخوانى الذين تلوا القرآن فأحكموه ، وتدبّروا الفرض فأقاموه ، أحيوا السُّنّة وأماتوا البدعة ، دُعُوا للجهاد فأجابوا، و وثقوا بالقائد فاتّبعوه ...

(ثُمّ نادى بأعلى صوته) : الجهادَ الجهادَ عبادَ الله ... ألا و إنى معسكر فى يومى هذا، فمن أراد الرواح إلى الله فلْيخرج ... انتهى .

وفى خطبة أخرى فى توحيد الله عزّ وجلّ يقول[٢٦٧] :

ما وحّده مَن كيّفه، ولا حقيقته أصاب مَن مثّله، و إيّاه عنى مَن شبّهه، و لا صمَدَه مَن أشار إليه وتوَهّمه، كُلّ معروف بنفسه مصنوع، و كُلّ قائم فى سواه معلول، فاعل لا باضطراب آلة، مقدّر لا بجولٍ فكرة، غنىّ لا باستفادة، لا تصحبه الأوقات، ولا ترفده الأدوات، سبق الأوقاتَ كوْنه والعدمَ وجودُه والابتداءَ أزلُه...

بتشعيره المشاعرَ عُرف أنْ لا مشْعَر له ، وبمضادّته بين الأمور عُرف أنْ لا ضدّ له، و بمقارنته بيْن الأشياء عُرف أن لا قرين له ، ضادّ النورَ بالظُّلمة ، والوضوحَ بالبُهْمة ، والجمودَ بالبَلَل ، والحَرُورَ بالصّرْد ، مؤلّف بيْن متعادياتها ، مقارن بيْن متبايناتها ، مقرّب بيْن متباعداتها ، مفرّق بيْن متدانياتها .

لا يُشمل بحدّ ، ولا يُحسَب بعدّ ، وإنّما تحُدّ الأدوات أنفسَها ، وتشير الآلة إلى نظائرها ، منَعَتْها " منذ " القدمية ، وحمَتْها " قدْ " الأزلية ، وجنّبَتْها " لولا " التكملةَ ، بها تجلّى صانعها للعقول، و بها امتنع عن نظر العيون .

٢٦٧ــ نهج البلاغة ٢/١١٩

لا يجرى عليه السكون والحركة ؛ وكيف يجرى عليه ما هو أجراه ويعود فيه ما هو أبداه ويحدث فيه ما هو أحدثه ؟! إذن لتفاوتت ذاته، ولتجزأ كنهه، ولامتنع من الأزل معناه، ولكان له وراءَ إذ وُجد له أمام، ولالتمس التمام إذ لزمه النقصان، و إذن لقامت آية المصنوع فيه ، ولتحول دليلاً بعد أنْ كان مدلولا عليه .

و خرج بسلطان الامتناع من أنْ يؤثر فيه ما يؤثر فى غيْره ، الذى لا يحول ولا يزول، ولا يجوز عليه الأفول، ولم يلد فيكون مولودا، ولم يولد فيصير محدودا، جلّ عن اتخاذ الأبناء، وطهُر عن ملامسة النساء .

لاتناله الأوهام فتقدره، ولاتتوهمه الفطن فتصوّره، ولا تدركه الحواسّ فتحسّه، ولا تلمسه الأيدى فتمسّه .

لا يتغير بحال ، ولا يتبدل بالأحوال ، ولا تُبليه الليالى والأيام ، ولا يغيّره الضياء والظلام ، ولا يوصف بشىء من الأجزاء ، ولا بالجوارح والأعضاء ، ولا بعرض من الأعراض ، ولا بالغيرية والأبعاض ، ولا يقال له حدّ ولا نهاية ، ولا انقطاع ولا غاية ، ولا أنّ الأشياء تحويه فتقلّه أو تهويه ، أو أنّ شيئا يحمله فيميله أو يعدله .

ليس فى الأشياء بوالج ، ولا عنها بخارج ، يخبر لا بلسان ولهوات ، ويسمع لا بخروق وأدوات ، يقول ولا يلفظ ، ويحفظ ولا يتحفّظ ، ويريد ولا يُضمر ، يحبّ ويرضى من غيْر رقة ، ويُبغض ويغضب من غيْر مشقة .

يقول لمن أراد كوْنه " كن " فيكون ، لا بصوت يقرع ولا بنداء يُسمع ، وإنّما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ، ومثّله لم يكن من قبْل ذلك كائنا ، ولو كان قديماً لكان إلها ثانيا .

لا يقال " كان بعْد أنْ لم يكن " فتجرى عليه الصفات المحدثات و لايكون بيْنها وبيْنه فصل و لا له عليها فضل ، فيستوى الصانع والمصنوع ، ويتكافأ المبتدئ والبديع .

خلق الخلائق على غيْر مثال خلا من غيْره ، ولم يستعن على خلْقها بأحد من خلْقه ، وأنشأ الأرض فأمسكها من غيْر اشتغال ، وأرساها على غيْر قرار ، وأقامها بغيْر قوائم ، ورفعها بغيْر دعائم ، وحصّنها من الأوَد والاعوجاج ، ومنعها من التهافت والانفراج ...

أرسى أوتادها ، وضرب أسدادها ، واستفاض عيونها ، وخدّ أوديتها ، فلم يهِنْ ما بناه ، ولا ضعُف ما قوّاه .

هو الظاهر عليها بسلطانه وعظمته ، وهو الباطن لها بعلمه ومعرفته ، والعالى على كُلّ شىء منها بجلاله وعزّته .

لا يُعجزه شيء منها طلبه ، ولا يمتنع عليه فيغلبه ، ولا يفوته السريع منها فيسبقه ، ولا يحتاج إلى ذى مال فيروُقه .

خضعت الأشياء له وذلّت مستكينة لعظمته ، لا تستطيع الهرب من سلطانه إلى غيره فتمتنع من نفعه وضرّه .

ولا كفؤ له فيكافئه ، ولا نظير له فيساويه .

هو المفنى لها بعد وجودها حتى يصير موجودها كمفقودها .

و ليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشائها و اختراعها ، وكيف لو اجتمع جميع حيوانها من طيْرها وبهائمها وما كان من مُراحها وسائمها وأصناف أسناخها وأجناسها ومتبلّدة أممها وأكياسها على إحداث بعوضة ما قدرت على إحدائها ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها ، ولتحيّرت عقولها فى علْم ذلك وتاهت ، وعجزت قُواها وتناهت ، ورجعت خاسئة حسيرة عارفة بأنّها مقهورة مُقرّة بالعجز عن إنشائها ، مذعنة بالضّعف عن إفنائها .

وإنّ الله سبحانه يعُود بعْد فناء الدنيا وحده لا شيء معه ، كما كان قبْل ابتدائها كذلك يكون بعْد فنائها ، بلا وقْت ولا مكان ، ولا حين و لازمان ، عُدمت عند ذلك الآجال والأوقات ، وزالت السنون والساعات ، فلا شيء إلا الواحد القهار الذى إليه مصير جميع الأمور ...

بلا قدرة منها كان ابتداء خلْقها ، وبغير امتناع منها كان فناؤها ، ولو قدرت على الامتناع دام بقاؤها .

لم يتكاءدْه صنْع شيء منها إذ صنَعه ، ولم يؤُدْه منها خلْق ما خلقه وبرأه ، ولم يُكوّنها لتشديد سلطان ولا خوف من زوال ونقصان ، ولا للاستعانة بها على ندّ مكاثر ، ولا للاحتراز بها من ضدّ مُثاور ، ولا للازدياد بها فى مُلْكه ، ولا لمكاثرة شريك فى شرْكه ، ولا لوحشة كانت منه فأراد أن يستأنس إليها .

ثُمّ هو يفنيها بعْد تكوينها لا لسأم دخل عليه فى تصريفها وتدبيرها ، ولا لراحة واصلة إليه ، ولا لثقل شيء منها عليه ، لم يُملّه طُول بقائها فيدْعوه إلى سرعة إفنائها ...

لكنّه سبحانه دبّرها بلُطْفه وأمسكها بأمْره وأتقنها بقدْرته، ثُمّ يعيدها بعْدالفناء من غيْر حاجة منه إليها ، ولا استعانة بشيء منها عليها، ولا لانصراف من حال وحْشة إلى حال استئناس، ولا من حال جهْل وعمىً إلى حال علْم والتماس، ولا من فقْر و حاجة إلى غنىً وكثرة، ولا من ذُلّ وضعة إلى عزّ و قدرة ... انتهى .

بعض من تفسير الإمام للقرآن

ففي تفسير آيتين اثنتين من سورة التكاثر ــ وهي { ألهاكم التكاثر • حتى زرتم المقابر } قال الإمام[٢٦٨] :

يا له مراماً ما أبعده ! وزوراً ما أغفله ! وخطراً ما أفظعه !

لقد استخلوا منهم أيّ مذكر ، وتناوشوهم من مكان بعيد ...

أفبمصارع آبائهم يفخرون ؟! أم بعديد الهلكى يتكاثرون ؟!

يرتجعون منهم أجساداً خوت وحركات سكنت، ولأن يكونوا عبراً أحقّ من أن يكونوا مفتخراً، ولأن يهبطوا بهما جناب ذلّة أحرى من أن يقوموا بهم مقام عزة .

لقد نظروا إليهم بأبصار العُشوة ، وضربوا منهم في غمرة جهالة، ولو استنطقوا عنهم عرصات تلك الديار الخاوية والربوع الخالية لقالت: ذهبوا في الأرض ضلالاً، و ذهبتم في أعقابهم جُهّالاً ؛ تطأون في هامهم ، وتسكنون فيما خرّبوا ، و إنّما الأيام بينكم وبينهم بواكٍ ونوائح عليكم .

أولئكم سلف غايتكم وفُرّاط مناهلكم ، الذين كانت لهم مقاوم العزّ وحلبات الفخر ملوكاً وسوقاً ، سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً سُلّطت الأرض عليهم فيه ، فأكلت من لحومهم و

٢٦٨ــ نهج البلاغة ٢/٢٠٥ وما بعدها .

شربت من دمائهم ، فأصبحوا في فجوات قبورهم جماداً لا يَنمون ، وضماراً لا يوجدون ، لا يُفزعهم ورود الأهوال ، ولا يحزنهم تنكّر الأحوال ، ولا يحفلون بالرواجف ، ولا يأذنون للقواصف ، غيّباً لا يُنتظرون ، وشهوداً لا يحضرون .

وإنّما كانوا جميعاً فتشتّتوا ، وآلافاً فافترقوا ، وما عن طول عهدهم ولا بُعد محلّهم عميت أخبارهم وصمّت ديارهم ، ولكنّهم سقُوا كأساً بدّلتهم بالنطق خرَساً و بالسمع صمماً و بالحركات سكوناً ، فكأنّهم في ارتجال الصفة صرْعَى سُبات .

جيران لايتأنّسون، وأحباء لا يتزاورون، بليت بينهم عُرَى التعارف، وانقطعت منهم أسباب الإخاء، فكلّهم وحيد وهمْ جميع، وبجانب الهجْر وهمْ أخلاّء ...

لايتعارفون لليلٍ صباحاً، ولا لنهار مساء، أيّ الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمدا .

شاهدوا من أخطار دارهم أفظع ممّا خافوا، و رأوا من آياتها أعظم ممّا قدروا، فكلتا الغايتين مُدّت لهم إلى مَيّاعة فاتت مبالغ الخوف والرجاء، فلو كانوا ينطقون بها لَعَيُّوا بصفة ما شاهدوا و ما عاينوا .

ولئن عميت آثارهم وانقطعت أخبارهم لقد رجعت فيهم أبصار العِبر، و سمعت عنهم آذان العقول، و تكلّموا من غير

جهات النطق، فقالوا: كلحت الوجوه النواضر، و خوت الأجسام النواعم، و لبسنا أهدام البلى، و تكاءدنا ضيق المضجع، و توارثنا الوحشة، و تهكمت علينا الربوع الصموت، فانمحت محاسن أجسادنا، وتنكرت معارف صورنا، و طالت في مساكن الوحشة إقامتنا، و لم نجد من كرب فرجا، ولا من ضيق متسعا .

فلو مثلتهم بعقلك أو كشف عنهم محجوب الغطاء لك وقد ارتسخت أسماعهم بالهوام فاستكت، واكتحلت أبصارهم بالتراب فخسفت، و تقطعت الألسنة في أفواههم بعد ذلاقتها، و همدت القلوب في صدورهم بعد يقظتها، وعاث في كل جارحة منهم جديد بلى سمجها وسعل طرق الآفة إليها، مستسلمات فلا أيد تدفع ولا قلوب تجزع ؛ لرأيت أشجان قلوب وأقذاء عيون لهم في كل فظاعة صفة حال لا تنتقل وغمرة لا تنجلي .

وكما أكلت الأرض من عزيز جسد وأنيق لون كان في الدنيا عدي ترف وربيب شرف، يتعلل بالسرور في ساعة حزنه، و يفزع إلى السلوة إن مصيبة نزلت به؛ ضنا بغضارة عيشه، وشحاحة بلهوه ولعبه ...

فبينا هو يضحك إلى الدنيا وتضحك إليه في ظل عيش غفول إذ وطئ الدهر به حسكه، ونقضت الأيام قواه، ونظرت إليه الحتوف من كثب، فخالطه بث لا يعرفه، ونجئ هم ما كان

يجده، وتولدت فيه فترات علل آنس ما كان بصحته ، ففزع إلى ما كان عوده الأطباء من تسكين الحار بالقار وتحريك البارد بالحار، فلم يطفئ ببارد إلا ثور حرارة، ولا حرك بحار إلا هيج برودة، ولا اعتدل بممازج لتلك الطبائع إلا أمد منها كل ذات داء، حتى فتر معلله، و ذهل ممرضه، و تعايا أهله بصفة دائه ، وخرسوا عن جواب السائلين عنه ، وتنازعوا دونه شجئ خبر يكتمونه ، فقائل يقول : هو لما به ، وممن لهم إياب عافيته ، ومصبر لهم على فقده يذكرهم أسى الماضين من قبله ...

فبينا هو كذلك على جناح من فراق الدنيا وترك الأحبة إذ عرض له عار من غصصه، فتحيرت نوافذ فطنته، ويبست رطوبة لسانه، فكم من مهم من جوابه عرفه فعي عن رده، و دعاء مؤلم لقلبه سمعه فتصامّ عنه، من كبير كان يعظمه، أو صغير كان يرحمه، و إن للموت لغمرات هي أفظع من أن تستغرق بصفة أو تعتدل على قلوب أهل الدنيا ... انتهى .

و في تفسيره لقوله تعالى { رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله } يقول الإمام[٢٦٩] :

٢٦٩ــ نهج البلاغة ٢/٢١١ وما بعدها .

إن الله سبحانه جعل الذكر جلاء للقلوب ؛ تسمع به بعد الوقرة، و تبصر به بعد الغشوة، وتنقاد به بعد المعاندة ...

و ما برح لله ـ عزت الاؤه ـ في البرهة بعد البرهة و في أزمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم و كلمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار والأفئدة، يذكرون بأيام الله، و يخوفون مقامه، بمنزلة الأدلة في الفلوات، من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه و بشروه بالنجاة، و من أخذ يميناً و شمالاً ذموا إليه الطريق و حذروه من الهلكة، و كانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات و أدلة تلك الشبهات .

و إن للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة، و يهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين ويأمرون بالقسط ويأتمرون به ، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه ...

فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، و حققت القيامة عليهم عداتها، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا، حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس ويسمعون ما لا يسمعون.

فلو مثلتهم لعقلك في مقاومهم المحمودة و مجالسهم المشهودة، وقد نشروا دواوين أعمالهم ، وفرغوا لمحاسبة أنفسهم عن كل

صغيرة وكبيرة أمروا بها فقصّروا عنها ـ أو نهوا عنها ففرطوا فيها ، وحملوا ثقل أوزارهم ظهورهم فضعفوا عن الاستقلال بها ، فنشجوا نشيجاً وتجاوبوا نحيباً ، يعجون إلى ربهم من مقاوم ندم واعتراف ؛ لرأيت أعلام هدى ومصابيح دجىً ، قد حفت بهم الملائكة ، وتنزلت عليهم السكينة ، وفتحت لهم أبواب السماء ، وأعدت لهم مقاعد الكرامات في مقام اطلع الله عليهم فيه فرضيَ سعيهم وحمد مقامهم يتنسّمون بدعائه روح التجاوز .

رهائن فاقة إلى فضله ، وأسارى ذلة لعظمته ، جرح طول الأسى قلوبهم وطول البكاء عيونهم ، لكلّ باب رغبة إلى الله منهم يدٌ قارعة ، يسألون من لا تضيق لديه المنادح ولا يخيب عليه الراغبون .

فحاسبْ نفسك لنفسك ؛ فإنّ غيرها من الأنفس لها حسيبٌ غيرُك .

هذا هو علم الإمام في تفسير القرآن الكريم ، ولأنّ التفسير يتعرض لأوصاف المنافقين وللحكّام الظالمين والفقهاء الذين لا يتورعون عن الإفتاء فقدْ حدَثَ تغييب متعمّد من قِبل الحُكّام ، وتعتيم سلطانيّ على هذا الأثر الفريد ...

و في الوقت نفسه فإنّ أهل البيت خشوا من القول بجيازتهم له، و عندما فشا الفقه العضوض تناولوا التفسير بأقوال لا يُصدّقها العقل، و أشاعوا عن هذا التفسير بأنّه مصحف فاطمة ، و انّ فيه قرآناً أكثر ممّا هو موجود بين الدّفّتين، و تناقل الرواة هذا الزعم ، و أصبح من ضمن المسلّمات المقدّسة و التي تلقى رواجاً بين أبناء الأمّة .

أمّا كتاب الجفر : الذي قالوا عنه: بأنّ أهل البيت يعتقدون في أنّ فيه علم ما كان وما سيكون ؛ فإنّنا عندما قرأنا مخطوط الجفر وجدنا كاتبه الشيخ كمال الدين أبوسالم محمد بن طلحة يقول في مقدمته[٢٧٠] : ثمّ بعد الصلاة والسلام الغالي على النّبيّ المصطفى والآل ... فإنّنا رزقني الله تعالى من مباد الطاقة وإنعامه ومن مباد إحسانه وإكرامه مؤاخاة عبد صالح تقيّ ومصافاة خليل فالح نقيّ ، أنزلتُها من قلبي منزلة ما وصلت إليها أخوة النسب من قبلها ولا يصل إليها أحد من بعدها ، ونمت بيننا المحبة في الله والصحبة لله ، وكان كثيراً ما يطلب من ربه أن يمنحه به الاسم الأعظم والنور الأقوم ، وتكرّر لذلك تقلّب وجهه في السما ، ورفع يديه إلى الله تعالى بأنواع

٢٧٠ــ نقلاً عن صورة لمخطوط كتاب الجفر /٥

الدعا ، فبينما هو في بعض خلواته مشتغل بصلاته تحت جلباب حندس الظّلما ؛ إذ كُشف له عن لوح إلا متراً ، فأعرض عنه مشتغلاً بذكر ربّه في مقام قُربه ، فوكزته يد مع صوت يقول له :" خذ ما تنتفع به " ، فأخذه واستثبت ما فيه ، فوجده دايرة (دائرة) وخطوطاً وأسماءً وحروفاً ، فأحاط علماً بصورها دون معانيها ، ولم يعلم شيئاً من الأسرار المودعة فيها ، فلمّا شمّر الليل ذيل ظُلمته ، وتنفّس الصبح أنوار غُرّته ، وقضى الواجبَ عليه من أداء الوقت وفريضته ؛ غشيته غشية صالحة صافحته بها يد سنة ، فرأى أميرَ المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، فسلّم عليه، فقال له: أين اللوح الذي أوتيته ؟

فأخرجه، فأخذه رضي الله عنه فاستعظمه، ثمّ قال في معناه أشياء كثيرةً لم يَفهمها ولا عرف منها سوى كلمة واحدة يأتي ذكرها ، فقال : يا أمير المؤمنين ... ما فهمتُ ما قُلتَ لي ؟!

فقال له : فلان (وسمّاني له بكنيته) .

فلمّا علا النهار وارتفع حضر عندي وعرّفني عيْن الواقعة بصورتها ، وتلى عليّ آيات سورتها ، وخطّ صورة الدائرة وما عليها خارجاً وداخلاً ، فوقفتُ عليها وتأمّلتُها ، فوجدتُها من عجايب الأقدار وضعاً وغرايب الأسرار أصلاً وفرعاً ، ونظرتُ في حروفها المرتّبة وتراً وشفعاً وأسمائها المركّبة تفرقةً

وجمعاً ، فعلمتُ أنّه لا يمكن الوقوف على كنْه مقصدها ولا الوصول إلى حلّ عُقَدها ولا بحصى أوطار مطالبها ولا أسرار ماربها إلا بتأييد ربّانىّ وتوفيق إلهىّ ، فرفعتُ يدى متضرّعاً إلى عالم السر والنجوى وسألتُه أنْ يرفع لى رياح مكنونها ، وينتجنى نتاج مصونها ، ويوضّح لى منهاج مخزونها ، ويشرح صدرى لاستخراج أسرار مضمونها ، فأحسّت نفسىّ بأنفاس إجابة دعائها وتضرّعها ، وبسطت لى استشراق أنوار الأسرار من مطالعها يد مطلعها ، فلمّا لاحت الأنوار وظهرت الأسرار بأمّر مبديها ومبدعها وتقدير مسيّرها ومُطلعها علّقتُ هذه الموضوعة (يقصد الدائرة) بالاختصار المكفوفة ، وهى هذه، افهم ترشد ... انتهى .

و بعد أنْ يضع الدائرة يشرع فى شرْحها، فكلّ حرْف أو اسم يشير إلى سنين معيّنة، و يستمرّ فى السنين حتى يَصِل إلى ما يعتقد أنّه نهاية الزمان، مشيراً إلى أحداث هامة فى التاريخ الإسلامىّ من بداية المولد النبوىّ الشريف و حتى استيلاء السلطان سليم الأول العثمانى على الشام و مصر و تأسيس الخلافة العثمانية، علماً أنّ المخطوط الذى لدينا مكتوب عام ١٢٦١ هـ (١٧٤٧ م) .

و قد اعتمد الجفر على الحروف و أرقامها، معتبراً أنّ كلّ حرْف يشير إلى سَنَة معيّنة أو حدث معيّن .

الذى نستخلصه : أنّ الجفر عبارة عن رؤيا رآها رجل صالح واعتبرها من المبشّرات وكتب ما كتب ، مثله مثل " الفتوحات المكية " وأشعار ابن الفارض وغيرها من كتب المتصوفة، فكاتب الجفر رجل صوفىّ و سُنّىّ، و ليس شيعيّاً، و لم يردْ فى الجفر أخبار عن الأئمة من أهل البيت ...

ثمّ إنّ كتابته حديثة عام ١٢٦١ هـ ، أىْ أنّه ليس من ضمْن عقائد الشيعة وإنْ رأوا فيها كوامن من علم الإمام ، وقد رفضه أغلبية علماء الشيعة واعتبروه من فكْر الغلاة .

الجفر ــ إذَنْ ــ كتاب صوفىّ سُنّىّ .

و بصرْف النظر عن القدح فيه وما جاء فيه من غيبيات فإنّنا نرى أنّ الزعم بإلصاق الجفر بالشيعة ظُلْم كبير لهم ؛ فإنّه لا يمتّ لهم بصلة من قريب أو بعيد ، مع الأخذ فى الاعتبار أنّ المتصوفة جميعاً يعتبرون الإمام علياً إمامهم وقدْوتهم، و يقولون عنه بأنّه أوّل مَن لبس الخرقة ، و أخذوها عنه زهداً فى الدنيا وأملاً فى الآخرة .

و في الجفر أشعار تؤرخ للأحداث التي أوردها المؤلف فيه ، والتي لا تضيف إلى علم الإمام الغزير ما نراه في علوم أهل البيت جميعاً ...

وعلى هذا ... نرى أن الإمام هو الإمام المبين ...

علىّ الإمام المبيّن ... لماذا ؟

و كلمة " الإمام المبين " تعني الكتاب الذي يدوّن فيه كُلّ شيء، **{ و كُلّ شيء أحصيناه في إمام مُبين }**[٢٧١] أي: و جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ ، و الكتاب المبين هو أم الكتاب .

و كلمة " الإمام " لغة تعني الصقع من الأرض، و تعني الطريق أيضاً في قوله تعالى **{ وإنّهما لبإمام مُبين }**[٢٧٢] .

و الإمام الذي يُقتدى به جمعه " أئمة " ؛ يقول سبحانه وتعالى **{ فقاتلوا أئمة الكفر }**[٢٧٣]، و يقول تعالى **{ يوم ندعو كُلّ أناس بإمامهم }**[٢٧٤] .

٢٧١ــ سورة يس : ١٢

٢٧٢ــ سورة الحجر : ٧٩

٢٧٣ــ سورة التوبة : ١٢

٢٧٤ــ سورة الإسراء : ٧١

فكلمة الإمام ــ إذن ــ تعني رأس كُلّ شيء ، و تعني ــ أيضاً ــ المقدّم على غيره .

والإمام عليّ قال له النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فيما قال **{ تُبين للناس من بعدي }**، والذي يبين للناس الذي اختلفوا فيه أو الذي غمض عليهم أو أشكل عليهم يكون مقدّماً على الناس في العلم ، لذلك دائماً ما كان يقول : سلوني قبل أنْ تفقدوني ، سلوني عن طُرُق السماء ؛ فإنّي أعلم بها من طُرُق الأرض ؛ فإنّ بين جنبيّ علوماً كالبحار الزواخر ...

كما أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم علّمه ألف باب من العلم، كُلّ باب يفتح إلى ألف باب، و من كان هذا علمه وذلك قدره أقلاً يحصي الله فيه كُلّ شيء ؟! فإنْ أحصى الشيء عرف قدره، وإنّ من أحصى الكتاب فقد حفظه، والإمام عليّ مع القرآن والقرآن معه بنصّ الحديث الشريف، و هو الذي يبين للأُمّة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فلا بأس أنْ يكون هو الإمام المبين مُظهر الحقّ ومُبيد الباطل، خاصّةً وأنّه وعى العلم وحفظه ونشره و أذاعه .

و لم يحظَ رجل في الإسلام ما حظي به الإمام عليّ من المناقب والتقدي؛ يكفيه أنّه من ضمن أول من مُنعت عنه الصدقة هو وذريته ؛ حتى يكتمل التطهير من أدران الدنيا ...

و قد قال الإمام عن نفسه [٢٧٥]: أنا كالجبل؛ ينحدر عنى السيل، و لا يرقى إلىّ الطير ...

ولم يكن قوله ذلك فخراً وتباهياً ، بل هو تذكير الأمة بمنزلته ؛ لأنه كان يدرك أنّ الحكام الفاسدين سوف يقلبون كلّ حقيقة ناصعة عنه ، رغم أنه روى عن النبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم **{ ما سألتُ ربى شيئاً فى صلاتى إلا أعطانى ، وما سألتُ لنفسى شيئاً إلا وقد سألتُ لك }**[٢٧٦] .

المهمّ ... أنّ كلّ الدلائل تشير إلى أنّ علياً قد كرّمه الله و فضّله، و أنّ النبىّ الكريم صلّى الله عليه و آله و سلّم حرص دائماً على إظهار مناقبه ؛ لأنه كان يعلم أنه بعْد وفاته عليه أفضل الصلاة والسلام بثلاثين عاماً سيتمّ إخفاء هذه المناقب وتشويه الحقائق، بل وسبّه من فوق منابر المسلمين ...

كما حرص النبىّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم على تأكيد حقيقة وراثة علىّ للعلم النبوىّ بعْد أنْ دعا له بأنْ يكون الأُذُن الواعية .

٢٧٥ــ نهج البلاغة ١ / ١٨

٢٧٦ــ ابن عساكر : التاريخ الكبير ١٢/١٤٠ والطبرانى فى الأوسط ٢/٣٠١

وقد عرفْنا كيف كان الإمام شغوفاً بالعلم حريصاً على طلب الحكمة؛ فهى ضالة المؤمن، وقد رأيْنا مدى العلم الجمّ الذى وُجد على ألسنة الأئمة و فى سيرهم عند جموع المسلمين، و أدركْنا أنّ علْمه لم يقتصر على العلم الدينى وحده ، بل وعلوم الدنيا من سياسة وثقافة وأخلاق وغيْرها ، وكلّها تعتمد على بصيرته الدينية المشبّعة بنور الوحى وفيْض النُبوّة ...

وكان يقول [٢٧٧]: لو ضاعت منى ناقة لبحثْت عنها فى كتاب الله ...

أى أنّه يأخذ من كتاب الله الوسيلة التى تمكّنه من كيفية البحث عنها ، ولِمَ لا وهو مع القرآن والقرآن معه، ولن يفترقا كما قال الصادق المعصوم عليه الصلاة والسلام .

ولقد ثبت فى الأبحاث النفسية أنّ كلّ إنسان له ساعة أو ساعات فى حياته قد يعلم فيها ببعض الأشياء عن طريق الحدس الذى هو فرع من الإلهام بسبب ما أودع الله فيه من قوة على ذلك، وهذه القوة تختلف شدّة وضعفاً وزيادة ونقصاً فى البشر باختلاف أفرادهم، فيطفر ذهْن الإنسان فى تلك الساعة إلى المعرفة من دون أنْ يحتاج إلى التفكير وترتيب المقدمات

٢٧٧ــ على إمام المتقين ٢ / ٦٥

والبراهين أو تلقين المعلّمين، ويجد كُلّ إنسان من نفْسه ذلك في فرص كثيرة في حياته، و إذا كان الأمر كذلك أنْ يَبلغ الإنسان من قوّته الإلهامية أعلى الدرجات ...

و إذا كان هذا الإنسان تقيّاً قريباً من ربّه مدعوّاً له من نبيّه ألا يكون لديه الملكات النفسية التي ينظر بها إلى عيْن اليقين ، والرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول **{ اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنّه ينظر بنور الله }** .

لقد حاز الإمام عليّ العلوم جميعها: الشّعْر، والفلسفة، وعِلْم القضاء، والكلام، والفقه، والنحو .

و قد استقى كُلّ العلوم من القرآن الكريم، و من رفْقته اللصيقة بنبيّ الله الكريم ...

ففي علم القضاء قال سعيد بن جبير : استقبل أمير المؤمنين دهقانا، فقال له: يا أمير المؤمنين ... تناحست النجوم الطالعات ، و تناحست السعود بالنحوس. فإذا كان مثْل هذا اليوم وجب على الحكيم الاختفاء، و يومك هذا يوم صعْب ؛ فقد اقترن كوكبان، وانكفأ فيه الميزان، وانقدح من بُرْجك النيران، و ليس الحرب لك بمكان .

فقال الإمام علي[٢٧٨] : أيّها الدهقان المنبئ بالآثار المخوّف من الأقدار ... ما كان البارحة صاحب الميزان ؟ و في أيّ برْج كان صاحب السرطان ؟ و ما الطالع من الأسد و الساعات في الحركات ؟ و كم بيْن السراري والذراري؟

قال الدهقان: سأنظر في الاسطرلاب .

فتبسّم أمير المؤمنين وقال له : و يْلك يا دهقان! أنت مسيّر في الثابتات ؟ أم كيف تقضي على الجاريات ؟ و أين الأسد من المطالع ؟ وما الزهرة من التوابع والجوامع، و ما دوْر السراري المحرّكات؟ و كم قدْر شعاع المنيرات؟ و كم التحصيل بالغدوات ؟

فقال : لا علْم لي بذلك يا أمير المؤمنين .

فقال له: يا دهقان ... هل نتج علْمك أن انتقل بيْت ملك الصين، واحترقت دور بالزنج، وخمد بيْت نار فارس، وانهدمت منارة الهند، و غرقت سرنديب، وانقضّ حصْن الأندلس، ونتج بطريك الروم بالرومية ؟

فخرّ الدهقان ساجداً، فلمّا أفاق قال له أمير المؤمنين: ألم أرْوك من عين التوفيق ؟

فقال : بلى .

٢٧٨ــ نهج البلاغة ٤/١٠

فقال: أنا و صاحبي لاشرقيّون و لاغربيّون، نحن ناشئة القطب و أعلام الفلك ...

أمّا قولك " انقدح من برجك النيران وظهر منه السرطان " وكان الواجب أن تحكم به لي لاعليّ: أمّا نوره و ضياؤه فعندي، و أمّا حريقه ولهيبه فذهب عني، و هذه مسألة عقيمة احسبها إنْ كنت حاسبا.

فقال الدهقان: أشهد أنْ لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ، وأنّك وليّ الله .

على أنّ الإمام عليّا كان هو الذي استلهم منه علماء الفقه والكلام والتصوف ؛ فهو مستنبط هذه العلوم ، وأخذ عنه باقي أصحاب المذاهب ...

يقول ابن أبي حديد[٢٧٩] : وقد عرفت أنّ أشرف العلوم هو العلم الإلهيّ؛ لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم، والمعلوم أشرف الموجودات، فكان هو أشرف العلوم، و من كلامه اقتُبس منه، و عنه نُقل، و إليه انتهى، و منه ابتدأ ...

٢٧٩ــ ابن أبي حديد : شرح نهج البلاغة ، وأيضاً : عليّ من المهد إلى اللحد / المطبعة العلمية ... قم - إيران /٢٢١ وما بعدها .

فإنّ المعتزلة الذين همْ أهل التوحيد والعدل وأرباب النظر ــ ومنهم تعلّم الناس هذا الفنّ ــ تلامذته وأصحابه ؛ لأنّ كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، و أبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذ الإمام عليّ .

و **أمّا الأشعرية**: فإنّهم يضمّون إلى أبي الحسن الأشعريّ، و هو تلميذ أبي عليّ الجبائيّ، و أبو عليّ أحد مشايخ المعتزلة، فالأشعرية ينتهون بالأخرة إلى أستاذ المعتزلة و معلّمهم، و هو عليّ بن أبي طالب .

أمّا الإمامية والزيدية : فانتماؤهم إليه ظاهر .

و من العلوم علْم الفقه، والإمام هو أصله و أساسه، و كلّ فقيه في الإسلام فهو عيال عليه و مستفيد من فقْهه ...

أمّا أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد و غيْرهما : فأخذوا عن أبي حنيفة .

و أمّا الشافعي : فقرأ على محمد بن الحسن، فيرجع فقْهه إلى أبي حنيفة .

و أبو حنيفة قرأ على جعفر الصادق، و جعفر قرأ على أبيه، و ينتهي الأمر إلى عليّ .

وأمّا مالك : فقرأ على ربيعة الرأي، و قرأ ربيعة على عكرمة، و قرأ عكرمة على عبدالله بن عباس، و قرأ ابن عباس على عليّ .

و من العلوم: علم تفسير القرآن، و عنه أُخذ، و منه فرّع، و إذا رجعت إلى كُتب التفسير علمت صحّة ذلك؛ لأنّ أكثره عنه ، و عن عبد الله بن عباس ، وهو تلميذ عليّ .

و من العلوم: علم النحو و العربية، و قد علم الناس كافّة انه هو الذي ابتدعه و أنشأه، و أملى على أبي الأسود الدؤلي جوامعه و أصوله ...

و من جملتها: الكلام كلّه ثلاثة أشياء: اسم، وفعل، و حرف.

و من جملتها: تقسيم الكلمة إلى معرفة و نكرة، و تقسيم وجوه الإعراب إلى الرفع و النصب و الجرّ و الجزم .

ثمّ ينهى بالقول: إنّ هذا يكاد يلحق بالمعجزات؛ لأنّ القوّة البشرية لا تفي بهذا الحصر ولا تنهض بهذا الاستنباط .

و نقول : إنّ الإمام عليّا قد وعى جميع العلوم و استوعبها، وبثّها إلى تلامذته و أصحابه، فقاموا بتعليمها إلى تلامذتهم، و أخذ الاخرون في نشرها فتأسّست المذاهب و الأفكار و المدارس، وذلك يرجع إلى أنّ عقول بعض التلاميذ استوعبت جزءاً من

حديثه و أذاعته، و عقول البعض الآخر استوعبت جزءاً آخر، و فريق استوعب جزءاً ثالثاً .

و بالتالي فإنّ علم الإمام هو الأساس الذي استوعب شمولية القرآن الكريم و علم نبيّ الله الأعظم صلّى الله عليه و آله وسلّم ، ولو أنّ الأمّة تركت الأمر فقهيّاً وسياسيّاً للإمام عليّ و الأئمة من ذريته من بعده لما تفرقت إلى مذاهب ومدارس .

ولكنّ الذي نحرص على قوله : إنّ من يجمع هذه العلوم بهذا الشمول فإنّ لقب " الإمام المبين " معبّر عنه ، و فريضة يقول بها كلّ مسلم .

ثمّ ألا يحقّ لنا القول : أنّ الإمام عليّا هو الإمام المبين ، و يجوز لنا أنْ نعتقد أنّ الله حفظ فيه كلّ شيء حفظ إحاطة أو حفظ إخبار ، و " كلّ شيء " لا يعني تفاصيل الأشياء ، ولكنّها تعني فروع المعرفة : العقلية واللدنية ...

نعتقد كلّ ذلك و أكثر، والله سبحانه أعلى وأعلم .

مَراجع الكتاب

١. القرآن الكريم .

٢. ابن أبى حديد : شرْح نهْج البلاغة / دار الكتب العربية / القاهرة ١٩٥٧.

٣. ابن الأثير: أسد الغابة فى معرفة الصحابة / المطبعة المصرية ١٣٤٨هـ.

٤. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ / تصحيح عبدالوهاب النجار / المطبعة المصرية ١٣٤٨هـ.

٥. ابن تيمية : الفتاوى / دار الريان / القاهرة ١٩٨٦.

٦. ابن سعد : الطبقات الكبرى / المطبعة المصرية / ١٩٢٨.

٧. ابن عساكر: التاريخ الكبير / المجمع العلمى العربى / دمشق ١٩٥١.

٨. ابن كثير: البداية والنهاية / دار الفكر/بيروت / بدون تاريخ.

٩. ابن هشام: السيرة النبوية /تحقيق عمر عبدالسلام /دار الريان / القاهرة ١٩٨٧.

١٠. أبو بكر بن العربى: العواصم من القواصم... شرح محب الدين الخطيب / دار الريان / القاهرة ١٩٨٦.

١١. أبو الفرج الأصفهانى: مقاتل الطالبيّين / مطبعة النجف / ١٣٥٣ هـ.

١٢. أبو الفضل سديد الدين شاذان / الفضائل / مؤسسة الأعلمى / بيروت ٨٨ .

١٣. أحمد أمين : ظهر الإسلام (ثلاثة أجزاء) / مكتبة الأسرة / القاهرة ٢٠٠٠.

١٤. أحمد أمين : فجر الإسلام / مكتبة الأسرة / القاهرة / ١٩٩٩.

١٥. أحمد راسم النفيس: علىّ والعدالة الاجتماعية (بحث منشور فى مجلة النداء المصرية) شبه دورية / يوليو ٢٠٠١ .

١٦. أحمد راسم النفيس : نفحات من السيرة / على نفقة المؤلف / المنصورة / مصر /٢٠٠١.

١٧. نهج البلاغة / تحقيق الإمام محمد عبده / دار الفكر / بدون تاريخ.

١٨. حامد حفنى داود : تاريخ التشريع الإسلامىّ فى مصر /دار المعارف / القاهرة ١٩٧٧.

١٩. حسين مؤنس : دستور أُمّة الإسلام /مكتبة الأسرة /القاهرة ١٩٩٨.

٢٠. زهير غزاوى : الإمام علىّ بن أبى طالب والعلوم الحديثة ... مجلة النور (عدد رقم ١٢٧) كانون أول (ديسمبر) ٢٠٠١ م .

٢١. سيف بن عمر : الفتنة ووقعة الجمل /طبعة مصرية قديمة / بدون دار نشر / ١٩٤٨.

٢٢. السيوطى : إحياء الميت فى فضائل آل البيت / تحقيق عاطف وفدى / مكتبة الرحمة المهداة / المنصورة / مصر ٢٠٠٣.

٢٣. الطبرى : تاريخ الأمم والملوك / دار المعارف /القاهرة ١٩٦٢.

٢٤. طه حسين : عثمان /دار المعارف /القاهرة ١٩٧٧ .

٢٥. طه حسين : علىّ و بنوه /دار المعارف /القاهرة ١٩٧٧ .

٢٦. عباس العقاد : عبقرية الإمام /مكتبة الأسرة / القاهرة ٢٠٠١.

٢٧. عبدالحسيب طه حميده : أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثانى الهجرى / دار الزهراء / القاهرة ١٩٨٨.

٢٨. عبدالحسين شرف الدين: المراجعات /دار الفكر / بيروت / ١٩٨٦.
٢٩. عبدالرحمن الشرقاوى : علىّ إمام المتقين / مكتبة غريب / القاهرة ١٩٧٧.
٣٠. عبدالفتاح عبدالمقصود: موسوعة الإمام علىّ (٨ أجزاء) / مكتبة التربية / بيروت / بدون تاريخ.
٣١. عبدالمنعم ماجد: التاريخ السياسى للدولة العربية /مكتبة الأنجلو المصرية /القاهرة ١٩٧٩.
٣٢. عبدالمنعم النمر: الشيعة – المهدى – الدروز ... تاريخ و وثائق /دار الحرية /القاهرة ١٩٨٨.
٣٣. على ابى طالب: نهج البلاغة، تحقيق الإمام محمد عبده / دار الفكر/ بدون تاريخ.
٣٤. علىّ أبو الخير: أشهر الخونة والمفسدين فى تاريخ الأمّة / دار الوفاء المنصورة / مصر ١٩٩٩.
٣٥. على أبو الخير: فى رحاب كربلاء / مركز يافا للدراسات / القاهرة ٢٠٠١.
٣٦. علىّ شريعتى : العودة إلى الذات / ترجمة الدكتور ابراهيم الدسوقى شتا / دار الزهراء / القاهرة ١٩٨٦.
٣٧. كتاب الجفر : صورة مخطوط لدى المؤلف.

٣٨. كتب السنة الستة : منشورات دار الريان / القاهرة ١٩٨٦.
٣٩. مجموعة مؤلفين: الإمام الصادق ... فكر يتجدد / منشورات مؤسسة الإمام الخوئى / لندن ٢٠٠٠.
٤٠. مجموعة مؤلفين: العراق فى التاريخ /دار الحرية / بغداد ١٩٨٣.
٤١. محمد باقر الحكيم: الوحدة الإسلامية من منظور الثقلين / مركز يافا للدراسات / القاهرة ٢٠٠٢.
٤٢. محب الدين الخطيب: الخطوط العريضة /بدون دار نشر / ١٤١٠هـ.
٤٣. محمد جواد مغنية: علىّ والقرآن /الشركة العربية الحديثة للطباعة والنشر / بيروت / بدون تاريخ.
٤٤. محمد جواد مغنية: فقه الإمام الصادق /دار الفكر/بيروت / بدون تاريخ.
٤٥. محمد الحسين آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة و أصولها / مكتبة صيدا / لبنان/ بدون تاريخ.
٤٦. محمد رضا المظفر: عقائد الشيعة الإمامية / دار الزهراء / بيروت ٢٠٠٠.
٤٧. محمد كاظم القزوينى : علىّ من المهد إلى اللحد /المطبعة العلمية / قم / إيران / بدون تاريخ .

٤٨. محمد متولي الشعراوي: تفسير القرآن الكريم / كتاب اليوم / القاهرة ١٩٨٧.
٤٩. محمود أبوريه: أضواء على السنة المحمدية / دار المعارف / القاهرة ١٩٧٧.
٥٠. مرتضى العسكري: عبدالله بن سبأ و أساطير أخرى / در الزهراء/ بيروت ١٩٩١.
٥١. النسائي : خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب / مكتبة النشرتي / القاهرة ١٩٩٧.

Ali
Al-Imām al-Mubīn

by

Ali Abolkheir

Edited by

Dr. Hamed Sedqi

Institute for Humanities
and
Cultural Studies

Tehran, 2004

Ali
Al-Imām al-Mubīn

by

Ali Abolkheir

Institute for Humanities
and
Cultural Studies

Tehrān, 2004

شابک ۲-۲۰۴-۴۲۶-۹۶۴
ISBN 964. 426. 204. 2

۲۰۰۰ تومان